

منشورات دار مكتبة الحيالة



Bibliotheca Alexandrina

مكيمةوركي

طفولتك

الترجمة الكاملة

منهزوراتدارمكتية الحيالة

كان والدي مستقيا على الارض تحست نافذة غرفة صغيرة مظلمة تعسج بالغبار ، يبدو لي طويلا بشكل يلفت النظر ويدعو على الدهشة ، وقد اكهتسى بالبياض من قمة راسه حتى اخمص قدميه . . وكانت اصابع قدمه الحافية منفرجة عرضا بشكل غريب جدا ، تتباعد عسن بعضها بفعل حركة تشنجه ، واصابع يديه اللطيفتين ، المصلوبتين فوق صدره ، ملتوية هي الاخرى بعناد وقوة ، وكان درهمان نحاسيان يغلقان عينيه الضاحكتين ، وقد أمسى وجهه النحيف شديد الزرقة ، هالني منه بصورة خاصة اسنانه الاصطناعية وبروزها بين فكيه المتوتين .

وكانت والدتي ، نصف العارية بتنورتها الحمراء القصيرة ، جاثية قربه تسرح شعره الطويل الناعم ، المنسدل بدلع على جبينه ، بذلك المشط الاسود الذي اعتدت ان استعمله منشارا اقطع بسه قشر البطيخ . كانت تجمجم باشياء عديدة مبهمة في صوت مبحوح عميق ، وقسد انتفخت عيناها الرماديتان وراحتا تذرفان دموعا غزيرة .

كانت جدتي _ وهي امراة ضخمة الجسم ، مستديسرة الراس ، كبيرة العينين ، ذات انف بارز يبعث على السخرية _ ممسكة بيدي ، وكل شيء نيها كثير النعومة ، عظيم الكابة ، فائق الفتنهة . . . وكانت هي الاخرى تذرف الدموع السخينة ، لكن بطريقة خاصة تصعد نفمة رقيقه ترافق بكاء أمي ، وكانت ترتجف بكليتها ، وهي تدفعني باستمرار ناحية والدي . أما انا فارتمي الى الخلف ، وأفتش عن مخبا لي وراء تنورتها . . . كنت خائفا و وتت واحد . . .

كنت قد أبللت لتوي من مرض خطير طرحني في الفراش مدة طويلة ، عادني والدي أثناءه _ وأنا أذكر ذلك جيدا _ وأخذ يلاعبني ويضاحكني في

نسيء كثير من الجذل والمرح . ولكنه اختفى ، نجأة ،وشغلت مكانه هذه المرأة الغريبة ، جدتى !

سألتها:

ــ هل تعبت كنيرا من السير حتى وصلت الى هذا المكان ؟ فأحاست :

ــ انا لم امثل ، بل ركبت ! فأنت لا تستطيع السير على الماء ، ايها الماجن الصفير ! لقد هبطت من نيجني نوفجورود .

وقد ابهم هذا الكلام على ، وان ترك في نفسي صدى مضحكا : كان يقطن فوقنا في المنزل بعض الفارسيين نوي اللحى الطويلة والاجسام الفاحلة ، اما القبو فيقطنه كالميكي ذو البشرة الصغراء الذيبتاجر بجلود الخراف. وكنت استطيع الهبوط اليه بالتزحلق على حاجز السلم ، او تدحرجا اذا زلت القدم بي . . . وانا اعرف ذلك تمام المعرفة ، ولكن ، ما دخل المياه في هذا الموضوع انها مخطئة ، وهي تخلط بين الاشياء بهوس وجنون .

سألتها:

- لم تنادينني بالماجن الصغير؟

فرن جوابها المقحم الهازيء:

_ لانك كبير جدا!

كان اللوبها في الحديث لطيفا ، جميلا ، رائعا . . . ولقد اصبحنا صديقين حميمين ، جدتي وانا ، منذ اليوم الاول للقائنا . اما الان مقد اخذ القلق يستولي علي ، مأود لو اغادر هذه المغرفة باتصى سرعة ممكنة .

كانت أمي تقلقني ، تملؤني دموعها ونواحها بمخاوف غريبة لا حصر لها ، فتلك هي المرة الاولى التي اراها فيها على هذه الحال ... كانت ، على وجه العموم ، امراة عابسة الوجه ، صامتة ، نظيفه ، حسنة الهندام ابدا ، عريضة المنكبين كالفرس ، ذات جسد متين ، ويدين صابتين تويتين للغاية ... غير انها غدت الان مترهلة الاعضاء ، شعشاء الهندام بشكل لا يبعث على الارتياح ابدا .. فثيابها معزقة ، وشعرها _ وهي تسرحه عادة وتعقصه كتلة ضخمة شقراء في قمة راسها _ قد تبعثر على كتفيها المعاريتين ونزل فوق عينيها ، في حين راحبت خصلة منه تتراقص على وجه والدي الفائم ، ومع الى قضيت فترة طويلة منتصبا في وسط الغرفة كالتهثال ،

مانها لم تعرني ادنى التفات على الاطلاق ، اذ شعلها عني امر تصفيف شعر روجها ، وواجب ذرف الدموع عليه . . .

وفتح الباب عجاة ، والقى المجندي الحارس وعدد من الفلاحين السود الوجوه نظرة عجلى على الغرفة ، ثم صاح الاول بحدة :

ـ هلموا اسرعوا ، واحملوه خارجا !

كان حرام اسود اللون، مسدلا على النافذة، وهو يتطاير بفعل تيار الهواء الجاري مكانه شراع تارب صغير ، يذكرني ، دون سبب على الاطلاق ، بما حدث لي مرة عندما اصطحبني والدي في نزهة على متن مركب شراعي ، وانفجرت عاصفة من الرعد بفتة ، فضحك والدي ، وضمني بين ركبتيه ، وصاح يهدىء من روعى :

- لا بأس ، لا تخف يا بني !

وعلى غير انتظار ، تحاملت والدتي على نفسها بصعوبة ، ولكنها لم تلبث ان سقطست واستلقت على ظهرها ، هانتشر شعرها على الارض ، وازرق وجهها ، وغاض منه كل لسون ، وانطبقت اسنانها بعنسف كانطباق اسنان والدى تماها .

تمتمت في صوت خائف يرتعد:

- اغلقى الباب ، اخرجى الكسى!

هده معتني جدتي جانبا ، وهي تمضي ناحية الباب ...

صاحت جدتی عالیا:

-- لا تخافوا ، أيها الطيبون ! لا تلمسوها ! اخرجوا ، محبة بالمسيح ! ليست هذه كوليرا ! بل بداية آلام المخاض ! ، اشفقوا عليها ، ايها الناس الكرام !

واختبأت وراء صندوق للملابس في زاوية مظلمسة ، اتطلع منهسا الى والمدتي تتلوى على الارض ، تئن وتصر بأسنانها ، بينما تتدحرج جدتي بالقرب منها وهي تتلو بلطف وجذل بعض الصلوات :

ــ باسم الاب والابن ! تشجعي يا غاريوشا ! يا والدة الالمه المفراء الحمينا . . .

كنت خائفا . . . فهما تتابعان الزحف والحركة على الارض تسرب والدي ، حتى تلامسا جسده البارد احيانا ، تثنسان ، وتبكيان ، وتلطمسان الخدود عزنا عليه . . . اما هو ، فيرقد هادئسا دون حراك ، وعلى محياه

سيهاء السخرية منهما ، واستمر هذا المشهد مدة ليست قصيرة ، وأمي تحاول الموقوط، على قدميها ، لتعسود من جديد فتسقط على الارض ، بينما تقفز جدتي داخل المغرفة وخارجها كطابة كبيرة سوداء ، وأنا عاجز عن أدراك أي مغزى لذلك الاضطراب كله . . . وعلى حين غرة ، تسردد في الظلمة بكاء طفل صغير

تنفست جدتى الصعداء ونبرت:

_شكرا لله النه صبى ا

واشتعلت شبعة ٠٠٠

لا ريب انني استسلمت للنوم في زاوية الغرفة ، لاننسي لم اعد اذكر شيئا مما حدث بعد ذلك . . .

اما ثاني ذكريات حياتي مكنت اقف في بتعة مهجورة في احدى المقابر ، ذات يوم ماطر . . . على رابية قليلة الارتفاع ، مسوق كتلة من التسراب ازجة متحركة ، اتفرس في تلك المحفرة التي انزلوا فيها نعش والدي ، كان قاع الحفرة يطفح بالماء والضفادع سدى لقد تفزت ضفدعتان فوق غطاء النعش الاصفر اللون ، واستقرتا عليه .

كنت هناك مع جدتي ، والحارس ، وغلاحين يحملان معوليهما ، وكنا ، جميعا ، نستحم في رذاذ بديع كان يتساقط حديثا . . .

قال الحارس ، وهو يتحرك مبتعدا :

اطمرا الحفرة بسرعة .

نانخرطت جدتي في البكاء ، وقد غطت وجهها بطرف وشاحها ... وانحنى الفلاحان ، وهالا اول دفعة من الطين في الحفرة ، فتطاير الماء منها ، واخذت الضفدعتان تثبان على جوانب القبر تطلبان النجاة . فتردها دفقات التراب ثانية الى قاع الحفرة .

وقبضت جدتى على مرفقى ، وقالت :

ــ ملنرجع ، يا اليوشها !

ماملت من مبضتها ، راغبا في العودة ...

تنهدت بشكل ترك في بعض الارتباب:

- اه ، يا الهسى !

ترى ، اشبكواها منى ام من رب السماء ؟

طلت جامدة في مكانها غترة طويلة ، مطرقة الرأس ، صامتة ، ٠٠٠ ولم يخطر لها ان تتحرك ، حتى بعد ان طمرت الحفرة تماما . ٠

مهد الفلاحان الارض بسطح معوليهما ، وفي هذه الانناء هبت ريح صرصر طردت الغيوم ، وحملت المطر بعيدا . فأخذت جدتي بيدي ، وقادتني الى كنيسة غير بعيدة تقوم بين غابة من الصلبان السود .

والتغتت الى عندما خرجنا من المقبرة ، وسألت :

_ ما بالك لا تبكى ؟ يجب ان تبكى تليلا!

نقلت :

_ انى لا اشعر بميل الى البكاء .

_ حسنا ، ان كنت لا تبيل الى البكاء ، فلا حاجة لك به اذن .

ادهشني منها ان تطلب الي البكاء . . . كنت نادرا ما ابكي ، واذا معلت ملأن بعض الناس جرح شعوري ـ ابدا لم ينتزع الالم الجسدي مني الدموع ـ ماذا ما اهرقتها مرة ، كان والدي يضحك من عبراتي ، أما والدتي منامرني قائلة :

_ لا تبك ! انى امنعك عن البكاء !

وقطعنا ، بعد قليل ، دربا عريضة مغبرة تمتد بين عسدد من المنازل تجمع بين اللونين الاسود والاحمر .

سالت جدتسي:

_ هل ستخرج الضندعتان من الحنرة 1

_ كلا ، لن تخرجا ، غفر الله لهما !

كانت تردد اسم الله بكثرة ، وبشيء من السهولة ، لم اشاهدها عند والدى مطلقا . . .

...

بعد مضي عدة ايام اتخذنا ، جدتي وأمي وأنا ، غرفة صغيرة على متن احد المراكب البخارية . . . كان اخي الطفل مكسيم قد تونسي ، وهو الان

ممدد على طاولة صغيرة في احدى الزوايا ، تلفه ثياب بيض محزومة بشريط احمصر .

جلست على بعض صناديقنا وامتعتنا ، اتطلع الى الخارج مسن كوة صغيرة ، مستديرة ، اشبه بعين الحصان الصغير ، وكانت المياه الغاضبة تتدغسق تحت الزجاج المبتل ، وتتكوم في بعض الاحيسان بموجة عاتيسة جبارة نمتغمره برذاذها . وساعتئذ ، كنت اتفز مكرها حتى الارض . . . نمت نمتفضني جدتي بذراعيها الناعمتين وتعيدني مرة اخرى الى مكاني السابق موق الامتعة ، وهي تقول :

ــ لا تخف ، يا عزيزي!

كان خباب رطب، رمادي اللون، يبدو كأنه معلق غوق المياه. وبين الفينة والفينة ، كانت بتعة خضراء من الارض تنبثق من قلب الضباب ، ثم لا تلبث ان تتلائسي في مكان ما ، على بعد سحيق . . . كان كل شيء يحيط بنا يهتز بشكل واضح جلي ما عدا أمي ، التي تقف ثابتة لا تأتي بحركة ، مستندة الى المجدار وقد شبكت يديها خلف راسها ، واغلقت عينيها بشدة واحكام ، وبدا وجهها اسود اللون ، عابسا ، خاليا من كل تفكير ، ولم تفسه بكلمة طوال الوقت ، حتى خيل الى انها قد تغيرت تماما ، وتجسدد كل شيء فيها . حتى ان ثوبها ايضا لم يك مالوفا لدى . . .

كانت جدتي تلتفت اليها من ومت لاخر ، وتخاطبها بحنان وعطف لا يخطران بيال :

--- هلا تناولت بعدس الطعام ، يا غارغارا ... لقمة واحدة على الاقسل ؟...

ولكن والدتي نظل سعتصمة بصمتها محتفظة بجمودها ...

وطفقت جدتي تحدثني همسا كعادتها ، غاذا خاطبت امي توجهت اليها بصوت عال بعض الشيء وفي شيء من الخجل والحذر ، وفي فترات متباعدة كل البعد ، مما دفعني الى الظن بانها تخاف والدتي . ولم يصعب علي فهم ذلك ، بل ضاعف تحببي الى الجدة ، وزاد الروابط بيننا شدة وتمكنا . . .

قالت أمي ، على غير انتظار ، في صوت مرتفع أجش : - ساراتوف ! أين هو ذلك النوتى ؟ تلك كلماتها الغريبة غير مألومة : « ساراتوف » ، « النوتي » ؟ .

ودخل الى الغرفة رجل عريض المنكبين ، اسود الشعر ، يرتدي بزة زرقاء ، ويحمل صندوقا صغيرا تناولته جدتي منه ، ومددت جسد اخي الصغير في جوفه . . . ومن ثم حملنه ، بعد ما تم لها ما ارادت ، وخطت ناحية الباب ، وقد مدت يديها بحملها الى الامام . غير انها كانت اسمن من ان تتمكن من المرور منه الا بصورة جانبية ، بحيث وقفت عنده حائرة مرتبكة ، وهيئتها تبعث على السخرية .

صاحت والدتى ، وهى تختطف النعش من يدى جدتى :

_ اوف ، ما بك يا امساه !

ثم اختفتا معا ، وتركّاني في الغرفة بصحبة ذلك الرجل الازرق . فقال ، وهو يحنو على :ا

ــ لقد ذهب اخوك وتركنا هنا .

۔۔ ہن انت ؟

ــ نوتــي ،

_ ومن ساراتوف ؟

ــ انها بلدة . انظر من الناهذة ، انها . . هنساك ! . . .

كانت الارض تتحرك خارج النافذة وتهيد ، سوداء ، كثيرة التعرجات، مكللة بالضباب المتصاعد منها كالدخان ، فتذكرني بقطعة كبيرة من الخبز المتطعت من رغيف ساخن .

ــ این ذهبت جدتی ۱

ــ تدنن حنيدها ،

_ هل ستدانه في جواف الارض ؟

_ طبعـا!

متصممت عليه كيف طمروا الضفدمتين الحيتسين يوم دمنوا والدي . محملني بين ذراعيه ، وضمني الى صدره ، وتبلني ثم تال :

ــ ٥٦ ، يا صغيرى ! انك لا تدرك الا أمورا قليلة بعد ! ليست الضغادع

_ أخــددها السيطان _ من يستحق السفقة ، بل والدتك . . . انظر كم هي نتألم وتشقى !

وغجام ، قامت غوقنا ضوضاء عظيمة هي مزيج من الزمجسرة والانين والصراخ ، لم أربعسد منها خوفا لانسي ادركست ان مصدرها ان هسو الاعملية تسيير المركب البخاري ، وانزلني البحار من بين ذراعيسه بسرعة ، وانطلق خارجا وهو يعلسن ،

_ يجب ان اذهب !

رغبت بدوري في الذهاب ، غخطوت خارج الغرغة . . . كان المهر الفيق المعتم مقفرا من الداس ، يطالعني غيه ، غير بعيد من الباب ، لمعان نحاسي انه السلم . طلعت الى اعلاه ، مناهدت بعض الناس يحملسون امتعسه محزومة . . . كان من الواضح ان الجميع يغادرون المركسب ، وهذا يعني انه ينبغي على بدوري ان اغادره متلهم .

وعندما بلغت السطح ، وانزلتت بين جميع اولئك المسافرين الواتفين على السلم الذي يصل المركب بالبر ، شرع القوم يصيحون في وجهى :

ــ من انت ؟ این اهلــك ؟

من اين لي ان أدري .

فراحوا يدفعونني حينا ، ويلقونني ارضا حينا اخر ، وينتهرونني دون انتطاع ...

ولكن البحار الاسود الشمعر ظهر اخيرا ، وقال :

- انه صبي من استراخان - خرج من غرفته صدفة ...

وحملني ، وركض عائده ابي الى الغرغة حيث وضعني على الصناديق وخرج ، لكن بعد ان هددني قائلا ، وهو يهز اصبعه لمي وجهي :

ـــ اياك ان تغلعل هذا مرة اخرى ، والا . . .

وعاد الهدوء يخيم ، شيئا فشيئا ، على المركب الذي كف عن الاهتزاز ، كما انقطع رذاذ الماء في الوقت ذاته ، ولكن لهاثا من الرطوبة سد نافذة المغرفة ، فامست مظلمة خانقة ، يخيسل الى في عتمتها ان الصناديق تنتفخ وتحدق في باصرار وعناد . . ذعرت ، فرحت اتساعل :

ــ ترى ، هل تركوني وحيدا في هذا المركب البخاري المفارغ الى غير ما عــودة ؟ . . .

مضيت الى الباب ... كان مغلقا ، غلم استطع أن أدير قبضته النحاسية ، غتناولت تنينة حليب كانت على المنضدة تربي ، وهويت بها بكل تواي على المقل . غتكسرت القنينة ، وتدفق الحليب على قدمسي وتسرب الى حذائي .

اسفت من فشيلي ، فتهددت باكيا منتحبا فوق الامتعة ، وحاوليت ان الم . . . عندما استيقظت كان المركب يتأرجح من جديد ويهتز ، والماء يتطاير ونافذة الفرفية تبرق كالشميس وجدتني تجلس الى جانبي تسرح شعرها معقودة الحاجبين ، تغمغم بينها وبين نفسها باشياء عديدة . . كان لها شعر غزير يتراوح لونسه بين الزرقية والسواد ، يتدلى بكثافة فسوق كتفها ، وصدرها ، وركبتيها ، حتى يبلغ الارض . . . وكانت ترفعه باليد الواحدة عن الارض ، وتنثره فوق راسها ، ثم تدفع ببدها الاخسرى مشطا خشبيا ، خشنا قليل الاسنان ، داخل جدائلها المقيلة المتمردة . وكسان فهها يلتوي الما ، وعيناها السوداوان تلمعان غضبا ، ووجهها يبدو صغيرا رائعا في

كان مزاجها ، هيما يظهر ، سيئا ذلك النهار على غسير اعتياد . ولكن صوتها كان ناعما ، اطيفا ، مثله دائما ، عندما اجابتنسي وقسد سالتها عن سبب طول شعرها:

- أنه عقاب من الله - لقد قال لى : غلتخي ايامك كلها في تسريع هذا الراس الملعون ! لقد اعجبت به في ممغري ، ولعنته في شيخوختي ، ولكن ، عد الى النوم ، يا صغري ، غالوقت ما زال مبكرا ، والشمس لم تكد تشرق بعد ، وانت في حاجة الى الراحة والسكنة .

- لارغبة لى في النوم بعد الان .

ماجابت ، وهي تعقص شعرها وتشخص الى الاريكة حيث تتمدد والدتي نشكل تبدو معه وكانها السهم :

- حسنا ، لا تنم اذا لم يكن لك رغبة في الرقاد . كيف كسرت التنينة لبارحة ؟ تحدث بصوت خانت .

كانت تنغم كلماتها بطريقة خاصة ، فتنحفر الكلمسات حفرا في ذاكرتي بسمهولة ـ ما احيلاها كلمات زاهية معطرة كالورد ! وعندما تبتسم كانت عيناها السوداوان تشمعان وتشرقان بلمعان لا يوصف ، وابتسامتها تغضح اسنانها البيضاء القوية ، ووجهها كله ، رغما عن التجاعيد الكثيرة المنتشرة في وجنتيها الجاهتين ، يبدو فتيسا رائعا فاتنا . . . ولم يك يفسد جمال هذا المحيا الا ذلك الانف البدين الاحصر ، بخيشوميه الواسعين ، وارنبته المتأججة الحمراء ، ان جدتسي تتعشق السعوط كثيرا ، وتتناوله باستمرار من علبة سوداء مزينة بخيوط من الفضة ، وكان كسل ما ترتديه اسود اللون قاتما ، الا ان نورا انيسا دافئا دائم الاشماع يطل من عينيها ، ويلتي عليها من الداخل هالة رائعة من الضياء ، وكانت فارعة القامة ، منحنية المغلور حتى تقارب الاحديداب ، وان ظلت حركتها سهلة سريعة مثل مندنية المغلور حتى تقارب الاحديداب ، وان ظلت حركتها سهلة سريعة مثل حركة قطه ، والى جاتب ذلك ، كانت تماثل القطة الالبغة لطفا ورقة . . .

لقد كنت قبل قدومها ، كالغارق في النوم ، محاطسا بنوع من الظلمة الغريبة . فاذا بها تأتي الي ، وتبعثني مزرقادي ، وتقودنسي الى النور ، ومن ثم تغزل كل ما يحيط بي فيخيط واحد متصل ، وتجعل منه شبكة زاهية الالسوان .

وسرعان ما اضحت ، الى الابد ، رفيق حياتسي سه الرفيسق القريب والمعزيز على قلبي ، والذي استطيع ان الههه تماما . . . وكان حبها المتجرد للحياة يثقفني ، ويهبني القدرة التي كثيرا ما احتجت اليها ، فيما بعد ، لاجابه بعزم وقوة مستقبلي المظلم الذي لم اكن لاعرف عنه شيئا .

...

كانت المراكب البخارية ، قبل اربعين سنة مضبت ، تتحرك ببطء ظاهر، بحيث قضينا وقتا طويلا حتى بلغنا نيجنى نونجورود ، وانا لا ازال اذكر ، حتى الان ، تلك الايام الماضيات الطائحة رقة وعذوبة ، المشوبة بالغبطسة والمبحرة والمعرور .

ظل الطقس بديعا ابدا ... ومئذ الصباح حتى المساء ، كنت اقتعسد وجدتي سطح المركب ، عائمسين هناك تحت قبة السماء الزرقاء اللاسعة ، بسين ضفتسي نهر الفولجا المزخرفتسين ببساط ذهبسي يطرزه الخريسف

ويزينه ، وكان المركب الرمسادي اللون الذي يجسر وراءه قاربا صغسيرا للانقاذ ، يتحرك ببطء وسط الماء الازرق الضارب الى الرماد ، مقاوما مجرى التيار شاقا طريقه بواسطة لطمات لطيفه خفيفة تضرب بها المجاذيسة المعريضية سطح النهر المتدفق ابدا ، . . اما القارب الصغير المجرور فكان اغبر الملون ، يشبه حشرة ماثية ضخمة ، . . وكانت الشمس تسير بخفة خسوق نهر المهولجا حتى اننسا لا نحس بها ، تضيف في كل ساعسة شيئا جديدا الى بهاء الطبيعة ورونقها ، . . وكان كل شيء يحيط بنا يتغير بين لحظة واخرى ، كما في اقاصيص الجنيات ، . . والهضاب الخضراء تتوج الارض المثرية . . . والمترى والسهول على الجانبين تبدو ، وهي تمر بنا عسن بعد ، وكانها مصسنوعة من اللون الاخضر ، واوراق الخريف الذهبية اللون تعوم نوق المياه وتسبح .

ــ انظر ، ما اروع تلك المناظر الطبيعية !

هذا ما كانت تقوله جدتي ، وهي تذرع السطح جيئة وذهابا ، يتالق وجهها نورا ويغمر الفرح عينيها .

وغالبا ما كانت تنتصب ، وتسف النظر الى هــذا المشهد الهاديء ، متناسية وجودي تماما ، وقد صلبت يديها عند خصرها ، وتحدبت شفتاها بشكل ابتسامة لطيفة ، واخضلت عيناها بالدموع . وعندئــذ ، كنت اتعلق مسذعورا بتنورتها السوداء الموشاة بالوان عديدة زاهية .

كانت تقول حينذاك:

- ماذا ؟ كأننى غفوت ، وحامت حلما لذيذا !

_ لم تبكين ؟

فكانت تبتسم ، وتجيب :

-- من سعادتي ، يا صغيري ! ومن ضعفي ، يا عزيزي ! لقد هرمت، بعد أن خلفت ورائي غصولا ثلاثة من عمري ...

وحينذاك ، كانت تنشق قليلا مسن السعدوط ، وتقص على بعض القصص الخيالية عن القديسين ، والحيوانسات ، واللصوص الظرفساء ، والسحر الاسود .

كانت تروي اقاصيصها بصوت منخفض غريب الجرس ، وقد تجهسم

وجهها ، وهي تثبت حدقتيها الواسعتين في عيني ، كما لو كانست تصب نسي قلبي تيارا من القوة تقد به من عزيمتي. كانت تغني اكثر منها تتصعلي حكاية ... وكلما اطالت الحديث ، كلما سجعت اسلوبها ... وكان يسيطر علي غرح لا يوصف عندما استمع اليهسا ، حتى اذا انتهست من احدى التصص هتنت بهسا :

- تابعي ، يا جدتي ، قصة أخرى ! أرجوك ...

-- . . . وعندئد حدث ان كان العفريب الصغير يجلس تحبت المدغاة وقد أصيب بشطية ابرة كان يتارجح في جلسته ويتاوه . . . « اوه ، ايتها الفارة الصغيرة ! سأموت ، ايتها الفارة الصغيرة ! سأموت ، ايتها الفارة الصغيرة ! »

ثم تمسك بقدمها وترنبعها ، وتأخذ تهز راسها ، فاتحة عينيها ، الى الامام والى الخلف ، وكانها هي التي تعاني تلك الالام .

ويتجمع حولنا البحارة ــ رجال طيبون لحاهـم طويلة ــ ويغرقـون بالضحك ، وهم يصيخون السمع اليها ، ثم يمتدحونها ويطلبون منها المزيد :

- تابعي ، ايتها الجدة ، وقصى علينا مزيدا من هذه الخرافات!

وعند العشاء ، كانوا يدعونها الى شرب الفودكا ، ويدعونني على البطيخ الاحمر والاصفر . كان ذلك يجري في الخفاء ، اذ كان على المركب انسان منع اكل الفواكه بسبب الاوبئة المنتشرة ، فاذا ما وقسع على احدهم ياكلها اختطفها منه راسا ، ثم القى بها في مجرى النهر ، وكان يرتدي ثيابا اشبه بثياب الفقراء ، وقد صق مجموعة مسن الازرار النحاسية على صدر مسعطفه بتناسق جميل ، وكان ثملا دوما ، يهسرب الجميع منه كلما صادفوه في طريقهسم ، ،

كانت والدتي نادرا ما تصعد الى سطح المركب ، فساذا فعلت كانت تتجنبنا وتظل معتصمة بصمتها وهدوئها ، وما زلت اذكر ، حتى اليوم ، جسدها المطويل المجميل ، ووجهها الاسود الانبس المتوج بجدائل من الشمعر الاشتر ، وقامتها القوية الصلبة ، ان كل هذا ينبثق امامسي الان ، من خلال ضباب ابيض او غيوم شفافسة ، ومسن وراء السنين ، يأتينسي حتى اليوم ضباب ابيض او غيوم شفافسة ،

بريق عينيها الرماديتين المتوحشتين اللتين تعادلان عيني جدتي في الاتساع .

قالت ، ذات يوم ، بجفاء :

_ انك تجعلين من نفسك اضحوكة ، يا اماه !

فأجابتها جدتي بمرح:

_ غليضحك الناس ان ارادوا ذلك ، فهذا يجعل حياتهم اكثر هناء . كان الله معهم !

وانا اذكر ذلك الفرح المصبياني الذي استولى على جدتي عندما وقعت عيناها على نيجني نوفجورود ... صاحت ، وهي تقبض على يدي ، وتدفعني ناحية الحاجز :

_ انظر ، انظر ! ما اروعها ! هذه هــــى نيجنى ، مدينــة الله ، حيث ستعبش • يا لجمالها انظر الى قبــب الكنائس ٤ لكانها تحلق عاليا نهـــي الحـــو !

واستدارت نحو امي ، وقد غلبتها الدموع :

ــ انظري ، يا مارمارا ! لا ريب انك نسيتهـا على ما اظن . . . هيا عبى من سرور لقياهـا!

ولكن والدتي ابتسمت بحزن ...

والتى المركب مرساه في الحية تقابل المدينة المحبابة ، توقف في منتصف النهر الذي احتشد بالزوارق الصغيرة ، يطغى عليه سيل من مئات القوارب الشراعية ، وهذا قارب صغير يعج بالناس ويضيق يحاذي مركبنا ، ثم يعرج حتى السلم الذي يصل بين المركب والشماطىء ، فاذا بلغه قنزت المجموع ، منه ، وصعدت الينا حتى السطح ، وكان يدب ، على راس تلك المجموع ، شيخ صغير الجسم ، نحيل القوام ، ارتدى معطفاطويلا اسود اللون ، كانت له عينان صغيرتان خضراوان ، وانق اقنى ، ولحية حمراء تلتمع كالذهب ،

صاحت والدتى بصوت عال ، وهي ترمي بنفسها بين ذراعيه :

ــ ابتـاه !

فراح يمسح راسها بيديه الصغيرتين الحمراو بن ، ثم اخذ يضرب بلطف على وجنتيها ، ويصيح مهتاجا :

«Y» \Y

_ ٦٠ ، ٦٠ ! ايتها الطائشة ! اخيرا ، ها انتذى هنا ! اه _ ه . . .

وشرعت جدتي تحتضن الجميع وتقبلهم ، وهسي تدور حول نفسها مثل المروحسة

صاحت ، وهي تدابعني نحو التوم

ــ هيا ، اسرع ! هــذا هو الخـال ميخائيــل ، وهذا ياكـوف ، وهذه الخالة ناتاليا ، وهذانالصبيان ابنا خاليك ، واسم كل منهما بساشا ، وهذه ابنة الخال كاترينا ، كلهم يؤلفون عشيرتنا ــ انظر الى هذا العـدد العديـد ا

وسأل جسدى:

_ كيف حالك ، يا اماه ؟

وقبل كل منهما الاخر مرات ثلاثا ...

و اختطفني الجد من بين الجميع وقال ، وقد وضع يده على راسي :

ــومن تكون انــت ؟

- صبى من استراخان - خرج من غرفته صدفة . . .

نسال جدي مدهوشا ، وقد استدار جهة والدتي :

_ ماذا يقـول ؟

ثم دفعني الى الامام دون ان ينتظر جوابا . قال :

ــ لقد ورث هزال والمده . ملننزل المي القارب .

ركبنا حتى الشباطىء ، ثم تسلقناالطريق القديمة الحجرية بين صفين من الارصفة العالية المكسوة بالعشب الاخضر المرتجف .

سار جدي في الطليعة بصحبة والدتي ، وكان لا بكاد يبلغ كتفيها ، يضب على الارض الى جانبها بخطواته السريعة المقصيرة ، وهي تنظر اليه من عل تبدو وكانها على وشك ان تطير في الهواء ، ، ومشى خلفهما خالاي ، دون ان يند عنهما ادنى صوت : ميخائيسل ، بشمعسره الاسبود الاملس ، وجسده النحيف الذي يداني جفافا جبد جدي ، وياكسوف ، بشمعره الاشتر المجعسد البراق ، ومن ثم بعض النسوة السمينات بثيابهن الزاهية الالوان ، وحوالي البراق ، وكلهم يكبرونني سنا ويفوقونني هدوءا ايضا امسا انا نهشيت

وجدتي في مؤخرة الجميع ، تصاحبنا الخالة الصغيرة ناتاليا ، كانت شاحبة اللون ، ذات عينين زرقاوين ، وبطن عبل . . . وكانت تقف بين لحظة واخرى، تلتقط انفاسها وتخرخر :

_ اوه 6 لم يعد في استطاعتي السير خطوة أخرى .

فيتمتم جدي بغضب:

ــ لم اصطحبوك معهم ؟ يا لها من عشيرة غبية !

اما انا غلم يرق لي احد من هذه العشيرة ، لا الكبار ولا الصغار . . . احسست كانني غريب بين هذا الجمع الفائض . حتى جدتي نفسها ذبلت قليلا في عينى ، وازدادت بعدا . . .

كرهت ، خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، اذ عربات غيه منذ اللحظة الاولى ، عدوا لي ، استفز استقباله غي فضولا حذرا جعلني أوجه اليه انتباها خاصيا .

وانتهينا الى اخر ذلك المرتفع . . أمانتصب المامي منزل منخفض مؤلف من طابق واحد ، ينهض مقابل الرصيف الايمن في تلك البقعة المرتفعة حيث يبدأ الطريق بالقرب منه . . . كان البيت مدهونا بلون وردي وسخ ، ونواءذه منتفخة : تنتفخ تحت سقف مهدم عتيق . كان يبدو كبيرا واسعا عندما نظرت اليه من الخارج ، ولكن الغرف ، في داخله ، كانت صغيرة جدا ، مظلمة ضيقة ، مليئة بجمهور مضطرب كثير الحركة والضوضاء . كان مثله مثل المركب عند تفريغ حمولته ، والاطفال يتجمهرون غيه مثل العصافير الدورية ، وجوه النظيف قد تشبع برائحة حادة غير مالوفة .

وجدتني في ساحة لا تبهج القلب مطلقا ، ازدحمت بدورها ببعض الاواني الزجاجية المملوءة ماء ملونا كريه المنظر ، مصفوفة في كل مكان دون انتظام ، وبثياب نشرت على عدة حبال بغية تجفيفها ، وكان شعاع نار تبعثها اخشاب تلتهب في الموقد ، يجيء من زاوية مظلمة ، تدمة ، متاكلة ، مصدوبا بصوت غلبان وقرقرة وضجيج ، . . وكان شخص غير منظور بتفوه بكلمات غريبة في صوت عال :

_ اعطوني سانتالين _ اعطوني زاجا _ اعطوني حامض الكبريت! . .

كان ذلك فجر حياة دائبسة الجريان ، طافحسة بالحوادث ، معقدة ، غريبة ، يستحيل وصفها تماما ، وان ذكراها لتحيا في خاطري كحكاية كثيبة رواجًا لي جنى طيب القلب ، لكنه واقعي حتى درجسة الايلام ، ولكم يصعب على حتى اليوم ، اذ اعود بالذكرى الى الماضي البعيسد ، ان اصدق ان هذا الماضي كان حقا على ذلك الغرار ، فأروح أميل الى انكار كشسير من الوقائع ومعارضتها كيما اختصر مما كانت عليه الحياة في تلك « العشميرة الغبية » من طسلام وقسوة .

ولكن الحقيقة فوق كل نزوة شخصية ، وانا لا اكتب هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الخانقة الرهيبة التي كان يعيش فيها ، وما يزال ، الروسى العسادى .

كان منزل جدي مليئا بدخان العداوة الخانق - عداوة كل غرد للجميع ، هذه العداوة التى تسمم الكبار بها تماما ، وسرت عدواها الى الاطفال المصغار أيضا ، وقد عرفت فيما بعد من اقاصيص جدتي ان والدتي رجعت الى الدار واخواها يطالبان والدهما - بالحاح زائد - ان يقسم املاكه فيما بنهما ، غاذا رجوع أمى غير المنتظر يزيدهما جشعا واسرافا في الالحاح ، خوفا من أن تطلب مهرها الذي سبق لجدي أن حرمها منه لاختيارها زوجها دون موافقته ورضاه ، وكان خالاي يطالبان باقتسام ذلك المهر ، وهما بخوضان ، دون انقطاع ، جدالا مرا حول من سيفتتح مصبقة في البادة ، ومن سغادر البت الى كوناغبنو ، على الضغة الثانية لنهر اوكا .

وهكذا نشب ، ولما يمض على وصولنا زمسن طويل ، شجار عنيف فى المحليخ ساعة الغداء . فقد تفز خالاى بسرعة ، وارتميا فوق المائدة ، بصيحان وبنبحان في وجه جدى : وبكشران عن اسنانهما ، وينتفضان كالكلاب . واذا المجد يهب بدوره واقفا ، يضرب بملعتته وقد اصطبغ وجهه بالحمرة ، وبصبح بصوت اجش :

_ سأجعلكما نستعطيان الناس في الشوارع .

مقالت جدتى ، وقد تغضن وجهها ألما:

_ اعطهما كل شيء ، يا أبتاه ! هيا ، اعطهما كمل شيء ، وسوف تجد الراحة والسلام ، اعسط !

نصاح ، وعيناه نقدحان شررا :

_ صمتا ، أيتها المتساهلة!

وقد بدا لي غريبا يومئذ ان يستطبع انسان بحجمه الصراخ في مثل ذلك الصوت المخوف الهائل .

ونهضت والدتي ، واتجهت ببطء نحو النافسذة ، حيث استقرت وقسد ادارت ظهرها للجميع .

و فجأة ، ضرب خالي ميخائيل أخاه ضربة جبسارة على وجهه ، فأرسل هذا عويلا عنيفا ، وتعلق به وجذبه اليه بشدة ، فتدحرج الاثنان على الارض يلهثان ، وينفخان ، ويتشاتهان . . .

وهنا اخذ الاطفال يبكون ، واطلقت خالتى المحامل ناتاليا من فيها صرخة ياس ، فضمتها والدتي بكلتا ذراعيها ، ثم دلفت واياها خارجا ، أما يفجينيا، وهي المربية الجميلة ذات الوجه الضحوك المجدور ، فأسرعت تخرج الاطفال من المطبخ ، وتحطمت بعض المقاعد في حميا المعركة ، فأسرع الصانع ايفان — المقب بتسيجانوك — وامسك بظهر الخال ميخائيل ، بينما راح جريجوري ايفانو فيتش — وهو معلم ملتح اصلع الرأس يحمل نظارتين سوداوين على أنفه — يوثق يديه بهدوء باحدى المناشق .

وابتدا الخال يحك لحيته الرفيعة على الارض ، ويطلق من فيه صيحات مرعبة مبحوحة ، بينما جدي يركض حول الطاولة كالمجنون ، وهو يزعق : ... أخوة ، ها! أخوة دمويون! تغو!...

كنت قد قفزت خائفا ، عند بدء ذلك النزاع ، فوق الموقد . . . ومن هناك اخذت اراقب جدتي ، وهي تغسل الدماء عن وجسه ياكوف المدمى . وكان هذا يبكى ، ويضرب الارض بقدميه ، بينما الجدة تقول بلهجة يائسة :

- أفلا تعقلان ، أيها الملعونان ! يا لها من عشيرة متوحشة ! فرفع جدي قميصه المزق الذي سقط عن كتفه ، وصاح : ``

> نم اليك الوحوش التي حبلت بها ٤ أنت ايتها الشمطاء اللعينة!

وعندما خرج ياكوف ، تكورت الجدة على بعضها في احدى زوايا المطبخ، وراحت تحدث الايقونات .

- يا أم الاله الطاهرة! أرجوك أن تعيدي الى ولدى أدراكهما!

فأتاها جدي ووقف بالقرب منها ، شاخصا الى الطاولة حيث كان كل شيء قد اندلق وتكسر . قال بهدوء:

- انت يا أم ، يحسن بك أن تراقبي هذين الولدين اللذين انجبتهما ! أنهما يريدان الخلاص من غارغارا . . . وما نفع هذا ؟

- لا سمح الله! لا سمح الله! والان ، اخلع قميطك حتى ارناه لك .

وتناولت راسه بين يديها ، وقبلته في جبهته ، فدفهسق راسه سد الشدة قصره بالنسبة اليها سبين كتفيها . . . وقال :

- لنغضل ، غيما يبدو ، أن نتقاسم يا اماه !

- صدقت يا أبتاه ، صدقت !

وتشاورا هكذا مدة طويلة . . كان حديثهما ، في البدء ، لطيفا محببا ، ولكن سرعان ما شرع جدي ينبش الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد جدتي باصبعه .

مّال شاكيا في همسة عالية:

- انني اعرفك تماما ! فأنت تعنين بهما اكثر مما تعنين بي . ولكن ميخائيلك هذا مناتق كبير ، وياكوف ذاك كافر جبان ! وسيبذران كل ما الملك على سكرهما وعربدتهما - بل سيبتلعانه عن اخره !

وبحركة لا شعورية من كتني القيت على الارض المكواة ، بحيث شعقعت متدحرجة نموق درجات الموقد ، ثم سقطت في سطل الماء الوسمة ، نقنز جدي مرتاعا ، وجذبني حتى صاقبته ، وحملق في وجهي وكانه يراني للمرةا الاولى .

- من وضعك هناك ، على الموقد ؟ أهي أمك ؟
 - لقد تسلقت لوحدي ٠٠٠
 - ـ انت تكــذب .
 - لا النا لا اكذب ، لقد كلت خائفا ،

مدمعني عنه بلطف ، وقد ضربني براحة يده على جبيني:

_ انك مثال أبيك ! أخرج ! وكان سروري عظيما بالانملات من ذلك المطبخ ...

كنت أشعر بوضوح أن جدي لا ينقطع عن ملاحقني بعينيه الخضراوين المحادثين ، فكنت أرهبه . . . وما برحت اذكر حتى الان ذلك الخوف الغريزي الذي يدفعني دوما الى الاختباء من هاتين المعينين المحرقتين . ورحت أعتقد أنه وضيع النفس شرير ، فهو ينادي الجميع بلهجة تهجم واستهزاء ، ويسر باغاظة الناس واستفزازهم دوما .

ــ تفو! يا لهم من قوم ا

كان مولعا بهذه الكلمات ، يلفظها متعمدا مط الفاء والسواو ، الامر الذي كان يرسل دوما تشعريرة باردة يائمة .

كان جدي ساعة الراحة ، وقت تناول الشباي مساء ، اذ يغادر وخالاي والعمال المعمل ، ويدخلون المطبخ لاهثين متعبين ، وقسد تلطخت أيديهم بالصباغات ، وترطبت بالحوامض المختلفة ، وعقدت شبعورهم بعصابات الى الوراء ، غاصبحوا يشبهون _ في كل شيء _ تلك الايتونات المظلمة الموضوعة في احدى زوايا المطبخ _ خلال هذه الساعة الخطرة ، كان الجد يجلسني قبالته ، تاركا أحفاده الاخرين مغيظين ، في كثير من الغيرة ، من توجهه الي اكثر منه اليهم .

كان في مظهره العام شيء لائق جدا ، لطيف ، حتى لتقول انه منحوت نحتا دقيقا رائعا ، وبالرغم من ان معطفه الحريري المطرز عتيق مهترىء ، وسترته القطنية مجعلكة ، وسراويله مرقعة عند الركبتسين ، فقد كان يبدو انظف من ولديه وافضل لباسا وأحسن منظرا ، بالرغم من معطفيهما الجديدين واكمامهما المنشاة ، وأربطة عنقهما الحريرية ،

ولمقد ارغمني ، ولما يمض عدة ايام على وصولنا ، على حفظ صلواتي . كان بقية الصبيان اكبر مني سنا ، يتعلمون جميعا القراءة والكتابة عن شماس كاتدرائية اوسبينسكي ، الكنيسة التي نستطيع ان نطل على قببها الذهبية الرائعة من خلال نوافذ منزلنا .

وقد أسند الى الخالة ناتاليا امر تعليمي هذه الصلوات ، وهسي امرأة رزينة وجلة ، لها وجه غرير ، وعينان ساطعتان شفافتان حتى ليمكنك ، اذا ما نظرت اليهما ، ان تستشف كل ما يجول في مؤخرة راسها من المكار . كنت أحب أن أشخص طويلا اليها دون أن يطرف لي جنن ، فيزعجها . هذا مني ، فتروح تخيق عينيها ، وتسبل أهدابها ، وتلوي رأسها لتتفادى نظراني ، وتسأل في صوت أشبه ما يكون بالهمس اللطيف :

- ــ قل معي هذا ، أرجوك : أبانا الذي ...
 - _ وماذا تعنى كلمة « الذي » ؟

فكانت تجيب ، وهي تسترق النظر فيها يحتف بنا:

ــ لا تسأل! أن المسؤال يزيد الامور سوءا . يكفيك أن تردد بعدي : أبانا ... هيا ا...

ولم أكن استعلع أن أفهم لم يزيد السؤال الامور سوءا . . ان كلمة « الذي » تحمل معنى خفيا ، فكنت اتعبد تشويهها :

ــ الزي ، الملاذي

ولكن المخالة البيضاوية الوجه التي تبدو وكأنها تذوب تدريجيا ، تصحح فولى بصبسر :

ب كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : أبانا الذي ...

ولكنها لم تك ، لا هي ولا كلماتها ايضا ، من البساطة في شيء بالنسبة الي ، وكان ذلك يبعثني على السأم والضيق ، ويجعل حفظ الصلاة صعبا على .

وذات يوم ، استفسر جدي عن مبلغ نشاطي مقال :

حسنا ، يا الكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ اكنت تلعب ؟ اني ارى ذلك من هذه الحدبة التي تعلو جبينك ، لا تكن نشيطا الى هذه الدرجة حتى تجلب على نفسك كل هذه المتاعب ، ولكن ، اخبرني ، ماذا حفظت اليوم من «أبانسا » ؟

فهمست عمتسي :

ان ذاكرته رديئة للغاية .

فضحك جدي ، ورفع حاجبيه الحمراوين :

- اذا كان الامرر كذلك ، فيجب جلده اذن .

والتفت ناحيتي ، وسأل :

- ترى ، هل جلدك ابوك مرة ؟

- فلم افهم ما يعني بكلامه هذا ، ولذا اعتصمت بالصمت . واجابت المسى :
- ان مكسيم لم يضرب الطفل قط 6 وكان يمنعني عن ذلك .
 - _ ولم ذلك ؟
 - _ كان يقول ان الضرب لا يعلم المرء شيئا .
 - فأجاب جدى ، وقد ساء خلقه:
 - ــ لقد كان مكسيم هذا غبيا أبله ، غفر الله له .
 - أغاظتني كلماته ، فقال وقد استشعر ذلك :
- غيم عبوسك ؟ ايه ، أنت ! يحسن بك أن ننتبه لنفسك ! سوف ينال سائسا جلدة صغيرة لطيفة نهار السبت بسبب ذلك الكثبان .
 - قال هذا وهو يسرح باصابعه شعره الاحمر المفضض . فسألت :
 - _ كيف ستفاهل ذاك؟
 - فضحك الجميع ، بينما أجاب جدى :
 - _ انتظر ، وستكتشف كيف ...

واختبأت في ركن منعزل ، وأخذت أحاول أن أتصور ذلك : أن الناس بفتقون «١» الثياب التي يريدون صبغها ، ولا ريب أن هذا هو ما يعنيه جدي ، وهم يضربون الخيول ، والكلب ، والقطط ، وفي استراخان يضرب المجنود الفارسيين ب ولقد شاهدت ذلك بأم عبني ، ولكنني لم أر قط أنسانا يضرب طفلا صغيرا ، والحقيقة أن خالي كانا يضربان ، في كثير من الاحيان ، ولديهما على الجبين أو مؤخرة الرأس ، ولم يك يبدو على الضحيت في أدنى اهتمام لذلك ، بل كانا يحكان نقرتيهما برهة وجيزة ثم ينسيان كل شيء ،

وكتت في بعض الاحايين ، استألهما عما اذا كان ذلك يؤلمها ، نكانا يجيبان بشجاعة :

ــ انه لا يؤلم البتــة ...

وبلغني خبر حادث الكشبان الشبهي . فقد كان خالاي ورئيس العمال ، في الفترة الواقعة بين تناول الشباي والعشاء ، يخيطون سوية بعض قطع

[«] ١ » في الروسية يعبرون عن الجلد ونتق الثياب بكلمة واحدة .

الثياب المصبوغة ويجعلون منها قطعة واحدة ، ثم يلصقون بها رقعة معدنية للدلالة عليها ، واراد الخال ميخائيل ان يداعب جريجوري المسذي كان نصف اعمى تقريبا ، فعلم ابن أخيه البالغ من العمر تسمع سنوات ان يسخن كشتبان العمل على الشمعة ، فحمل ساشا الكثتبان فوق اللهب بملقط النار حتى أصبح احمر اللون ، ثم وضعه في متناول يد جريجوري واسرع يختبىء وراء الموقد .

ولكن جدي دخل في تلك الملحظة ، وتأهب للعمسل مباشرة ، ناذا به يدخل اصبعه في الكفتيان الملتهب .

وانا اذكر انني سعيت راكضا الى المطبخ لاعرف منشأ الضجة ، وسبب تلك الصيحة الرهيبة التي اطلقها جدي من نمه ، نموجدته يتنز بشكل يجبر على الضحك ، ممسكا اذنه بيده المعترقة ، وهو يزعق :

- من معل ذلك ؟ اجيبوا ، ايها الوحوش !

كان ميخائيل ، في تلك الاثناء ، وقد انحنى غوق الطاولة يدعك الكشتيان عليها باصبعه ، وينفيخ عليه ، اما جريجوري فاستمر يخيط ثابت الجائس ، تترجح الاخيلة على رأسه الاصلع وتتراقص . . . واتانا ياكوف يركض ، ثم توارى خلف الموقد ليخفي ضحكاته ، في حين تناولت جدتي رأسا من البطاطا النيئة واسرعت تقشره .

وعلى حين فجأة ، قال الخال ميخائيل:

ــ انها فعل ساشا . . . ابن ياكوف . . .

فصاح ياكوف ، وقد وثب من وراء الموقد :

ـ ذلك كذب ! ذلك هراء !

وشرع ابنه يصيح من احدى زوايا المطبخ متباكيا:

-- لا تصدقه ، يا ابتاه ! فهو الذي دفعني الى ذلك .

وابتدا الخصام بين خالي . . . وما اسرع ما استرد جدي هدوءه ، موضع لزقة البطاطا على اصبعه ، ثم خرج وقد اصطحبنسي معسه دون ان يتفسوه بكلهسة مسا .

تر رأي الجميع أن الذنب يقع على عاتق الخال ميخائيسل . وكان من الطبيعي أن استغلر ؛ على مائدة الشماي ؛ أن كان مسيضرب أو يجلد . .

نتمتم جدي ، وهو يرنو الي :

يجب أن يجلد طبعها!

مضرب الخال ميخائيل الطاولة بيده ، ومع في

ـ اذا لم تؤدبي جروك اللعين هذا ، يا غارة جسده !

فأجابت والدتسي:

ــ جرب اذن ان ترفع اصبعك عليه ا.... فران الصمت على الجميع ...

كانت لها مهارة نائقة ، عندما ننطق ببعض الكلمات المختصرة ، لنهزم ايا كان وتخده تماما ، وكنت أسعر بوضوح ان الجميسع يهابون والدي ، حتى جدي كان يتوجه اليها بالحديث في نفمة مختلفة سنغمسة اهدا من تلك التي كان يخاطب الاخرين بها ، وكان ذلك يسرني كل السرور ...

كنت اتباهى على ابنى خالسى:

... ان والدتي تفوق الجميع تسوة!

ملم ينكرا ذلك أبدا ٠٠٠

ولكن حوادث السبت التالي زعزعت ايماني بوالدتي ٠٠٠

. . .

ذلك انني تصرفت بدوري ، قبل نهار السبت ، بصورة تسبب لي المساكل ٠٠٠٠

كان الاسلوب الذي يتبعه الكبال في تبديسل لون الثياب يدهشني وبثير اهتمامي ، فهم يأخذون شبيئا اصغر اللون ، ويغطسونه في ماء اسود ، فيخرج ازرق اللون يضرب الى المسواد : « نيليا » ، أو هم يغسلسون شبيئا اشهب اللون في ماء أحمر ، فيخرج اسود اللون يضرب الى الحمسرة : « خمريا » ، كل ذلك بسيط جدا ، فيما يبدو ، ولكن غير مفهوم على الاطلاق ،

وقد ساورتني رغبة خنية في أن أجسرب بنغاسي ذلك العبسل مهمست

برغبتي هذه في اذن ساشا بن ياكوف ، وهو صبي مهذب ، وقسور ، يتعقب العمال دوما ليعرض عليهم خدماته ، فيشكره الجميع ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعداته .

كان العجوز يقول: وهو يتطلع باحتقار الى الصبى:

ــ تفو! يا للمنافق الصغير!

كان ساشا يميل الى السواد ، رقيق النجسم ، ذا عينين منتفختين تنهائلان عيني السرطان ، وهو يتحدث بصوت هادىء سريع النبسرات حتى البزدرد نصف كلماته ، ويضرو هنا وهناك خلسة وبصورة غريبة ، فكأنه يعد حطة للهرب والاختفاء ، وغالبا ما كانت حدقتاه البنيتان تجمدان فلا تأتيان بحركة البتة ، فاذا ما أغاظه شيء تبدلت حالهما ، وراحتا ترتجفان ارتجافا، بصاحبهما في ذلك بياض العين كله .

وبالرغم من ذالنفلم أكن احبه او اميل اليه ابدا . كنت اغمر محبة اكبر لابن میخائیسل ــ واسمه ساشا ایضا ــ رغم ما یکتنفه مسن غموض، وما يرسدو عليمه مسن حماقمة ٠٠٠ كسان هساديء الطبيع ، لمه عينا والدته الحزينتان وابتسمامتها المااتنسة . وكانست اسنانه بشعة كل البشاعة _ اذ تندمع خارج ممه ، وتنحنى بشكل صمين مضاعمين متراكبسين في فكه الاعلى . وكان اصلاحها شعله الدائم ، فأصابعه أبدا في فمسه يحاول أن يخلع بها اسنان الصف الخلفي ، وكان يسمح ، متلطف طائعا ، لاي انسان يرغب في تفحصها ان يفعل ذلك ، ولكنني لم المسمع على شيء اخر فيه يثير الاهتمام . كان يبقى على الغالب ، منعزلا في ذلك المنسزل الصاخب يقبع وحيدا في احدى الزوايا المظلمسة الدامسة ، أو يقضى المسياته قسرب النافذة ، وكان يبهجني أن أصاحبه تدثرا بالصميت أقعد الى جانبه قسرب الناغذة واظل ساكنا مدة ساعة من الزمسن او يزيد ، اراقب الغربسان تحط وتحلق نوق كاتدرائية اوسبينسكي التي تنتصب تببها الذهبية الرائعة نسي بروز جميل تواجه ميه الاشمعة الحمراء التي يبعثها مغيب الشمهس . كانست المغربان تحلق في أغالي المجو ، ثم تندنه هابطة . . وعلى حسين غرة ، تنشر اجنحتها السوداوية في السماء العريضة الحرة ، ومن شم تختفي مخلفة وراءها مراغا هائلا ميتا ، ماذا بك تفقد كل رغبة في الكلام ، وانت تشخص المي هذه الامور تجري امام عينيك ، لان صدرك يمتليء عندها بسرور مؤلم . اما ساشا ، ابن الخال باكوف ، فباستطاعته ان يتحدث ما شئت عن جميع الامور مثل رجل بالغ وبصورة مئيرة حقا . . وعندما عرف رغبتي في تعلم مهنة الصباغ نصحني باللجوء ، في تجربتي الاولى ، الى غطاء المائدة الكبير الخاص بأيام الاحاد والاعياد ، فآخذه من موضعه في الخزانة ، واصبغه باللون الازرق القاتم .

قال لى القاتــم

وقال لي جادا:

_ ان الاشمياء البيضاء تتقبل الالموان اكثر من أي شيء الحر ، وأنا واثق من ذلمك .

. فاستوليت على الغطاء الثقيل الثمين ، ، وركضت به حتى الساحسة . . . ولم اكد اغطس اطرافه في حوض « النيل » حتى رمى تسيجانوك بنفسه على ، واختطف الغطاء من بين يدي ، وعصره بيديه الكبيرتين ، وصاح بابن خالى الذي كان يراقب ذلك من المظلة :

_ اركض وادع جدتك!

والتفت ناحيتي ، وحك راسه العريض منذرا بالشر . قال :

ــ ستنال نصيبك من دون ريب .

واسرعت جدتي الينا ، وراحت تلهث عندما رأت مُداحة ما ارتكبت ، حتى انها سكبت بعض الدموع وهي تعنفني بطريقتها المضحكة .

ــ آه منك ايها اللعين ، آه منك ومن أذنيك الشبيهتين باذني الفيل . فلبرغعك الشيطان ويرميك أرضا ، لا بد أن تقبد وتجلد . . .

وعندها شرعت تتوسل الى تسيجانوك:

ــ لا تخبر جده بهذا ، با غانيا ! سأخبئه ، ولعل الامور تجري خرا . . فاجاب غانيا حفتاظا ، وهو يمسح الده الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

ــ لا تقلقي من جهتي ، فهذا لبس من شانى ! ولكن يحسن بــك ان ننتبهي لما سيثرثر به سائما .

أغالت ، وهي تنطلق بي ناحية البيت :

_ سأعطيه بعض الدراهم ليسد بها ممه .

وفي ذلك السبت ، قبل صلاة الغروب ، صحبني احدهم ولم اعدد الذكر هويته الى المطبخ .. كانت الظلمة والسكون يخيمان هناك .. واني لاذكر ان الابواب المفضية الى المهشى ، وابواب الغرف الاخرى كانت جميعا مرتجة باحكام ، بحيث توارى مساء الخريف ، السهب اللون كثير المضباب ، خلف النوافذ التي كان المطر يسامرها هامسا وهو يتساقط عليها ، وكان تسيجانوك يجلس على دكة صغيرة قبالة الموقسد الاسود الكبير ، وهسو أسوان على غير عادته ، وقد وقف جدي قرب برميل قائم في احدى الزوايا ، يسحب من الماء عدة قضبان طويلة مقطوعة من احدى الشجار البتولا ، ومن شم قاسها ، وجمعها في حزمة واحدة ، وضربها في الهواء ببأس كبير . . . وكانت جدتي تستنشق السعوط في مكان شبه مغمور بالعتمة ، وهي تهمهم :

_ انه مبتهج ، هذا الظالم الوحش!

وكان سائسا ، ابن الخال ياكوف ، متراكما على احد المقاعد بي منتصف المطبخ ، يفرك عينيه باصابعه ، ويعول كاحد المستعطين الشيوخ :

ــ سامحني ، لاجل المسيح . . .

ووقف سائسا ، ابن الخال ميخائيل ، واخته الصغسيرة متلاصقين وراء الطاولة ، جامدين كتمثالين قدا من الحجر الصلد .

واجاب جدي : وهو يمسح على كفه قضيبا طوبلا مبللا :

- سأصفح عنك بعد أن تنال نصبيك كالهلا ، حسننا ، أخلع سروالك ،

كان يتكلم بهدوء ، ولم تستطع نغمة صوته ، ولا حركات الصبي المتربع على الكرسي ، ولا ضربات قدم جدتسي ، تدنيس حرمة الصمت المسيطسر على ذلك المطبخ المطليل الجاثم تحت ذلك السقف المنفض المطلى بالهباب .

ونهض سائسا ، ونمك سرواله ، وانزله حتى ركبتيه ، وجئسا معتمدا على الدكة ، وقد تقوس بكامل جسده ، كان النظر اليه يحز في النفس حتى ان قدمي طفقتا ترتجفان بشدة ، ولكن المشهد ازداد ايلاما عندما اضطجع مضعف ، ووجهه الى الدكة ، واخذ نمانيا يقيده بمنشفة طويلة مر بها تحت الابطين وحول المعنق ، ثم انحنى ، واحسك به من عقبيه

صاح جدي:

الكسي ا تعال هذا ا حسنا ، مع من اتكلم ؟ اقتصرب وانظر ما عنيته الجلد ك انظر مليا ا واحد ...

وبحركة خفيفة من ذراعه رفع القضيب واهوى به على جسد ساشا المارى . . . فأخذ الصبى يعول وينوح .

قال الحد:

_ لا تكذب! . . . ، غتلك لم تؤذك! ولكن هذه ستفعل!

وضرب ضربة قوية رسمت على جلد الصبي ، بسرعة غريبسة ، توردا طاهرا . ثم خلفت عليه تورما احمر اللون قانيا . فانطلق من ابن خالي عويل طويل متتابع

وحرك الجد ذراعه حركة موزونة من الاعلى الى الاسغل ، وسال :

- أما أحببتها ؟ أما وأنقت مزاجك ؟ هذا ليس بكفتبان ؟

كان يهب في صدري ، كلما رفع ذراعه ، شيء مجهول يصاحب حركته، وايان ما ضرب بيده كنت كمن يتلقى تلك الضربات منه .

وشرع ساشا ينتحب بصوت عال ، حاد ، يبعث الالم في قلب السامع اليسبه :

ــ لن المعل ذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطاء الطاولة ؟ مانا الدي اخبر . . .

ــ وشبيت ؟ ان وشبايتك لن تشغع لك او تخطف ذنبك! ان الواشي السوط الاول ، وهذه ايضا لك بسبب الغطاء!

هارتمت جدنى على ٤ واحتضنتنى بين ذراعيها :

ــ انني لن اعطيك الكسي أبدا ، لن أعطيك . . . لن أدعك تفعل ذلك : ابها الوحش !

وطفقت تضرب الباب ، وتصيح :

ــ فارفارا! فارفارا!

غهجم عليها جدي ، ورماها على الارض ، واختطفني ، ثم حملني حتى الدكة ... كنت اجاهد جهاد اليائس لافلت من بين ذراعيه ، اشد له لحيته الحمراء ، واعض له اصبعه ، فشرع يزار ويشدد الضغط على ، ثم رمى بي اخيرا على الدكة فاصطدم وجهى بعنف شديد . وما زلست أذكر جيدا صياحه الوحشى :

ــ اربطه! ساقتلــه!

وكذلك اذكر وجه أسى الاببض ، وعينيها الكبيرتسين ٠٠٠ تركض وراء الدكة وامامها ، وهي تحشرج:

- كفي ، يا ابتاه! اتركه ، رده الى!

وظل جدي يضربنى حتى فقدت الوعي ، وبقيت ، بعد ذلك ، عدة أيام أعانى المرض ، وقد مددوني على صدري في سرير دافسىء عريض ، في غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة ، يضىء في ارجائها نور قنديل احمسر باهت يحترق على الدوام في زاوية الايقونات .

كانت أيام مرضي احدى المراحل الهامة الرئيسيسة في حباتي ، وكنست خلال تلك الايام ، وكأني انمو سريعا واتحول من حال الى حال جدبد _ ومنذ ذلك اليوم ، ظهر عندى ذلك الانتباه القلق المعيق نحو المخلومات البشرية ، مكانما الجلد قد تمزق عن قلبي ، فاصبح حساسا بصورة غير مألوفة لا تكاد تسدق حيال الامتهانات والالام الانسانية التي اعانيها انا و يعانبها سواي مين البشر .

وقد فجعت ، بادىء الامر ، بذلك الشبجار الذي نشب بين أمي وجدتي . . . كانت هذه الجدة الكبيرة السوداء ، في تلك الغرفة الصغيرة ، تنقض

على امن وتحصرها في زاوية الايتونات ، وهي تغمغم :

- _ لم لم تختطفيه بعيدا ؟ قولي ا
 - _ كنت خائنـــة!
- _ مخلوقة كبيرة مثلك تخاف ! يجب ان تخجلي ، يا فارفارا ! انا لـم اخت بالرغم من كبر سنى ! ذلك مخجل حقا !
 - _ انك لا تحبينه! ولا تحملين عطمًا لذلك البتيم الصغير المسكين!
- _ انني يتيمة أنا الآخرى _ لقد كنت وسأبقى يتيمة طوال حياني !... قالت والدتي هذا بصوت مرتفع ، حزين الرنة ...

وحينئذ شرعتا تبكيان ، وقد جلستا على الصندوق بالقرب من الزاوية.

قالت والدتسي:

ــ لولا الكمي لهربت بعيدا! الى مكان ناء حيثما كان ، مأنا لا أستطبع العيشي في هذا المجديم! أنا لا أقدر ، يا أماه! وليس لدي الطاقة الكانية!

نهست جدتسى:

ــ آه يا ولدي ، يا ملذة كبدي !

استنتجت من ذلك ان امي ليست على شيء من القسوة ، نهي ، كالاخرين ، تخاف جدي وترهبه . . . وانا مسؤول عن بقائها في ذلك المنزل حيث لا تستطيع للحياة تحملا ، ما القسى ذلك ! وسرعان ما اختفت والدتي بعد زمن ، اخبروني انها مضت تزور بعض الامكنة ، ولكنني لم أعرف قط اين ذهبت

وذات يوم جاءني جدي . . . حدث ذلك فجأة ، فكأنه سقط علي مسن السقف . . . جلس على حافة السرير ، وراح يداعب راسي باصابعه الباردة كالناهج . . .

_ صباح الخير ، ايها الشباب الصغير ! هيا واجب على بمؤالي - لا

تحقد على _ حسنا ، كيف حالك ؟

فاحسست رغبة في ان ارنسه ، ولكن الحركة كانت تؤلنسي كثيرا به جلس الى جانبي ، يبدو لي شعره اكثر احمرازا منه في اي وقست مضى ، وهو لا يفتا يهز راسه بشكل متعب ، في حين علقت عيناه اللامعتان بالجدران ، فكانهما تبحثان فيها عن شيء ما ، واخرج من جيبه كعكة مسن الزنجبيل ، وقضبين من سكر النبات ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، ووضع ذلك كله على المخدة بالقرب من انفسى :

- انظر! لقد حملت اليك بعض الهدايا!

نم انحنى وتبلني في جبيني ٠٠٠ وراح يتحدث وهدو يضرب بلطف على جبهتى ، من آن لاخر ، باصبعه الصغيرة الممتلئة ، الملطخة باللدون الاصفر المغاقع ، وخاصة حول الاظافر المعوجة الشميهة بمخالب المطيور :

سلقد ضربتك أكثر مما تستأهل ذلك اليوم ، يا صغيري ، وانا أعترف بذلك ، لقد فقدت صوابي ، لقد كنت مجنونا ، وأنت ضربتني ، وعضضتني، و . . . حسنا ، لقد ثارت ثائرتي ، . ومن حسن حظك ، على آية حال ، انك نلت علاوة هذه المرة وساخصها من حسابك في المرات القادمة ، يجب أن تذكر فقط شيئا واحدا به إن ضربك احد من ذويك فهو لا يقصد اهانتك ، بل تربيتك ، . . وليكن هذا درسا مفيدا لك ! ولكن ، اياك أن تسدع الاخرين يلمسونك بسوء بذلك مجاز لاهلك فقط بهم لا يحاسبون عليمه ! اتظن يلمسونك بسوء بذلك مجاز لاهلك فقط بهم لا يحاسبون عليمه ! اتظن الني لم الل نصبي في صغري ؟ لست تستطيع أن تتصور ، في أكثر أحلامك رداءة ، كنف كانوا يضربونني بوحشية لو كان رداءة ، كنف كانوا يضربونني بوحشية لو كان الله شاهداً عليها لبكي ، . . وماذا كانت نتيجة ذلك ؟ انظر الي الان فقط المناس الله شعملا كاملا ، وأمر الناس المن معملا كاملا ، وأمر الناس المحيطين بي . . .

واقترب منى بجسده النحيل المحكم البناء ، وراح بروي لى قصة طنولته ، وكلماته الثقيلة تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بمهارة ماثقة ودون صعوبة على الاطلاق .

كانت عيناه الخضراوان تشمان ، وشمعره يلتمع كالذهب ، وصوتمه يزداد حدة ، وهو ينفخ في وجهمي :

ــ لقد جئت الى هنا على ظهر مركب بخاري ، مالبخــار ، اذن ، هو الذي حملك حتى هذا المكان . ولكننسي عندما كنت صغيرا ، كانت تسواي رحدها تصارع امواج النولجا ، وهي تجر العوامات المختبية . كانت العوامة تنزلق على الماء ، اما أنا ماسير على الضفة ، حامى الاسدام ، موق تلك الحجارة المدببة والاشواك المسنونة ، منذ بزوغ الفجسر حتى هبوط الليل ، والشمس نشع لاهبة حتى لتحس براسك قدرا من الحديد يغلسي في داخلسه شيء ما ، وانت منحن حتى يقابل راسك قدميك ، وعظامك تصرصر ، ولكنك تدب وتدب دون توقف ، ودون أن ترى الى أين ، والمعرق يتصبب في عبنيك ؛ وقلبكِ يئن ، وشعقتاك ترتجفنان ــ ٥٦ ، نعم ، يا اليو شا ، انك لا تستطيع ان تنذمر ، بل تظل تسير وتسير حتى تسقط من اعيساء ، ووجهك الى الارض مدنون نيها . انك لتغتبط بذلك لانه يعنى على الاقل ان قوتك قد تلاشت جميعا عن اخرها ، وأن عليك أن تستريسح بعد الأن أو تمسوت من شدة الاعياء ، والامران عندك سواء اهكذا كنا نعيش تحت نظر الله ورحمة شنفيعنا السيد المسيح ... ثلاث مرات في حياني مست طول امنا الفولجا بالرغم من عرضه واتساعه: من سمبيرسك حتى ريبينسك ، ومن ساراتون حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكارييف ، وهي تساوى مسافات تزيد عن الوف الفراسخ . وفي السنة الرابعة فقط رقيت اليدرجة بحار 6 فقد أدرك الرئيس اخيرا انني اكثر من مجرد حيوان للحر.

كان ينمو امام عينى باستمرار ، كلما قطع في حديثه شوطا جديدا ، مثل سحابة تتحول من مخلوق صغير الى بطل ذي قوة خارقة _ بطل يستطيع لوحده ان يجر عوامة شهباء اللون ضد تيار النهر العظيم .

كان يقفز ، في بعض الاحيان ، عن السرير ، يمثل لي كيف كانت العوامة تتقدم بواسطة حبالهم ، وكيف كانوا يجذفون المياه ، ثم يأخذ بانشاد اغنيات غر مالوغة بصوت عميق ، ويعود فيثب ، كرة اخرى ، ويجلس على السرير، مخلومًا مدهشا يتابع الحديث في صوت يزداد عمقا واقناعا حينا بعد حين :

ورغما عن ذلك كله ، يا الكمي ، كنا نستريح في احدى ليالي المسيف في ريجولي ، ونشمل نارا تؤرثها الاختساب عند سنعج احدى التلال الخضراء ...

اوه ، لقد كانت تلك اياما ممتعة حقا ، يا الكسي ! فهذا الحساء يغلبي في قدره ، وهؤلاء بعض المراكبين يترنمون بأغنية حماسيسة يخفون بها عسن قلوبهم بعض العناء ، فنشاركهم بها بدورنا اوه ، كان الغناء يحفز كل جارحة فينا ، ويدفعنا للاستزادة منه ، والعب من منهله ، حتى يخيل اليك ان الفولجا نفسه يضاعف من شدة جريانه ، مشل حصان غاضب يزمجر ويهاجم بعنف عنان السماء ! وعندها كانت متاعبنا تضمحل وتتلاشى كما بتلاشى الغبار امام الريح ! وكنا ننسى في غنائنا ، ذلك الحساء حتى يغور وينصب على النار ، فنلتفت الى الطاهي ، نصب على رأسه ثورة حامية الوطيس :

« لك ان تتمتع باغنيتك ، ولكن اياك ان تنسى وظيفتُك ! » .

ولقد جاعوا الى الباب يطلبون جدي عدة مرات ، فكنست اتوسل اليه في كل مسرة:

ــ ابق لحظة اخرى ا

فيضحك ، ويلوح بذراعيه ، ويصيح :

ــ انتظروا! هناك . . .

واستمر يسرد لي حكاياته حتى المساء . استنتجت عندما ودعني ومضى أن جدي لم يكن مخيفا ولا شريرا .

كان الالم يعصر قلبى بقسوة كلما تذكرت انسه هو الذي ضربني ذلسك البوم بكل تلك الوحشية والقسوة ، المجرب ان اتناسى تلسك الحقيقة دون جسوى .

و فتحت زيارات جدي الباب على مصراعيه لكل طارق ، فكان أحدهم بقبع على سريري منذ الصباح الباكر حتى هبوط الليال ، بحاول تسلبت بطريقه ما . وانى لاذكر ان تلك المحاولات لم تكن تتكلل بالنجاح دوما .

وكانت جدتي تعود اكثر من اي شخص اخر ، بنل كانت تقاسمنسي الفراش دائما . ولكن الشخص الذي ترك الاثر الاكبر في ذهني هو تسيجانوك

من دون ادنى ريب ، جاءني ذات مساء شمابا واغي القامة ، عريض المنكبين، ذا رأس كبير يفرشه شعر مجعد السود اللون فيغطيه ، وهو يرتدي ثياب نهار الاحد المؤلفة من تميص حريري فاتح اللون ، وسروال عريض من المخمل ، وحذاء يصرصر عند كل خطوة ، ويتجعد عند العقب كآلة الاكورديون ، وكان شعره يلمع ، وعيناه المنحرفتان تشعان جذلتين تحت حاجبيه السوداوين ، واسنانه البيض تبرق من تحت الخطوط الضيقة الساربيه المنتيين ، وتعيصه يتوهج وهو يعكس بعذوبة المضوء الاحمر الذي يبعثه قنديل الايتونة .

وسحب كم قميصه ليكشف لي عن جروح حمر صغيرة في ذراعه ، وقال:

— انظر يا صاحبي ، اترى مبلغ تورمه ا ولكنه كان اسوا من قبل ، ثم اندمل شيئا فشيئا ، . . لقد ادركت ان الغضب افقد جدك كل ما لديه من صواب ، فأزمع ان يضربك حتى الموت ، ولذلك وضعت يدي اتلقى بهمسا ضربات القضيب آملا ان يتكسر ، فيضطر جدك عندها للاستعاضة عنه باخر جديد ، معطيا بذلك لوالدتك او جدتك فرصة الاختطافيك بعيدا . . . ولكن التضيب لم يتكسر ، اذ كان مبللا ومرنا للغاية . ولكني ظللت اتلقى عنيك بعض الضربات ، وانت تستطيع ان ترى بنفسك كم كان عددها ! نعم . .

وضحك ضحكة غتانة ناعمة . . . ثم اضاف ، وهو ينظر ثانية الى ذراعه المنتفيخ ;

ــ لقد شعرت بالاسف من اجلك حتى انبهــرت انفاسي ، وادركت ان عاقبة عمله ستكون وخيمة ، ولكنه استمر فيه وهو يؤرجح ...

ونفخ بمنفریه کالحصان ، وهز راسه ، وراح یمثل لسی حرکات جدی بطریقة صبیانیة بسیطة استطاعت ان تنال ، بسرعة عجیبة ، کل عطفی . . .

وأخبرته انني احبه كثيرا ، فأجابني بذات تلك اللهجة البسيطة المحببة:

-- وأنا خصصتك بثمرة قلبي ، ولذا تحملت ذلك الألم من أجلك - من أجل حبي لك ، أنظن أني ألمعل لاي كان ؟ لمليذهب بأتي المناس ألى الجحيم! أنا لا يهمني أمرهم أ

ثم اعطاني امثولة ، وهو يتطلع الى الباب بنظرات مسترقة ، قال :

ـ عندما يجلدونك مرة اخرى غلا توتر اعضاعك ، اتسمسع ؟ ان ذلك يضاعف الالم مرتين ، ولكن ، اجعل جسدك يتمدد مرتاحا ، حتى يصبح طريا ناعما مثل الجلاتين ، ولا تقطع نفسك ابدا ، تنفس باقصى مسا تستطيع من رنيك ، دذكر هذا جيدا ، ذلك افضل لك !

فعسألست:

- وما فائدة ذلك ؟ هل سيعودون الى جلدي ؟
 - فاجاب نسيجانوك بهدوء :
- وماذا تظن ؟ بالطبع سيفعلون ! سيفعلون ذلك كثيرا .
 - <u> ولای سبب ؟</u>
 - أن جدك سيخترع سببا لذلك ، حسنا !

ومرة اخرى راح يعلمني ، باهتمام عظيم ، ماذا يجب ان انعل :

- وإذا بدأك بالضرب غارته على الارض فقط ، والسزم الهدوء بحيث تستطبع ان تتمدد براحة ودون حراك ، غان تابع الضرب وانت على الارض، واخذ يشد القضيب اليه حتى يسلخ عسن جسدك الجلد ، فتدحسرج عند أذ ناحيته ، بل ناحية القضيب ، اتسمع ؟ ان ذلك يجعل الضربات اكثر احتمالا !

وتبت في نظرة جانبية سوداء ، ومال :

وفيما يتعلق بالتعذيب غان اي الماما يفوق المام رجال الشرطة . اذ يمكفك أن تصنع زوجا من القفازات بما انسلخ عنى من جلد .

ونظرت الى وجهه الجذلان ، متذكرت اقاصيص جدتي عن الامير ايمان، وايكمانوشكا الاحمق ٠٠٠٠

اتضح لي ، بعد ان اخذت صحتي بالتحسن ، ان تسيجانوك يشمغل مركزا مبتازا بين سكان منزلنا ، مجدي لا يصبح في وجهه بخشونة وكثرة كما ! يضل مع ابتائه ، بل يضيق عينيه ويحك راسه عندما يتحدث عنه في غيابه :

ــ ان ايدي ايفان مصنوعتان من الذهب ، أخذه الشيطان ! سيكبر مثل الجبل ! تذكروا ما أقول : هذا الذي يعيش بيننا ليس بالانسان الوضيع ، ولسوف يشق لنفسه دربا . . .

كانت علاقات خالي مع تسيجانوك حسنة ايضا ، نهما لا يحساولان التلاعب عليه ابدا كما يفعلان مع المعلم جريجوري ، كانا يستنبطان ، في كل مساء تقريبا ، لعبة دنيئة ضد هذا الاخير ـ نيسخنان مقابض مقصاته ، أو يثبتان في مقعده مسمارا رأسه في الهواء ، أو يقدمان اليه اقمشة مختلفة الالوان نيخيطها لقصر بصره ـ ببعضها في قطعة واحدة دون أن ينتبه لالوانها ، مما يؤدى الى خلاف عنيف بينه وبين جدى ،

وحدث ذات مساء ، بعد المشماء ، ان مضى جريجوري وغفا على الدكة القائمة في المطبخ ، نصبغا وجهه بالقرمز ، وبقي بعد ذلك فترة طويلة أشبه بالمهرجين ، يتدلى انفه الاحمر الطويل كاللسان بين قرصي نظارته الاسودين اللذين يسطعان ببلادة فوق لحيته الشهباء ،

كان خالاي لا يغرغان من ابتكار امثال تلك الالاعيب ، وجريجسوري يتحمل ذلك صاغرا دون ان ينبس بحرف واحد ، بل يجمجم بينه وبين نفسه، وبحترس من التقاط المقصات ، او الملاقط ، او المكتبان ، او أي شيء حديدي اخر ، الا بعد ان يلمسها بأصابعه المبللة بلعابسه ، وأمست هذه عسادة لا تفارقه ، حتى اضحى يبلل اصابعه باللعاب حين يجلس الى مائدة الطعام ،

وةبل ان يلمس سكينا أو شوكة ، غيبعث ذلك منه سرورا لا حدود له في قلب الاطفال .

كانت تعلو وجهه العريض موجة من التغضن عندما يؤذيه شيء ما ، ثم تنسلق بشكل غربب ك حتى تصل الى جبهته ، فترفع حاجبيله ، ومن ثم تختفي في احدى زوايا راسه الاصلع .

ولمست أدرى رأي جدي في الهو ولديه ، أما جدتي فكانست نهز قبضنها في وجهدما ، وتهمهم :

_ يا لكما من شياطين لا يخجلان ، حقاانكما لمعفريتان ...

وفي غياب تسيجانوك ، كان خالاي يتحدثان عنه بخبس واستهزاء ، يذمان اعماله ، ويسميانه لصا وخاملا .

سألت جدتي مرة عن سبب ذلك ، فأجابت :

ـ ذلك انكلامنهمايرغب في أن يشتغل غانيا لحسابه حينما يفتتح معمله المخاص ، غيصغر في قدره امام الاخر ، وكل منهما اخبث من اخيه واكذب ، ولكنهما خائفان ايضا من ان بغضل غانيا البقاء مع جدك على الذهاب معهما ، فقد يخطر لجدك مشاريع جديدة ، ان يفتتح مثلا معملا خاصا لفانيا ، وهذا مما يسيء الى الخالين ، أفهمت ؟

وضحكت بهدوء:

_ ولكن الله نفسه يهزا بهما . ويلاحظ جدك دهاءهما ، فيغيظهما بقوله « سادفع عن فانيا بدل الجندية ، وهكذا لن يأخذوه الى الجيش ، فأنا لا استطيع الاستغناء عنه » » والان ، افسلا يكفي هدذا ليفقدهما ما في راسيهما من عقل ؟ ومع ذلك ، نههما لا يريدان هذا ، ويعز عليهما صرف المال لان البدل يتطلب كمية كبرة منه .

مرة ثانية ، عدت أعيث مع جدتي ، تماما كما عشمنا على ظهر المركب، فتروح تقص علي حلى مساء قبل أن أمضي الى المنوم حل اقاصيص الجن ، أو فصصا من حياتها المخاصة لا تقل عن تلك جمالا وروعة ، فاذا تحدثت عن «قضايا العائلة العملية » ، وعن تقسيم أملاك جدي ، أو عسن عزمه على شراء منزل جديد خاص به ، فقد كان يشوب لهجتها شيء كثير من السخرية واللامبالاة ، فكأنها مجرد جارة لا شأن لها بتلك الامور ، وليست ثانبة العائلة تقدما في السن .

وقد اخبرتني أن تسيجانوك ليس الا لقيطا . . . فقد وجدوه ، ذات لبلة ماطرة من مطلع الربيع ، على دكة قريبة من بوابة منزلنا .

قالت ، وقد بدت عليها علائم التفكير والغموض :

- كان مضطجعا هناك ، وقد لف بحزمه من القماش ، يقرقف من البرد حتى ليعجز عن الصياح والبكاء .

ــ لم يتخلى الناس عن اولادهم هكذا ؟

- وقتما تجد الام ان الحليب والمعام ينقصانها لتغذي رضيعها بهما ، تفتش عن بيت ولد فيه طفل اخر ومات من توه ، فتحمل وليدها اليه وتتركه هنساك .

وبعد هنيهة صمت قضتها في تمشيط شعرها تابعست ، وهي تتطلع ناحيسة السقة :

... والفقر اساس ذلك كله ، يا اليوشا! ان بعض الناس لعلى درجة من الفقر لا يمكن وصفها ، ومن العار عندهم ان تضع فتاقا غير متزوجة . . وقد اراد جدك ان يحمل فانيا الى الشرطة ، ولكنني منعته عن ذلك وقلت : ثقلنحتفظ به . . . ان الله ارسله لنا عوضا عن ابنائنا الذين توفوا . . . » لقد انجبت لهذا العالم ثماني عشرة نفسا ، وكانوا لو بقسوا على قيد الحياة يملؤون شارعا كاملا .. ثمانية عشر منزلا ! اليس كذلك ؟ لقد زوجونسي ولما البلغ من العمر اربعة عشر ربيعا ، واصبحت اما قبل الخامسة عشرة ، ولكن الله احب نسلي هذا .. فصار يدعوهم اليه واحدا تلو الاخر ، ليجعلهم ملائكة له في السماء ، وان ذلك ليؤلني ويشتيني ، ولكنه يفرحني في الوقت نفسه . . .

كانت تشبه - ال تجلس على حالمة السرير ، وقد ارتد ت قميص النوم، يجللها شمعرها الاسود ، ووجهها الضخم الاشمعث - دبة جلبها لنا ، منذ عهد قريب ، لماح طويل اللحية من غابات سيرجاش .

وقهقهت ، وهي ترسم اشارة الصليب غوق صدرها الابيض ، وتهتز ، كليتها :

ــ لقد اخذ المضلهم جميعا ، ولم يترك لي الا اشرارهم ، ولسذا كنت سعيدة لحصولي على قانيا ، ولقد أحببته حبا جارها ، فأنسا أتعشق الصغار المثالك ! اخذته وعمدته ، وها هو قد عاش ، وصار انسانا رائعا ، وقديها

كنت ادعوه بالخنفساء بسبب دوبه الدائم - فقد اعتساد ان يدب على الارض وهو يدوي كالخنافس . هلا أحببته يسا الكسي ، فسان له روحسا بسيطة سانحسة .

كنت احب ايفان ، وتمنلكني دهشة لاعجابي به ...

وفي كل سبت ، اذ يمضي الجد لاداء صلاة المساء بعد أن ينزل العقاب بمن اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت حياة جديدة تبدا في المطبخ ، حياة تسعدنا بشكل لا يمكن وصفه . . . كان تسيجانوك يقبض على بعض المراصير من وراء الموقد ، ثم يسرجها بخيط صغير الى مركبة من السورق يصنعها بمهارة وسرعة غائقتين ، ثم يسوق الصراصير الاربعة غدوا ورواحا على الطاولة التى دهنت بلون أصفر براق .

كان يصيح متهيجا ، وهو يسوقها بعصا رنيعة :

_ انها ذاهبة لاحضار الاسقف . . .

ثم يلزق قطعة ثانية من الورق بمؤخرة صرصار أخر ، ويرسله وراء العربة السابقة ، وهو يقول:

- لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله لهم .

نم يربط اقدام صرصار اخر ، بحيث يتعثر لوحده ، وهو يجسر نفسه على راسه !

ويعلن فانيا ، وهو يفر ك يديه فرحا :

- هاكم الشماس ، عادر الخمارة الى صلاة المساء!

وراح يرينا الاعيب غيرانه المدربة . . جعلها تقف وتسير على قوائمها الخلفية وقد تدلت اذنابها الى الخلف ، واخذت اعينها تطرف بشكل مضحك . لقد كان لطيفا جدا مع غيرانه ، يحملها في عبه ، ويطعمها السكر من نهه ، ويتبلها ، وهو يقول في اقتناع جازم:

- ان الفارة جار عظيم الحكمة ، وعظيم اللود ، ان عفريت كل دار مغرم بالفيران وهو يتساهل جدا مع كل من يطعمها ...

كان في استطاعة تسيجانوك ان يلعب بعض المخدعات بالورق والدراهم، وان يصيح بصوب عال لا يجاريه فيه أحد من الاطفال ، وفي المتيقسة ، كان من الصعب جدا ان تميزه عنهم ، وقد غلبه الاطفال ، في احدى الامسيات،

مرات عديدة متتابعات ، غاسنشاط غيظا ، واعتصده الحزن ، وغمرته . الكآبه ، فقطب ما بين حاجبيه ، ثم انسحب من اللعب ، . وغيما بعد اعلن شاكسا :

ــ تلك كانت مؤامرة ضدي . وأنا أعرف ذلك النهم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . أتسمي ذلك لعبا ؟ انني أستطيع أن أغثى تماما مثلما يفعلون !

كانفي التاسعةعشرة من العمر، نهو يكبرنا جميعا ولو جمعنا اعمارنا سنحن الاربعة سالى بعضها بعضا ، وان ذكرى خاصة به ما تسزال حية ندية ني خاطرى : كان جدي يذهب ، في أمسيات الاعياد ، مصطحبا الخسال ميخائيل المقيام بواجب الزيارة ، نبحمل الخال ياكوف ، بشعره المجعد المشعث ، تبثارته الى المطبخ ، بينما تهيء جدتي الشماي وآنيته ، والغودكا والمرطبات ، كنا نجد دوما ما يفيض عنا من الطعام ، وكانت الفودكا تنصب مسن قوارير خضر ممتزجة بزهور حمر ، وتنسكب في الاقداح باتقان عجيب ، وكان تسيجانوك معتزجة بزهور حمر ، وتنسكب في الاقداح باتقان عجيب ، وكان تسيجانوك ونظارتاه تلتمعان بمزيج من النور والظلمة ، وكانت مربيتنا ينجينيا ، بوجهها ونظارتاه تلتمعان بمزيج من النور والظلمة ، وكانت مربيتنا ينجينيا ، بوجهها في البثور السمينة ، الاحمر كالقسدر ، وعينيها الصغيرتين الخبيثة من وصوتها العميق المخفض ، بين الحضور أبدا ، وفي بعض الاحابين ، كان وجوههم قاتمة ، وابدانهم شديدة الشعول ،

كان كل غرد يأكل كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ويرسل من حين لاخر تأوهات عميقة . وكان الاولاد ينالون حصتهم ايضا ، وفيها كاس من بعض المشروبات اللذيذة . . . وفي كل مرة كانت بهجة غريبة متوحشة تنبو تدريجا حتى تملك الجميع وتسيطر عليهم سيطرة تامة ، وكان الخال ياكوف يبض قيثارته بهيام وشغف ، فاذا فعل ذلك قال هذه الكلمات التي لا تتغير :

ــ حسنا ، ساباشی . . .

وينحني على القيثارة ، وهو يصفق تجعدات شعره ، ويمسد رقبنه الى الامام كطير الاوز ، ويتخذ وجهه المدور المتكاسل مظهر رجل يحلم ، وتغشى عينيه الجميلتين سحابة ناعمة ، ثم يشرع بالضرب على الاوتار برقة وعذوبة، بلعب عليها لحنا يدهمك ابدا ، بالرغم منك ، الى الوقوف على قدميك .

كانت موسيقاه تتطلب صمتا مطبقا ، نهي تندفع كساقية صغيرة رقراقة تنساب من مكان سحيق ، فتبلل الجدران والارض ، وتوقظ في القلب عاطفة حزبنة مبلولة بالاسمى والقلسق ، فلا تستطيسع ان تسمعها دون ان تحس بالاسف على نفسك ، وعلى كل مخلوق اخر حي . . وكأن يبدو ان الكبار انقلبوا اطفالا صغارا ، فيجلسون جميعا دون ان يأتوا بحركة ما ، غارة بن في بحر من السكون الكثيب .

كان سائسان بن ميخائيل خاصة يصغي بانتباه مركز ، فيميل على عمه بكل جسده ، وعيناه مثبتتان في القيثارة ، وفعه مفتوح يتحسدر اللعاب من زاويته ويستفرق احيانا في ذلك حتى ينزلق عن مقعده ويظل ، في مثل هذه الاحوال ، قابعا حيث سقط على اربعته ، دون ان يزاول الشخوص عينيه .

كان الجميع يحبسون انفاسهم ، يرهفون السمع الى عذوبة الموسيقى كالمسحورين ، اللهم الا السماور الذي يظل يهمهم في هسدوء دون ان يقلسق راحتنا على الاطلاق .

وكانت النافذتان الصغيرتان تطلان على ظلمة ليالي الخريف الداكنة في المخارج ، ونادرا ما يدق أحدهم بهدوء على زجاجها ، وعلى الطاولة يشبع خيطان ضيقان من لهب اصغر تبعثهما شمعتان صغيرتان ذابلتان ،

ويغرق الخال ياكوة شبيئا فشيئا في سبات عميق ، فيخيل اليك انه سيغفو عما قريب ، وهو يكز على اسنانه ، اللهم الا يداه وحدهما اللتان تنبضان بحياة خاصة ، فابهام يده اليمنى المقوس اخد بالاضطراب كطير يقف على حافة هاوية سحية ، بينما أصابع اليد اليسرى لا تنقطع عن الصعود والهبوط على الاوتار .

وينطلق ، بعد ان يشرب جرعة او جرعتين ، ينشهد بصوته الاجشر اغنية طويلة ، مزعجة لا نهاية لها:

« . . . ولو كان ياكوف جروا صغيرا ، لايقسظ جيرانسسه بنباهسهه . . . ضجرت وريسى . . . لقد مل قلبسى ! وهسا هسي راهبسة الديسسر تعسدو على الدرب خائفسة من نواحسه ... ضجرت وربى ... لقد مسل تلبسي ا

...

وغرد ، نسي الغساب ، طسير حنون ، نمعكسر ياكسوف حلسو صداحسه ، . . . فمجرت وربسى . . . لقد مل قلبسى !

...

ومر نقيران ٠٠٠ يبكسي الصغير دما سال كالسيسل نسوق جراحسه ٠٠ ضجرت وربى ٠٠٠ لقد مل تليسي!

فلم احتمل تلك الاغنية ، بل انذرطت في البكاء عندما بلغ خالي مقطع المستعطين منها ، وأنا نهب حزن لاعزاء له .

كان تسيجانوك ، كالاخرين ، يرهف اذنيه بانتباه الى الموسيقى ، وهو يجدل باصابعه شمعر راسه المجعد ، ويرنو الى احدى الزوايا بثبات ، ويتنفس بصوت مسموع ، وكان ، في أغلب الاحيان ، يهتف دون ما سبب ظاهر :

ــ اواه ، لو كنت الملك صوتا جميلا ! الما كنت اغنى ؟

منتنهد جدتي ، وتجيب :

- كفاك تمزق قلبنا ، يا ياكوف ! يكفينا ما نلناه ! هلا رقصت لنا ، يا فانيا ؟

لم يكن طلبها يستجاب دوما ، ولكن الموسيقي كان يضغط احيانا على الاودار براحة يده ، ثم يجمع مبضته ، ويلقي بحركة وحشية شيئا لاصوت له على الارض ، ويصيح :

- كفي كآبة ! هب على قدميك ، على قدميك يا فانيا !

مينهض مانيا ، ويرتب هندامه ، ويمهد همبصه الاصفر ، ثم يتبخر حتى رسط المفرمة ببطء مكانه يسير على الزجاج ، ويطلب بأدب بالغ ، وهو خجلان

من ارتباکه:

_ اسرع اللحن ، ياكلوف عباسيليفيتش ، من مضلك !

متاخذ القيثارة بتوقيع لحن صاخب سريع ، وتشرع الاعقساب تصاحب النغم ، والصحون تتراقص على الرفوف والمائدة ، بينها يسدوم تسيجانوك في وسط الغرغة منتفضا كالعصفور ، يموج يديه كالاجنحة ، ويحرك قدميسه بسرعة عظيمسة قسعجز العين عن متابعتهما ، ثميجلس على وركيه وهو يهتف بصوت عال ، ليعود الى الدوران كخذروف ذهبي ، يضيء كل شيء بشعاعات سندسبة تلتمع وتشع من ملابس الحرير المتموجة التي يرتديها .

ويظل تسبيجانوك يرقص طويلا ، وقد سها عن نفسه وعن محيطه تماما ، حتى يخيل الي انه سيتابع ذلك مه فيما لو فتح الباب له ويدلف راقصا الى الشارع ، وخلال البلدة ، وهكذا حتى يبلغ بعض الاراضى البعيدة المجهولة ...

ويصبح المخال ياكون ، وهو يضرب الارض بقدميه مرافقًا انفام متيثارته:

_ عظیـم ا

ويرسل من غيه صغيرا قويا ، ويزعق بهذين البيتين بصوته الثائر:

« لو لم بكن في ذهابي اتلاف حذائي في الطريق ، لفررت من زوجي كما افر من الحريق ... »

وتصيب الحمى الاشخاص الجالسين الى المائدة ، فيأخذون بالصباح والزعبق كأنهم يطعنون بحديد محمى ، ويستمر المعلم الملتحى يرافسق النغم بضربات متتابعة على راسه الاصلع ، وهو يتمتم في سره بشيء ما . .

واتجه مرة ناحيتي ، حتى صاقبت لحبته الناعمة كتفسى ، وهمس في اذنى وكانه يخاطب أحد الكبار:

ــ لو كان والدك هذا ، يا الكسي مكسبمونيتش ! لكان أضاء شمعلــة صاخدة مسلية تختلف عن هذه ! لقد كان في طراوة العمر وبسمة الصبا ، اتذكــر ه ؟

ــ ها! لقد اعتاد ان يرقص وجدتك احيانا . . . انتظر . . . انتظر لحظة وستــرى ! . .

ونهض جريجوري على قدميه ، باسق القامة ، هزيك الجسم ، يشبه صوره احد القديسين ، ثم انحنى على جدني ، وقال في صورت عميق غير مالوف :

_ كوني لطيفة ، يا اكولينا ايفانوغنسا ، وارقصي لنا ، انذكريسن كيف كنت ترقصين مع مكسيم سافاتيفيتش ؟ والان ، اصنعي معنا هذا المعروف !

وضحكت جدتي وقالت ، وهي تبتعد :

_ يا الهي ! ماذا تقوله ، يا جريجوري ايفلنونيتش ؟ اوه ! انا ! انسا أرقص ؟ انت تريد ان يسخر الناس منى ، اليس كذلك ؟

ولكن الجميع نوسلوا اليها ... غانتصبت على حين غرة كما لو كانت فتاة يانعة في رونق الشباب وميعته ، واصلحت من وضع تميصها ، وقومت عمودها الفتري . ورمت شعرها الكث الى الوراء ، ثم طفقت تدور حول المطهى ، وهي تصيح :

_ فليضحكوا ما شاؤوا! تعال هنا ، يا ياكوف ! اعزف لي !

فانطرح خالى على الارض ، ومدد ساقبه ، وراح يلعب لحنا بطيئا عيناه نصق مغمضتين . . . ووقف نسيجاتوك لحظة ، ثم قفز وشرع يثب حول جدتي ، بينا راحت هي تشب صامتة فوق الارض وكانها تسبح في الجو ، وهي تحرك ذراعيها بطراغة بالغة . . . فيرتفع حاجباهما ، وترنو عيناهما السوداوان الى الافق البعيد . . . وصور لى انها تبعث على السخرية ، فانفجرت ضاحكا . . . ولكن جريجوري حرك اصبعه في وجهي ، في حين رمقني حميع الكبار بنظرة تنم عن السخط والغضب .

صاحجريجورې ، وهو يضحك

_ ابتعد ، یا ایفان !

نذهب تسميجانوك مطاعة غريبة وقبع في احدى الزوايا قريبا من الباب. وابرزت المربية يفجبنيا حلقومها ، وراحت تنشد في صوت عميق رائع :

« لقد رقصوا منذ فجر النهار وسرعان ما هجهم الليل عدوا وكادوأ يطهرون عبر الفضاء فولى نهازهم 6 وانقضى 1 »

وكان يلوح ان جدتي لا ترقص ، بل تحكي روايسة ما ، فهي تتحسرك

ببطء وتان ، تخطر من ناحية لاخرى ، وترنو الينا من تحت ذراعها المرفوعة ، تضطرب في حركاتها ، مترددة ، وهي تتحسس طريقها بحذر واعتناء بالغين . ثم بقف لحظة وكأن شيئا قد اثار في قلبها الذعر على حين بغتة ، غيرتعش وجهها ويقتم لونه ، لتعود ملامحها فتضيء بعد قليل بابتسامة لطيفة نقية طاهرة . . . ومن ثم تقفز ، على غير انتظار ، تفسيح الطريبق الشخص لا نراه ، وتدفعه باليد بعيدا عنها ، ومن ثم تتوقف وتصغي ، مطرقة الرأس ، روجهها يشرق رويدا رويدا بابتسامة سعيدة ، كي تتفجر رقصا من جديد ، وبصورة مفاجئة وهي تدور كالعاصفة اكثر طولا وانتصابا وتناسقا منها في اي وقت منى ، تشمع منها جاذبية متوحشة في هذه اللحظات من الشباب المبعوث حتى ليستحيل على المرء ان يرفع بصره عنها او يحيد . . .

وكانت المربية يفجينيا ، انناء ذلك ، تتابع ضجيجها ، كاحد الابواق :

وتبكي عليسه مدامعهسسا ا وتطرز ، طول الليالي ، الحرير وتبذل ضعفسا اصالبعهسا ؟ السم تر فاتنسة الدار تذوى ،

واخذت جدتى مجلسها قرب السماور ، بعد أن انتهات من الرقص ؛ غشكرها الجميع وهنأوها ، ولكنها احتجت بتواضع . . .

قالت ، وهي تصفف شعرها المسعت :

- كنى ، كنى ! انكم لم تشاهدوا في حياتكم راقصة حقيقية . كاتعت هناك هناة حديث كنت أعيش في بالاخنا ، ولقد نسيت اسمها وابنة من تكون - لا يستطيع المرء الا أن يبكي فرحا عندما يشاهد رقصها . فيمتليء قلبه بهجة لمجرد النظر اليها ، ولا يعود برغب في شيء اخر مطلقا ! لكم كنت اغار منها ، انا الخاطئة !

واعلنت المربية بفجينيا بحدة ، وقد اختنت تغني شيئا عن « الملك داود »:

ــ ان المغنين والراقصين هم ملح الارض . . .

مالتفت الخال ياكوف صوب تسيجانوك ، ووضع يده نموق كتفه ، وقال: - يجب ان تعمل راقصا في مسرح ما ، غلا ريب انك ستبعث الغبطة في قلوب الناس .

ماحاب تسيحانسوك:

ــ انضل ان اغني ، لو يمنحني المله صوتا عذبا استمر في الغناء دون انتطاع طوال عشر سنوات ، وعندئذ لا أبالي بما يحدث لي ــ حتى ولو اصبحت راهبا!

وشرب الجبيع بعض المفودكا ، وخاصة جريجوري ٠٠٠

حذرته جدتي : وهي تملأ لمه الكأس تلو الاخرى :

ــ انتبه يا جريجوري ، والا غدوت أعمى دون مراء .

فأجساب:

... وما اهمية هذا ؟ فلن احتاج الى عيني بعد الان ما دمت قد شاهدت كل شيء في هذا العالم .

ولم يسكر ، بلاخذ يزداد طلاقة لسان ، وهو يحدثني طوال الوقت عن والسدى :

ـــ لقد كان يملك قلبا كبيرا! نعم! كذلك كان صديقي العزيــز مكسيم لماغاتيفيتش!

متنهدت جدتي ، ووامقت على كالأسله :

... آه ، نعم ، لقد كان ابنا لله ...

غاثار ذلك كله في اهتماما عظيما المتى بي في حال من التوتر الدائم تبعث في تلبى شبئا من كابة هادئة ، لطيفة ، غير متعبة غالكابة والسرور يعيشان معا في تلوب الناس ، غير منفصلين ، يخلف أحدهما الاخر برشاقة خداعة غامضة .

وذات مرة اخذ الخال ياكوف ، ولم يكن على شيء كثير من السكر ، يمزق تميمه ، ويشد شعره ، وشاربسه عديم اللسون ، وانهسه وشمنسه الببارزة .

تال ، والدموع تنهمر من عينيسه:

ــ لم ، ٦٠ ، لم ؟ يجب ان تكون الحياة على هذا الشكل ؟

ولطم بيده وجنته ، وصدره ، وهو ينشبج طوال الوقت :

ــ اننى شرير لا نفع في ! اننى نغس ضائعة !

ودمدم جريجوري:

_ ٢٥! ذلك صحيــح!

a £ n

نقالت جدتي ، وقد اسكرتها الفودكا قليلا ، وهي تمسك بيدي ولدها: - كفي ، يا ياكوف! ان الله العزيز ادرى منا بحاجاتنا .

كانت نفسها تطيب كلما تجرعت مزيدا من الفودكا . . . وكانت عيناها المسوداوان تصبان نورا دافئاً على كل فرد منا ، وهي تسروح وجهها المتورد بمنديلها ، وتقول في نغمة غنائيسة :

ــ اوه ، يا الهي ، يا الهي ! ما احلى الاشبياء ! انظروا فقط الى روعة المالـم !

كانت هذه المرخة تند عن تلبها ، وكانت شعار حياتها ابدا !...

اثارت دموع خالي وبكاؤه ، وهو اللامبالي عادة ، دهشتسي الى الحد الاقصى ، فسألت جدتي لم يبكي ويشتم ويضرب نفسه ، مدمدمست مي شيء من النفور لم يكن ابدا من طبيعتها:

ــ يبدو عليك انك تود معرفة كل شيء ا رويدك تليلا 6 لم يزل الوقعة باكرا جدا لتدس بانفك في مثل هذه الامرر ا

هيج ذلك مضولي . . . مُدخلت المعمل ، ورحت اسال ايفان عن ذلك. ولكنه تجنب ، هو الآخر ، الاجابة على اسئلتي . وشرع يضحك بهدوء ، وهو يرنو الى المعلم بطرف عينه ، ويدمعني خارج المعمل . قال :

- كفى ! اطفح عني قبل ان أرمي بك في احد هذه البراميل واصبغك باللون الأخضر اللامع .

كان المعلم يقف أمام موقد واطيء عريض ، بنيت نيه ثلاثية احواض للصباغ ، يحرك محتوى احدها بعصا طويلة سوداء ، ثم يرنبع بها الملابس ويراقب الماء الملون المتساقط منها . وكانت النار المتأججة تنعكس على مئزره الجلدي المتعدد الالوان الذي يشبه ، الى حد بعيد ، ثوب الكاهين الرسمى المزركش . وكانت مياه الصباغ تغرغر في الاحواض وتكركر ، بينها تنسل سحب من الدخان الحاد من خصائص الباب ، وتمتيد على طول الساحة الشيائية . . .

رنا جريجوري الى من تحت نظارتيه بعينين حمراوين ، ثــم التنت الى اينان ، وقال بنظاظــة :

- الا ترى انني احتاج الى بعض الوقود ؟

وعندما خرج تسيجانوك راكضا ، جلس جريجوري على احد الاكياس.

المسنوعة من خلاصة خشب الصندل ، واشمار الي ، وقال :

_ تعال هنا!

اجلسنى على ركبتيه ، وأجرى لحيته الناعمة الدانشية على خدي ، واطلعني على اشباء لن انساها ما حييت :

للسلام ، أتفهم ؟ حق لك أن تعرف كل شيء لله وضمسيره لا يترك له فرصسة للسلام ، أتفهم ؟ حق لك أن تعرف كل شيء للله ابق عينيك مفتوحتين ، والا هلكت بكل تأكيد .

كان كل شيء في جريجوري بسيطا مثله في جدتسي ، ومع ذلك فهسو يرهبني ، ويبدو انه قادر على أن يستشف كل ما يعتلج في نكر الانسان وقلبه عندما يشخص اليه من تحت نظارتيه السوداوين ،

وتابع حديثه قائلا بسرعسة :

... وكيف ضربها حتى ماتت ؟ اليك ذلك ... كان يصحبها الى السريد ، . ثم يلفها باللحاف من رأسها حتى قدميها ، ويروح بضربها بوحشية ، ليلة تلو اخرى ، حتى توفت ، ولم ذلك ؟هو نفسه لا يعرف لماذا ! . . .

ورجع اينان يحمل شحنة من الحطيب ، وجلس القرنصاء بالقرب من النار يدنيء يديه ، لكن جريجوري تابع حديثه بصوت مؤثر ، دون ان يلقي الليه سالا :

- لعله كان يضربها لانها اغضل منه ، تشير في نفسه الحسد منها ، ان آل كاشرين لا يطيقون شيئا جيدا ، يا صغيري ، انهم يغارون منه ، ولما كانوا لا يستطيعون ان يحصلوا عليه لانفسهم ، غانهم يدمرونه ، اسأل جدتك كيف اثقلوا على أبيك حتى حرموه الحياة ، غهى ستخبرك عسن كل شيء سانها لا تستطيع الكذب ولا تفهمه ، انها من طينة القديسين تلك الجدة ، رغم انها تجرع بعض المضرة من آن لاخر ، وتحب سعوطها حبا جما ، انها امرأة قديسة ويحسن أن تلازمها ، يا صغيري . . .

دنيعام عنه ، مخرجت الى الساحة مذهولا خائفا ، ولحق بي مانيا ، عندما اجتزبت العتبة ، وهمس في اذني وقد وضع يده موق رأسي :

_ لا تخف منه انه من طينة طيبة . تطلع باستقامــة في عينيه . مهو يحب الذين يفعلون ذلــك .

كانت سائر الاشياء تثير القلق بشكل غربب ، ورغم جهلى المطلق بكل السلوب اخر للحياة ، مائي اذكر ، في كثير من المعموض ، ان أمسي وأبي كانا

يعيشان حياة اخرى مختلفة ، كاتا ينطقان بكلمات اخرى ، ويجيدان تسليات .
اخرى ، يقعدان ويسيران دوما جنبا الى جنب ، يلاصق كل منهما الاخر ولا يفارقه لحظة واحدة ، وكانها يجلسان ، في الامسيات ، الى احدى النوافذ ينشدان بعض الاغنيات ، ويضحكان طويلا بصوت عال ، حتى يتجمع الجيران مرهفين السمع اليهما ، وأنا اذكر أن وجوه أولئك الجسيران المرتفعة نحو المنافذة كانت تذكرني بصحون مائدة الغداء الوسخة ، غير أن الايسة تنعكس في هذا المكان ، فالقوم لا يضحكون الا في المتدري ، وأن فعلوا فأنت تعجز عن الالمام بالسبب الذي يدفعهم إلى المضحك . كانوا يزعقون في وجهه بعضهم بعضا ، ويهددون بعضهم بعضا ، ويتهامسون في الزوايا دون انقطاع ، أما الصفار فيعتصمون بالصمت ويصعب تمييز احدهم عن الاخسر وهم لاصقون بالارض كالغبار ، وهكذا شعرت بانني غريب في جو ذلك البيت ، والحياة التي تحيط بى تخزني بمئات الابر ، وتستفز ريبتي ، وتجبرني على مراقبة كل ما يدور حولى بائتباه زائد ، . .

وقد ترعرعت صداقتي لايفان كثيرا ، وجدتي مشعفولة عني ، منذ الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل ، باعمالها البيتية ، وهكذا اصبحت اقضي أغلب أيامي وأنا أخب في اعقاب تسبيجانوك الذي استمر يحمينسي بذراعيه كلمسا جلدني جدي ، ثم كان يريني اصابعه المتورمة في اليوم التالي ، وهو يتول :

_ لا جدوى من ذلك ! نهو لا يساعدك مطلقا ، ومع هذا ، فانظر مـا يجره على ! هذه هي الرق الاخيرة ـ وفي المستقبل ستنال نصيبك بنفسك . .

ولكنه كان يتحمل ، عندما تسنح الفرصة ، العقاب السذي لا يستحقه مرة الحسرى . .

_ لقد تلت انك لن تفعل ذلك ثانيــة ؟

ـــ لم اتعمد ذلك ، لكن وجدتني أمد ذراعي ، هكـــذا دون أن أنتبه الى ما الهعـــل .

وقد عرفت ، بعد قدرة من الزمن ، شبيئا عن تسبيجانوك زادني اهتماما به ، واخلاصا لسه .

كان تسيجانوك ، كل نهار جمعة ، يربط المهــر الخصي « ساراب » الاشقر اللون « وهو حيوان خبيث نبيث ذو أسنان جميلة لدى جدتــي » الى مزلجة للجليد ، ويلبس تبعة غريبة الشكل ، ويرتدي معطفا تصيرا من جلد الماعز يحزمه زنار متين أخشر اللــون ، وبمضى الى المسوق ليبتــاع مؤونة

الاسبوع من الطعام . وكانت غيبته تطول احيانا . . . وعندئد يفقد الجميع رباطة جأشهم ، فياتون النافذة باستمرار وينفخون على الزجاج المتجمد ليلقوا نظرة على الشارع .

_ هل عـاد ؟

ــ كلا ، لم يعد بمــد !

وكانت جدتى ، خاصة ، تقاسي الكثير من القلم ق ، فتقول لولديها وزوجهسا:

- يا للمصيبة استسببون موت انسان طيب ، وحصان طيب ، انتم في أمس الحاجة الى ضمير حي ، أيتها المخلوقات المخجلة! انكسم لا تكتفون ابدا بما كسبتموه . يا للعشيرة الغبية ، والعائلية الطماعية ! أن الليه سيعاقبكم جميعا ، وسترون ٠٠٠

مكان جدى يعبث ويتمتم :

ـ اوه ٤ حسنا! هذه هي المرة الاخيرة!

وكان تسيجانوك ، احيانا ، لا يعود الا بعد الظهـــرة ، فيسرع جدى م خالای حتی الساحة لملاقاته ، تلحق بهم جدتی و هی تنتشق سعوطها بغیظ ، وتهمهم كالدب . . . وفي مثل هذه الاحوال كانت تبدو لي ، لسبب ما اجهله ، على كثير من السماجة والثقل ، وينطلق الإطفال ركضا المي الساحة ، وبشرعون ، في بهجة عظيمة ، بتفريغ العربة مما فيها مسن لحوم طازجة ، وطيور ، وسمك ، وماكل من مختلف الانواع .

ويسالجدى ، وهو يلتهم العربة بعينيه المحادثين الصغيرتين :

_ أجلبت كل ما اوصيناك بــه ؟

فيجيب ايفان منشرح الصدر ، وهو يثب نوق الارض طلبا للدفء ، ويضرب يديه المتصلبتين ببعضهما ليبعث غيهما بعض الحرارة:

نيصيح جدي بغضب

- مهلا ، يا صاح ١٠٠١ ان لقفازيك ثمنا . هل تبقى معسك شيء من

! X____

ويسسر جدي ببطء حول العربة ، ويتمتم وهو يعود ادراجه :

- يخيل الى انك جلبت كمية كبيرة من السعموط مرة ثانية . ومسن

المؤكد انك لم تحصل عليها بدون ثمن لم حذار من ارتكاب الفعسل نفسه لمي. منزلى ايضال اسامع انست ا

ثم يمضي بعيدا ، وقد قطب وجهسه ...

وعندها كان خالاي يندنعان ناحية المزلجة ، ويروحان يقدران وزن الدجاج ، والسمك ، والطيور ، وافخاذ لحم العجل ، وكتل اللحم . . .

كانا يتولان ، وهما يصغران ويصيحان معبرين عن رضاهما :

- لقد اجدت الاختيار ، هذا رائع ا

كان ابتهاج خالي ميخائيل يغوق حدود التصور . فهو يتفز حول المعربة وكأنه يتف على عدة نوابض ، يستنشق بأنفه اشبب بمنقار طسير « نقار الخشب » ويتلمظ بشفتيه ، ويضيق عينيه الهادئتين مغتبطا .

كان بخيلا كجدي ، يشبه غجريا متشردا ، وكان يخفي يديه المتجمدتين ني جيبيه ، ويسأل :

- كم تناولت من ذلك الشبيخ ؟
 - ــ خيسة رويلات . ¹
- -- ولقد كلف هذا ما يقارب المضمسة عشر روبلا على الاقل . كم صرفت من المبلسغ ؟
 - ــ اربعة روبلات وعشرة كوبيكات .
- وهكذا يتبقى في جيبك تسمون كوبيكا . ما ؟ اتسمع هذا ، يا ياكوت،؟ هذه طريقة فريدة في المربح !

ويضحك ياتوف بلطف ، وهو يقف في ذلك الجو البارد بقبيصه قصير الاكمام ، يطرف بعينيه الى السماء الزرقاء المتجلدة . كان يسال ببطء :

- ما قولك في أن نتقاسم المال ، يا غانيا ؟

وتخلع جدتي عن الحصان اغطيته ، وتقول وهي تشتعل غيظا : - ماذا ، يا حبيبي ، ماذا ، يا قطتي الصغيرة ؟ اترغسب في اللعب ؟ امض ، امض سريعا ! أن الله لا يمانع في قليل من التسلية ٠٠٠

ويهز سارات الضخم ناصيته ، ويحك كتفها باسنانه البيض ، ثم ينتش وشاحها الحريري ، ويرنو الى وجهها بعينين جذلتين ، ويصهل بعذوبة وهو يزعزع الجليد بضرباته ، . وتسأله جدتي ، وهي تداسع بقطعة من الخبسز الملح بين اسنانه ، وقد رفعته مئزرها تحت فمه تراقبة وهو يمضغ :

ــ اتريد قطعة سن الخبــز ؟

نيقول تسيجانؤك ضاحكا

الله جميل ، هذا الخصي العجوز ا وهو سريع سُبُوح ، وذكي ايضا ا متضرب جدتى الارض بقدمها ، وتصيح :

ــ اليك عني ! كفاك تدور حولي وتهز ذيلك ، انت تعرف انني لا احبك في هذه الاوقات !

وشرحت لي ان تسيجانوك ، حين يمضي الى السوق ، يسرق اكثر مما يشتري من البضائع ، قالت بصوت كثيب :

_ يعطيه جدك ورقة من فئة الخمسة روبلات ، فيصرف ثلاثة منها _ ويسرق ما قيمته عشرة روبلات ، فهو يحب السرقة ، هذا الوغد ! وقد جربها مرة ، فنجحت ، فضحك جميع من في المنزل وامتدحوه ، ولذلك اتخذها عادة ، وقد عرف جدك المفتر والبؤس في ايام فتوته ، فجعله ذلك مقترا نوعا ما فني شيخوخته ، والمال عنده اعز عليه من اولاده ، ويروق له كثيرا ان يحصل على شيء من لا شيء ، أما ميخائيل وياكوف

وعبرت عن سخطها بحركة من يدها ، ثم صمتت لحظة . . . وتابعت ، وعبرت عن سخطها بحركة من يدها ، ثم صمتت لحظة الله علية سعوطها :

سد ذلك شيء معقد ، يا اليوشا ، صنعته حيزبون عمياء عجوز فخرج من بين يديها مسحورا ، فلا عجب اذا لم نستطع ، انا وانست ، ان نميز له راسا من ذنب . . . ولكنهم اذا ما قبضوا على غانيا مرة بجريمسة السرقة ، فسيضربونه حتى الموت

وجنحت الى الصمت ثانية ، برهة وجيزة ، وعندما تابعت الكلام كان صوتها ناعما للغايسة :

ــ ایه ! لدینا توانین کثیره ، لکن دون حقیقة تقوم علیها هذه القوانین ، أو عدالة تتضمنها .

وفي اليوم التالي توسلت الى تسيجانوك ان يكف عن السرقة :

ــ سيضربونك حتى الموت ا

فأطلق ضحكة سرعان ما كسفتها تقطيبة علت وجهه ، ونبر:

- ولكنهم لن يقبضوا علي ، سأهرب! وأنا خبيث ماهر ، وجوادي من الخيل السريعة . أوه ، أنا أعرف أن السرقة جرم وأمر خطر ، وأنا الجأ اليها لمجرد التسلية طالما أني لا أدخر شيئا من المال مخالاك يأخذانه مني ني بحر الاسبوع ، ولكنني لا أعني بذلك - غليا خداه ، ما دمت أحصل على كفايتي من الطعام .

ورنبعني نجأة عن الارض ، وهزني بلطف :

- انت هزيل ضعيف ، لكن عظامك توية ، وستصبح شابا هرقلا ، اصغ ، تعلم العزف على القيثارة ، واسأل خالك ياكوف ان يعلمك ذلك ، انا لا امزح ! غانت صغير بعد ، وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، ولكنك لطيف! واظن انك لا تحب جدك ، اليس كذلك ؟

ــ لست ادرى .

-- حسنا ، اما انا غلا احب احدا من آل كاشرين ، اللهم الا جدتك . . الشيطان وحده يستطيع ان يحبهم !

ب و انسا ؟

- انت لست من كاشرين ، انت من بشكوف ، وهذا دم اخر ، وعشيرة مختلفة .

وضمني اليه بلطف ، وقال وهو يئن :

ـ يا الله لو استطيع أن أغنى مقط! أذن لاوجعت التلوب بغنائي .

والان ؛ اليك عني ؛ يا أخي . . . يجب أن أشرع في عملي .

اعادني الى الارض ، وزق تبضة من المسامير في نمسه ، وراح يسمر تطعا سودا مبتلة في لوح مربع كبير من الخشب . . .

ولم يهض طويل وقت على هذا حتى مات ...

واليكم كيف حدث ذلك:

كان صليب هائل من خشب البلوط ينتهي بقاعدة كثيفسة من الجذور يستند الى السور في ساحتنا ، قرب البوابة ، منذ زمن طويل ، حتى لاذكر انه لنت انتباهي يوم جئت استوطن ذلك البيت للمرة الاولى . كسان يومئذ جديدا اصغر اللون ، اما الان فاصبح اسود لكثرة ما تساقط عليه من امطار الخريف ، وفارقته الرائحة الحادة لاخشاب البلوط المنقوعة ، فهو يبدو شيئا زائدا عديم النفع في ساحة دارنا الصغيرة المفروشة بالاوساخ ،

ولقد اشتراه الخال ياكوت ليرفعه على قبر زوجته ، واقسم ان يحمله الى المتبرة على كتفيه في الذكرى الاولى لوغاتها ... وصادفت الذكرى نهار السبت ، في الايام الاولى من قصل الشتاء . كانت الريح القارسة تناثر الثلج علينا من فسوق الاسطحة حسين مضى جدي وجدتسي والاحفاد الثلاثة الاخرون الى المتبره لحضور الجناز ، بينها خرج الباتون جميعا الى الساحة وخلفوني وحدي في الدار عقابا لي على ذنه سبق ان ارتكبته .

وارتدى خالاي معطفيين سوداوين متماثلين ، ورفعها الصليه عن الارض ، ووضعا ذراعه الواحدة على كتف احدهها ، والثانية على كتف الآخر ، ورفع جريجوري ورجل غريب اخر ، بصعوبة جمة ، تاعدة الصليب الثقيلة والقيا بها على كتف تسيجانوك العريض ، فترنسح من ثقل الحهل وباعد ما بين قدميه اتقاء للسقوط .

سألجريجوري:

ــ الا تستطيع حملــه 1

ــ لست ادري ، يظهر انه ثقيل جدا !

وزمجر الخال ميخائيك :

_ انتح البوابة ، ايها الشيطان الاعمى ! وقال ياكوك :

__ الا تخجل من نفسك ، يا غانيا ؟ مُكلانا اضعف منك بنية . . ولكسن جريجورى استدار الى غانيا ، وهو يفتح البوابة ، ونبهه بحدة :

_ احذر من ان تجهد نفسك ! حسنا ، كان الله في عونك !

غصاح الخال ميخائيل من الشمارع:

_ يا لك من احمق جربان !

خصحك كل من في الساحة ، وشرعوا يتحدثون بأصوات عالية ، خكأن نقل ذلك الصليب قد ابهجهم جميعا وصب السرور في قلوبهم .

والمسك جريجوري بيدي وقادني الى المعمل . قال :

- لربما لم يجلدك جدك اليوم . يبدو انه حسن المزاج ...

اجلسني على قمة من الصوف مهيئة للصباغ ، واحاطنسي به بلطف ، وراح يحدثني بتأمل وهو ينفخ البخار المتصاعد من الاحواض:

- عرفت جدك منذ سبعة وثلاثين عاما ، يا صغيري . ولقد شاهدت بداية هذه الاعمال ، وهانذا الان اشهد نهايتها . لقد كنا تبلا صديقين طيبين - شرعنا في العمل معا ، وهيأناه معا ، ان جدك هذا لانسان حاذق ا انظر ، فهو يجعل نفسه المقائد هنا - أما أنا علم أكن كفؤا لذلك ، ولكن الرب أذكانا جميعا ، يكفي أن يبتسم حتى يروح أحكم الناس يغرك عينيه كالاحمق ، أنت لا تعرف بعد شيئا عن لماذا وكيف ، ولكن من الضروري أن تعرف كل شيء ، فحياة اليتيم شاقة ، وقد كان أبوك مكسيم سافاتيفيتش الورقة الرابحة دوما ، فهو يفهم كل شيء ، ولذا لم يحبه جدك ، ولم يتعرف عليه

كلت ابتهج بالجلوس والاصغاء الى مثل هذه الكلمات ، وانسا اراتب المنار الجامحة المتاججة الذهبية تتراقص في الموقد ، ودفقات البخسار الابيض تنطلق من الاحواض ثم تتجمد على الواح الاسطحة المائلة ، وشاهدت ، من خلال احد الشعقوق المبثوثة في هذه الاختساب ، شريطا ازرق من السماء يزهر

في خيلاء . وقد خمدت الريح إلان ، واشرقت الشمس ، وبدت الساحة كما ُ لو كانت مرشوشة بتراب من الزجاج الناعم . وكانت قرقعة انزلاق مركبات المجليد تدف من الشارع ، بينما يتموج دخان ازرق يتصاعد من مداخن البيوت ، وندب اخيلة منورة على الثلج وكانها ، هي الاخرى ، تروي التاصيصها وحكاياتها .

وبدا لى جريجوري الطويل ، المتعظم ، ذو اللحية الطويلة ، والاذنين المريضتين ، ساحرا لطيفا ، وهو يتف امامي حاسر الرائس ، يحرك الصباغ الذي يفلى ، ويزودني بارشاداته :

ــ تطلع في عيون الناس باستقامة دائما ، غاذا غلالت ذلك اضطر حتى المكلب المقتفى أثرك أن يقف في مكانه جامدا . . .

كانت نظارته الثنيلة تضغط على حانتي انفه ، مما جعل نهاية ذلك الانف تزرق ، فتشبه في ذلك أنف جدتي

_ ما هــذا ؟

قال ؛ وقد نهض فجأة ، ثم اصغى برهة ، واغلق باب الموقد بقدمه ، وانطنق نحو الساحة وأنا أقفل في أثره .

كان تسيجانوك يضطجع على ظهره في وسط المطبخ ، وشريطان عريضان من النور يمرقان من خلل النافذة فيقع أحدهما على رأسه وصدده ، ويترامى الثاني على قدميه ، وكان نور غريب يلمع على جبهته ، وقد ارتفع حاجباه ، ورنت عيناه المنحرفتان الى السقف المملوء بالهباب ، وراحت شفتاه السوداوان ترتجفان وتبعثان بزبد وردي اللون ، وخطان رفيعان من الدماء ينزان من زاوية فه ويجريان على وجهه ورقبته ، ثم على الارض ، والدم يتدفق بحرية من تحته ، وكانت ساقاه تضطجعان بترهل ، وسرواله المريض يلتصق بالارض ، يبدو بوضوح وجلاء انه مبلول ، وكانست الارض مفروشة بالرمل مما جعلها تلتمع كالشمس ، وفهيرات من الدماء تتسابق ناحية الباب ، تتضوا ببهاء عندما تتصلب مع خطوط شماعات الشمس المسترسلة .

كان تسيجانوك مضطجعا دون حراك ، مهدود الذراعين ، ينقر باصبعه

غلى الارض ، والهانمره المملوءة بالونة الصباغ تشترق في الشمميس البراقة

وجثت المربية يفجينيا الى جانب ايفان تحاول ان تضع تسمعة في يده ، واكنه لم يستطع الامساك بها ، فسقطت وانطفأت شعلتها في الدماء ، وعادت المربية فالتقطتها ثانية ، ومسحتها بطرف مئزرها ، ثم حاولت مرة اخرى ان تضعها بين اصابعه المتحركة بدون هدوء ، وكان المطبح يغلي بهياج شديد دفع بي كالريح عن العتبة ، وكاد يرمي بي لو لم اتمسك بقضة الباب ،

قال الخال ياكوف في صوت لا رنة نيه وهو يهز راسه ، وقد بدا حمو الاخر حد ضعيف البنيسة ، متكرش الوجه ، تطرق عيناه المتكاسلتسان باستمراد:

ــ لقد تعثر ا... لقد سقط ، نسحقه ... ضربه على ظهره ، وكاد بحطمنا نحن الاخرين ، لو لم نفلت في الوقت المناسب .

نقال جريجوري بصوت مبحوح:

_ اذن ٤ فانتما اللذان سحقتماه ! . . .

حولكن ، ماذا تظن اننسا ؟

__ انتهـــا !...

ظلت الدماء تتدفق بحرية حتى شكلت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة السودت ولاحت انها ترتئح كالماء حينها يصطدم بسد منيسع ، وتسيجانوك ملتى هناك يبعث بتلك الضوضاء التي يحدثها في نومه ، والزبد الوردي اللون يتابع جريانه من نمه ، وجسده يضمحل ويسرداد تسطحا ، وينبسط على الارض كما لو كان يغوص نيها .

همس الخال باكوف:

ــ لقد امتطى ميخائيل حصانا ومضى الى الكنيسة يخبر والدنا ! امسانا مقلبته على عربة واسرعت الى هنا . . حسنا معلت اذ لم احمل القاعدة بنفسى ؛ والا غالام كنت ساصير ؟ . . .

وثبتت المربية ، مرة ثانية ، الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي تساقط

الشمع والدموع على راحته ، فصاح بها جريجوري في خشونة :

_ ضعى الشمعة على الارض قرب رأسه ، ايتها الخرقاء!

- _ هذا صحيـح!
- ــ انزعوا عنه تبعته!

نزعت المربية القبعة ، غضرب رأس أيفان الأرض محدثا صوتا أصم ، واستدار رأسه أثر ذلك ، غازداد تدفق الدم من غمه ، لكسن من جهة واحدة غصب، ، واستهرت الحال هكذا زمنا طويلا مرعبا ، ولم أدرك تماما ماذا حدث . . . توقعت ، بادىء ذي بدء ، أن تسيجانوك يأخذ قسطا من الراحة، وأنه أن يلبث وينهض ويبصق كراهية ، ويقول بنغمته المعتادة ، تفو ! يا للحرارة ! كما أعتاد أن يقول دوما ، بعد أن يصحو من غفسوة الظهيرة أيام الاحاد ، ولكنه لم بنهض ، بل ظل مضطجعا هناك يسذوي ويسذوب شبئا

وانسحبت الشمس ، نقصرت شعاعاتها بحيث لم تبلغ ابعد من حفاف النافذة . واصبح لوجه ايفان ويديه لون قاتم ، وخمدت اصابعه عن الحركة، وتوقف المزبد عن الانصباب من فعه ، بينما كانت ثلاث شمعات تشتعل حول راسه تضيء شعاعاتها الذهبية كتل شعسره الازرق المسود ، وقمة انفسه الضيقة ، واسنانه المصوغة بالدماء ، ثم ترمى بومضات متماوجة من انوارها فوق خديه الاسمرين .

واستمرت المربية تبكي الى جانبه وهي جاثية على قدميها ، وتهمس :

- آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاء حقيقيا !

كان الجو باردا مرعبا قارسا ، فتسللت واختبات تحت الطاولة وساعتنذ دخل جدي المطبخ متثاقلا في فروته السوداء تتبعه جدتي في معطفها السميك المطرزة باقته باذناب صغرة ، ودخل معهما الخال ميذائيل ، والاطفال ، وعدة غرباء . . . ورمى جدي فروته على الارض ، وصاح :

- با لاولئك الاوغاد! يصنعون هكذا بمثل هذا المنتى! خمس سنوات اخرى وبصبح يساوى ثقله ذهبا!

: واخنت الثياب الملقاة على الارض ايفان عن ناظري ، فوقفت ، وانسا السعى للحصول على موضع آخر ممتاز ، بين قدمي جدي ، فركلنسي جانبا وهو يهز قبضته الحمراء الصغيرة في وجه خالي:

_ ايها الذئبسان!

ثم ارتمى على الدكة واطبق باصابعه عليها في عنف ، وهو يغمغه ويجمجم في صوت اجش :

ــ اوه ، انا اعرف ـ لقد كان شوكة في حلقيكها ١ ٥ ، يا غانيا ، ايها الولد الفتي ! ماذا نستطيع ان نعمل الان ؟ انسا اسالك مساذا نستطيع ان نعمل ! ان الخيل غريبة ، واللجام مهتريء عتيق . . . انظري ، يا اماه ، فكان الرب لم يعد يحبنا في هذه السنوات القليلة الاخيرة ! اليس كذلك ، يا ام ؟

فانطرحت جدتسي على الارض بالقرب مسن ايفان تتحسس وجهسه ، ورأسه ، وصدره ، وتنفخ في عينيه ، وتمسك يديه وتفركهما . . . فاطاحت في اثناء ذلك بالشمعات كلها . ونهضت اخيرا على قدميها تشبه صورة سوداء قاتمة ، وثوبها الاسود يلمع ، وعيناها السوداوان تقذفان شررا هائلا مخيفا، وهي تقول في صوت خفيض :

- اخرجوا من هنا ، يا ملاعين

ماختنى الجميع عدا جدى ٠٠٠

وثوى تسيجانوك ببساطة ، دون ان يسترعي ادنى انتباه . . .

٤

كنت اضطجع في سرير عريض ، ملنفا بلحاف ثقيسل يحيط بي من كل جانب ، اصغي الى جدتي تصلي . . . كانت تجثو على ركبتيهسا ، وتضغط صدرها باحدى بديها ، وترسم بالثانية _ من وقت لاخر وبدون اي اسراع _ اشارة الصليب .

وكانت ترمّعة تكسر اللبد وراء الناهذة تبلغ سمعسي ، ونور القمسر

المخضر يرنو من خلال السجف المزركشة التي تغطي زجاج النافذة ، فيضيء بنائواره الفسغورية ذلك الوجه اللطيف بانفه البارز ، وعينيه السوداوين ، وكان غطاء المراس الحريري الذي يخفي شمعر جدتي بشم كالمعدن ، وثوبها الاسود يتدلى عن كتفيها بثنيات متبدلة تكومت على الارض تحف بها من كل جانب ،

وحين كانت تنتهي من تلوة الصلاة ، تنضو عنها ثيابها في صهت وتضعها بعناية على صندوق الملابس المقائم في زاوية الغرفة ، ثم تقترب من السرير ، فاتظاهر بالنوم . . وتقول بهدوء :

_ كفاك تصنعا ، ايها المخبيث الصغير ! انت لست بنائم ! ليس الان، اليس كذلك ايها الطير الصغير ؟ هيا ، دعنا نصيب شبيئا من هذا اللحاف .

كنت ادرك ما سيتبع ذلك ، ولذا لا استطيع الامتناع عن الابتسام ...

وتصيح:

ــ آه ، انك تود ان تعمل من جدتك ملهاة ، اليس كذلك ؟

وتمسك بحافة اللحاف وتشده البها بقوة ومهارة عظيمتين بحيث ارتفع كالصاروخ في الهواء ، وأنا أدور حول نفسي . ثـم أعود ثانية الى السريـر الريشي ، في حين تنفجر هي في عاصفة من الضحك :

- خذها ، ايها الجني الصغير! انك تستحقها!

كانت تصلي طويلا في بعض الاحيان ، فأنام دون ان انتبه اليها عندما ترد السريسر ...

كانت أيام المتاعب والشبجار والمقتال تنتهي دوما في مثل هذه الصلوات الطيبة ، مكنت أصغي بانتباه واهتمام الى جدتي تحدث الرب بكل تفاصيل حوادث النهار . كانت تجثو كالهرم ، وتبدأ صلاتها بهيس سريع مبهم ، بعلو شيئا فشيئا حتى يصبح دمدمة عميقة :

- انت تعرف ، يا الله ، أن كل انسان يسمى وراء مصلحنه الخاصة، وذلك أمر طبيعي جدا . أن ميخائيل الآن هو ولدي البكسر ، معليه يقع أذن

واجب البقاء في البلدة هنا ـ وانها لاسماءة اليه أن يبعث بسه عبر النهر الى مكان جديد لم يختبره أحد من قبل ، وليس من يدري كيف يمكن أن يخرج منه ، ولكن الاب يفضل ياكوف عليه ، أمن المعدل أن يحب الاب أولاده بصورة غير متساوية ؟ أنه خلوق عنيد ، ذلك المعجوز ! وأنك لتعمـل خيرا أن وهبته بعض المعتل ، يا المهمى!

كانت تشخص الى الايقونات المظلمسة الدامسة بعينيها الواسعتسين البراقتين ، وهي تتابع تقديم نصائحها لالاهها الذي تعبده .

- هلا جعلته يحلم حلما طيبا ، يا الهي ، فتعلمه كيف يقسم حبه بين ولديه بصورة متساوية عادلة !

وكانت ترسم اشارة الصليب ، ثم تنحني حتى تمس جبهته العريضة السجادة ، ومن ثم تعاود كلامها باقتناع ، وهي تنهض :

- ولم لا ترسل من لدنك لفارفارا قليلا من الفرح ؟ مساذا فعلت حتى تغضب عليها ، يا الهي ؟ اهي اسوا من الاخرين ؟ ومن سمع عن امراة صبية قوية تعيش في مثل هذا البؤس ؟ وثم جريجوري يا الهي - احفسظ له عبنيه اللقين تسوءان بوما بعد يوم ، فان هو امسى فاقد النظر ، فمساذا يتبقى له سوى المتسول في المطرقات ؟ وهل يكونذلك من العسدل في شيء ؟ هو الذي يغني قوته كلها في اعمال ذلك الجد . . . ولكن ، هسل يساعده الجد ان فقد النظسر ؟ . . 7 ه يا الهي ، يا الهي العزيز !

ثم تظل صامتة برهة طويلة ، وقد احنت راسها ، وارخت ذراعيها وكأنها غرقت في النوم ، او تصلبت اطراغها وتجمدت . . . وتقسول اخبرا ، وهي ترف بجننيها :

- وماذا ايضا ؟ كن رحوما بكل الاتقياء! وسامحنسى ، أنسا الحمقساء الملعونة! اثنت تعرف جبدا انني اذا ارتكبت الخطيئة معن حماقة ، وليس عن خبث وتعمد للشر .

ثم تند عنها تنهدة عميقة ، وتقول بقناعة لطيفة :

ــ ولكن ، ليس هناك شيء يخفي عليك ، يا الهي العزيز ! غانت تعرف كل شيء ، ايها الاب المجــد !

كنت مولما جدا باله جدتي ، هذا الذي يبدو قريبا وعزيــزا لديها ... وكنت اتو للهــا :

ـ حدثيني عن اللـه . . .

كانت لها طريقة خاصة في التحدث عنه ، فتجلس ، وتفلق عينيها ، وتتحدث بصوت مخفوض ، وهي تتفوه بكلماتها بغرابة فائقة ، وما زلت اذكر ، حتى الان ، كيف كانت تستعد لذلك ، فتقتعد السرير ، وترمي بمنديل على راسها ، وتأخذ بنسج تصتها الخيالية حتى ابخبخ في النوم :

_ ان الله يجلس هناك غوق هضبة عالية ، محوطا بجنان الفردوس. انه يقعد على عرش من الياقوت تحت اشجار الصغصاف الغضية ، اشجار نظل مزهرة طوال السنة ، لانه ليس في الفردوس شتاء ، ولا خريف ، بل تقى الورود مبرعمة دوما على مر السنين ، تجلب الغبطة لاتقياء السماء ، وحول الرب يطير حشد من الملائكة _ يحومون كقطع كثيفة من الثلج ، أو كجماعات من المنحل بل قل انها اسراب من الحمام الابيض تطبر من للمماء الى الارض ، ثم تعود من الارض الى السماء لتحدث الله عنا ، نحن المخلوقات التي تعيش في المالم الاسفل . . أن لكل منا ملاكه الخاص _ غلك ملاكك ، ولي ملاكي ، ولجدك ملاكه _ لان الله سواء بالنسبة الى جمبيم مخلوقاته . . . ياتي ملاكك مثلا الى الرب ، ويقول له :

- « أن الكسى أخرج لسائه لجده .
- « وعندئذ يصدر الرب أو امره :
- « ــ مليجلده الرجل الشبيخ اذن!
- « وهذا ما يحصل لكل غرد ولكل شيء دون تغريق . . كل ينال حسب ما يستحق ـ . التعاسة للبعض ، والغرح للاخرين ، وكل هدذا بحدث بشكل رائع سحيث تأخذ الملائكة تصفق باجنحتها بسرور ، وهي ترتل دوما :
 - « المجد لك يا الله ، المحد لك في العسلا!
 - « بينها يتطلع الله حوله ، وهو يبتسم ، وكانه يقول :
- « حسنا ، تابعي انشادك ايتها الملائكة الجميلة ما دام ذلك يسرك!».

(0) To

وتبتسم جدتي ، وهي تهز راسها ...

ـ ارایت هذا کلـه ۱

متجيب مؤكدة:

- كلا ، انا لم اره ، ولكنني اعرفه ...

كانت ، كلما تحدثت عن الله والفردوس والملائكة ، تغدو صغيرة انيسة، ينقد وجهها آثار الشيخوخة ، وتلتمع عيناها النديتان بنسور دانميء خاص ، فأتناول ضفائرها الثقيلة والف بها عنقي ، وانسا أجلس دون حراك ، يرقص فلبي طربا لتلك الاقاصيص التي لا اشبع منها أبدا .

لقديبسون وحدهم يستطيعون ان يروا اليه بعيون مفتوحة ، ولكنني رايت الملائكة ، فهم يظهرون للانسان الطاهر القلب ، لقد كنت في الكنيسة أحضر خدمة الصباح ، فرأيت اثنين من الملائكة في الهيكل سكانا يشبهان الضباب ستسطيع ان ترى كل شيء من خلالهما ، يلمعان كالبرق ، واجنحتهما تبلسغ الارض ، كلها دنتلة وحرير ، وراحا يسدوران حول المذبسج يساعدان الاب المعبوز ايليا ، غاذا أراد رفع ساعديه المتعبين للصلاة السرعا لمعونته وسندا مرفقبه ، كان شبخا ضريرا ، حتى ليتعثر بكل شيء ، ثم مات بعد ذلك بزمن تصير ، ولقد اغتبطت كثيرا ، ورؤيتي لهما حتى صعقت مسن الفرح ، والمني تلبى كثيرا ، وتخلصت عيناي بالدموع ، . . آه ، كم كان ذلك رائعا الكم هي جميل أيضا كل شيء هنا على الارض ا

- حتى هنا ، في بيتنا هذا ؟

مُأجابت جدتي ، وهي ترسم أثمارة الصليب :

- نعم ، في كل مكان ! المجد للعذراء النتول!

حيرني ذلك الجواب ، وادهشني ، وصعب علي جدا أن الهم كيف بسير كل شيء على ما يرام في بيتنا ، حيث تزداد العلاقيات سوءا وتوترا يوما بعد يسوم .

وأنا أذكر أننى مررت بالقرب من باب غرفة خالى ميخائيل ، وكان مفتوحا ، غرايت الخالة ناتاليا ، مجللة بالبياض ، تدور في الغرفة وقد ضمت

يديها بقوة الى صدرها ، وهي تهتف بصوت مخفوض يبعست على الخكوتي ، الرهبة :

أواه يا الهي خلصني من هنا خذني اليك

ولقد فهمت ما تريد بصلاتها ، كما أنهم جريجوري عندما يفهم :

ــ سأمضي وأتسول عندما أصبح أعمى ، وسأكون عندئذ أنضل منى منا ا

كنت أود أن يصبح أعمى في أقرب وقت حتى أضحي دليله ، غندهب معا لنجوب المعالم ، نتسول لنعيش ونحيا . ولقد أغضيت له ذات يوم بامنيتسي هذه 6 فسحك في لحيته وقسال :

- حسنا ، سنذهب معا ، وسأصرخ في الشوارع بحيث يسمعني جميع الناس : هذا هو حفيد فاسيلي كاشرين ، صاحب معامل الصماغ ! وسيكون ذلك مضحكا ، اسمه ؟

وكثيراً ما لاحظت تورما في شمغتي العمة ناتاليا ، وعلامة سوداء وزرهاء تعلو وجهها الاصغر اللون. ، نسالت جدتي مسرة :

ـ ترى ايضربها خالسي ؟

فأجابت ، وهـن تتنهـد:

- انه يفعل ذلك خفية ، لعنة الله عليه ! لقد منعه جدك عن ذلك ، ولذا فهو يضربها ليلا . انه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع الحديث ، متحمسة لقصتها :

- ولكنهم لا يضربون في هذه الايام كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي . لقد غدا الناس اليوم الل منهم وحشية بالامس! نعم ، انهم يضربون في بعض الإستان ، أو الاذان ، أو الرأس ، مدة دقيقة أو دقيقتين ، وهذا كل شيء . . . ولكنهم كانوا قليلا يعذبون ضحيتهم طوال ساعسات كاملة! لقد ضربني جدك مر أ ، في اليوم الاول من المصح ، منذ صلاة الصباح الباكرة حتى غروب الشمس حكان يضربني ، ويأخذ قسطا من الراحة ، ثم بعود الى الضرب ثانية . . وكان يضربني بلجام الغرس ، أو بالحبال ، أو يأي شمىء اخريت في متفاول يده .

- ولىم ذلك ؟

- لا استطيع أن اتذكر الان . لقد ضربني مرة حتى أمسيت نصف ميتة ، ثم حرمني من المطعام خمسة أيام - وباعجوبة نجوت من الموت في تلك المرة ومرة الحسرى

أذهلتني هذه الوقائع ، مان جدتي تكبر زوجها مرتين حجما ، ولسم استطع ان أتصور كيف يتغلب عليها . . . سالت :

- اهو اتوى منك كثيرا ؟

- کلا ، لیس اتوی ! بل اکبر سنا ! والی جانب ذلك نهو زوجه ! وقد اراده الله ان یتکفل بی ، وارادنی علی تحمل ذلك .

كنت احب أن أراقبها تمسح الغبار عن الايقونات وتنظله ثناياها . كانت أيتوناتنا متقنة الصنع ، غالية ، مزخرفة باللاليء والاحجار الكريمة ، ومرصعة بالفضة ، وكانت جدتي تقبض عليها بأصابع ماهرة ، وتغمغم وهي ترسم اشارة الصليب وتقبل الصور :

سيا لها من وجوه حلوة! كيف يمكن للغبار والاتربة ان تغطيها أيا أم الاله الكثيرة الحنان ، المائقة البركات المجيدة ، يا منبع الغبطة التي لا توصف! انظر هنا غقط ، لكم هو جميل هذا الرسم ، يا اليوشيا ، يا حمامتي الحبيبة! انها وجوه لطيفة ، ولكل ميزاته الخاصة ... فهذا يدعى « العسيد الاثني عشرى » ، وهذه « فيودور فسكيا » تقف في الموسيط سيانها سيدة لطيفة وهذه « لا تبكي يا اماه بالقرب من قبرى! » .

كان يخبل الى ، في كثير من الاحايين ، انها تلعب بالايتونسات بجسد وسذاجة ، تماما كما كانت تفعمل ابنة خالسي الصغيرة كاترينما بدمياتهما الناعمسة . .

وكثيرا ما كانت ترى بعض الشبياطين ، أن المرادا أو جماعات ...

حدث ذلك في احدى الامسيات اثناء الصيام الكبير ، وأنا اقطسع الدرب منزل آل رودولف حكان كل شيء يلمع في ضوء القمر . . وعلى

حين غرة ، بصرت بشيطان يتسلق المسطح بالقرب من الدخنة ، كان كبيرا . خشنا ، وقد دلى قرنيه داخل المدخنة ، وهو يتنشق وينفخ بمنخريه ، ويضرب بذيله على السطح ، ويحاول ان يخفي ذنيه الكبيرتين مفرسمت اشاره الصليب، وقلت : « سينهض المسيح ثانية ليميت اعداءه جميعا ! » مصرخ مجأة بصوت عال ، ثم تدحرج حتى الساحة ك لقدقتله ذكر المسيح ! ومما لا ريب ميه ان عائلة رودولف لم تلتزم الصيام ذلك النهار ، مكان الشيطان يستنشق رائحة الطعام المطبوخ مغتبطا . . .

راقت لي صورة الشيطان يتشقلب حتى الساحة فانفجسرت ضاحكا ... وضحكت جدتى بدورها ٤ وتابعت :

ـــ وانهم ليحبون ، مع ذلك ، اللهو واللعب ، فهم أشبه بالاطفال الصغار تهاما ، خبثا ، يتعشقون المداعبة ، وقد حدث ذات ليلة ، وأنا أغسل مي حمام المنزل ، والسماعة تقارب منتصف الليل ، أن فتح بساب الموقد بغتسة وخرجت الشياطين منه - صفارا أقزاما - بعضهم أحمر اللون ، وبعضهم خضر ، ويعضهم اللود كالصرامير . . . فيركضت أبغى الباب ، ولكنهم لم يتركوني اجتازه ، مقد سدوا الطريق على ! وهكذا أصبحت حبيسة مع اولئك الشياطين ، وكانوا يعدون بالملايين ، يملأون غرفة الحمام - متراكمين تحت غدمي ، وفوق ساتي ، يقرصونني ، يعضونني ، ويلدغونني ، حتى لم أعد استطيع ان ارسم اشارة الصليب لارغمهم على الهرب ، لقد كانوا ناعمين دافئين ، يغطيهم وبر طويل ، يشبهون في ذلك المقطط الصغيرة ، يتغزون دوما على ارجلهم الخلفية ، يسدورون ويتقلبون على الارض ، ويكشرون عسن اسنانهم الشبيهة بأسنان الغيران ، تومض اعينهم الصغيرة الخضر ، وهم يموجون رؤوسهم حيث برزت قرونهم ، ويهزون أذنابهم الصغيرة الشبيهسة بأذناب الخنازير . . . يا الهي ، أية ساعة قضيتها يومذاك ! لقد نقدت نعم غقدت شعوري ! وعندما استعدت صوابي كاتت الشمعة قد احترقت كلها تقريباً ، والمياه قد بردت ، والمثياب المفسولة ملقاة على الارض . نقلت في نفسى : « تغو ! . . اخذك الطاعون ، أيتها الشياطين اللعينة ! » .

واغمضت عيني ، فاستطعست أن أرى الى باب الموتسد ذي الحجسارة

الرمادبة اللون يفتح ، ويتدحرج منه سيل من الشياطين يتقلبون على الارض ويملأون غرفة الحمام ، ينفخون على الشمعية ، ويمسدون السنتهم الحمراء الوسخة ، كان ذلك مسلا ومرعبا في وقت واحد ،

حكت جدتي راسها ، وظلت صامنة برهة ، حتى التولست عيلها حمى جديدة من الخيال :

- ولقد شاهدت ايضا بعض الذين حلت عليهم اللعنة . كان ذلك ني نيلة شتائية شديدة الاعصار ، وأنا اجتاز خندق عائلة دوكوف ، حيث أراد خالاك ميخائيل وياكوف ، كما اخبرنك مرة ، أن يرميا والدك الى الماء من نموهة في الجليد ، كنت ، اذن ، ذاهبة الى هناك ، وانا اقطع المهر المفضي الى قاع الخندق ، فاذا بي اسمع نجاة صوت صغير وصراخ حاد ، ا فتطلعت ، غلقيت عربة صغيرة تجرها عدة جيساد سوداء تعسدو في اتجاهي ، وقسف سائقها ــ وهو شيطان صغير مدور الجسم يلبس تبعة حمراء ــ على كرسيه ملدا ذراعيه ، وراح يسوق المخيول التي يربط لجامها بعدة سلاسل صغيرة بدلا من العنان . ولما لم تستطع الخيول ان تمر عبر الخفق ، اخدت طريق المبحيرة مثيرة سحابة من الثلج وراءها ... وكسان ركاب العربة مسن الشياطين أيضًا ، يصغرون ، ويصيحون ، ويلوحون بقبعاتهم . . وقد مرت بالقرب منى سبع عربات تسرع كالقطار ، وخبولها سوداء ماحمة كالليل ، وجميع الذين تحملهم قوم ملعونون من ابائهم وامهاتهم ! أن هؤلاء القسوم غنيمة باردة للشيطان ، فتش عنهم ، واركبهم تلك العربسات ، وسار بهم اثناء الليل ليشركهم في احتفالاته . . . اظن اني شاهدت عرسا للشياطين في ذلك المساء ...

كانت جدتي تتحدث ببساطة واقناع بحيث يسمحيل عدم تصديقها ... ولكنها كانت تتجلى خاصة في القصائد التي تحفظها عن العذراء الطاهرة ، والتي تروي كيف سارت ام الاله فوق الطريق الشائكة في هذا العالم لتحذر «الاميرة الملصة» ، نيجاليشفا وتردعها عن السرقة وقتل الروسيين ، وكانت تنشد ايضا شعرا عن «الكسي رجل الله» وعن «ايفان المحارب» ، وتروي قصصا عن «الحكيمة فاسيليا» ، وعن «الكاهن تيس الماعز» ، وعن «مربب الله» ، وخرافات مخوفة عن «مارفا بوسادنيت ري» ، وعن

« بابا اسطه » زعيم اللصوص ، وعن « مريم » المخاطئة المصريسة ، وعن حزن والدة اللص »! . لقد كانت مؤونتها من القصص والخرافات والشعر لا تنضب البتة ولا ينقطع لها اوار . . .

لم تكان تخاف من الناس ، بما فيهم جدي ، او الشياطين ، او اي سحر اسود آلخر . . . لكنها كانت تخاف الصراصير المي حد غريب ، تتجنب وجودها حتى عن بعد بعيد . . وكانت تبعثني من النوم ، في اغلب الاحيان ، في منتصف الليل ، وتهمس في اذني :

- يا عزيزي اليوشا ، هناك صرصاريسرح! اقتله ، حبا بالمسيح!

فكنت اشمل الشمعة ، وانا نصف مستيقظ ، وادب على الارض ، على اربع ، اغتشى عن ذلك العدو اللدود ، ولكن محاولاتي لم نكن تنجح دوما ، غاتول لها:

ــ لم اجد شيئــا ا

قتروح تلك حيث تضطجع دون حراك ، ثم تغمر راسها باللحاف :

ــ اوه ، نعم انه موجود ! تابع صيدك ، اربجوك ! انه هناك ، انــا اعرف ذاــك ؟ . . .

كانت على حق دائها ، اذ اقع على احد الصراصير تجول بعبدا عن السربير:

_ المتله! التتله ؟ آه ، شكرا لله !، وشكرا لك ، يا غرامي!

كانت تقول ذلك ، وترمي اللحاف عن رأسها ، وهسي تبتسم ابتسامة السيعادة والمغبطة . اما اذا اخفتت في العثور على الصرصار ، نهي لا تذوق اذن طعها للنوم على الاطلاق .

كنت احس جسدها يرتعش بوضوح في سكون الليل وهداته ، واسمع الى همسها وهي تتنفس بضعف ووهن :

ــ انه هنالك ، قرب الباب . . . هو الان تحت الصندوق ٠٠٠

ــ لم تخانين من الصرامسر ؟

متتول ، في جوابها ما يكفي من الاقتفاع :

- واية غائدة لها ؟ انها تهيم هنا وهناك في الغرغة ، هسده الشياطين السود ، وهذا كل شيء! لقد اعطى الله ، حتى لادنى مخلوقاته ، هدغا غي الحياة ، فالمخنفساء تدل على أن في البيت رطوبة ، والبق يبرهن على وساخة المجدران ، واذا ما عثرت على قملة في طيات ثيابك فهذا يعنسي انك ستقع مريضا ، كل هذا واضح ، اما هي سفون يستطيع أن يخبرني ما هي فائدتها، وأي حق لها في الحياة ؟

• • •

حدث ذات ليلة ، بينما جدتي جائية على ركبتيها ، مشتركة مع المله في حديث جماسي ، ان دمع جدي الباب على مصراعيه ، وصاح بصوت اجش :

- هيا يا اماه ، انه المتقاد من الله ! هيا ! ... اننا نحترق !!

- فصاحت ، وهي تناضل للوقوق على قدميها :

سـ مسادًا ؟

وأندفعت وجدى يصخبان في ظلمة الرواق الفسيح ...

شرعت تصدر اوامرها بصوت مال رزين :

ــ انزلي الايتونات ، يا ينهجينيا ! وانت يا ناتاليــا ، البسي الاطفــال ثيابهــم !

وبكى جدي ، وطفق ينوح:

... I a _ a _ a T _

مركضت حتى المطبخ . . . كانت النواغذ المطلة على الساحة تلتمسع كالذهب ، وبقع صفر تتدحرج على الارض وتسيل ، والخسال ياكوف يدفسع بقدميه الحافيتين في حذائه ، ويقفز عاليا كأن تلك البقع تحرق نعليه . . صاح: _ آه ، وان ميخائيل قد اضرم المنار . لقد شعفنا بها وهرب . . . ندنعته جدتي خارج الباب حنى كاد يسقط على الارض ، وقالت : _ صه ، ايها الوغد ؟

كنت استطيع ان ارى ، من خلال الجليد الذي يغطي زجاج النوافذ ، الى المعمل وهو يحترق ، والى المسئة النيران تنطلق من خلال الباب المفتوح على المصراعين . وهذه شبهب حمر من النار تلتمع ، وهي تبعث دخانها الاسود في ذلك الليل الساكن فيتجمع غيوما تعلو وتعلو في الفضاء ، دون ان تعكر آثار « درب التبان » الفضي ، وهذا الثلج يتورد بانعكاس الشعاعات الارجوانية عليه ، وجدران المنزل تهتز وتترنح فكأنها تسعى مبتهجة الى زاوية الساحة حيث تلعب النار ، فتضيء بالحمرة الشبقوق العريضة المائمة في جدران المعمل ، وتدفع بالسنتها الملامعة الملتوية من خلالها . وهذه شرائط حمر ذهبية تنزلق بسرعة فوق اخشاب السقف الجافة ، تضيع بينها المدخنة الضيقة المصنوعة من الصلحبال وهي تصب في المجو ينبوعا رفيعا من الدخان، وطقطقة ناعمة لطفة ، اشبه باحتكاك الحرير ، تند عن زجاج النافذة . وقد شرعت النار تشتد ، وراح رونقها يضيف على المعمل جمالا يجعله اشبه بالايتونسطاس في الكنائس ، فيجذبني اليه بقوة لم استطع مقاومة لاغرائها وفتونها .

رميت معطفا سميكا من جلد الماعز فسوق راسي ، ولبست اول حسذاه وقعت عليه ، ثم اسرعت في المرحتى عتبة الباب حيث وقفست مذهولا سوقد غشى بصري لهيب النيران ، وصم سمعي صوت تأججها ، وصيحات جدي ، وخالى ، وجريجوري ، ، ، وارتعت من تصرف جدتي ، اذ المت بكيس فارغ على رأسها ، ولفت نفسها بحسرام سميك نكسو بسه الخيسل عادة ، واندفعت داخل المعمل المتأرث وهي تصيح وتزعق :

- حامض الكبريت ، ايها الحمقى ! ان حامض الكبريت سيلتهب ! وصاح جــدى :

- اوقفها ، يا جريجوري ! اوه ، لقد قضى عليها ! . .

ولكن جدتي رجعت سريعا ، والدخان ينعقد غوق راسها ، وقد اندنت تحت ثقل اناء حامض الكبريت الكبير ، وصاحت بصوت اجثس ، وهي تسعل:

- اخرجوا الحصان ، يا ابتاه ! واسحبوا هذا الشيء عني - الا ترون انني احترق ؟

به نانتزع جريجوري حرام الحصان المحترق عن كتفيها ، ثم اختطف معولا وانحنى يهشم الكبية الضخمة من الجليد المتراكمة على باب المعمل ، ويلقي بها في جوف النار ، وخالي يقفز حواليه وفي يديه فأس كبيرة ، وانطلق جدي في اعقاب جدتي يرميها بالثلج ، وهي تدفن اناء حامض الكبريت في كومة حن الجليد ، وعندما انتهت ، اسرعت تفتح بوابة الساحة ، ، ، وصاحت هناك ، وهي تندني للناس الذين قدموا اليها يركضون ؛

- انقذوا مخزن الغلال ، أيها الجيرة ! ان النار ستمتد حتى مخرون الغلال ومخزن العشب المجنف - ان ما بنيناه سيحترق عن آخره ، وسيجيء دوركم بعدنا ، انزعوا الستف وارموا الاعشاب داخل المحديقة ! وانت يا حريجوري ، انثر المثلج عاليا - فاي نفع نبيه على الارض ؟ وانتياياكوف ، كفاك ركضا ، اعط القوم معاول وغؤوسا ! أيها القوم المطيبون ، ساعدونا ، وليكن الله معكم !

كانت جدتي وقد اضاءتها شمعلات اللهب التي تلوح امامها ، نتجول كذيال اسود في الساحة ، نهبي في كل مكان في تلاحظ كل شيء وتصدراوامرها للجميع على حد سواء .

وركض ساراب داخل الساحة ، ثم شب على قائمتيه الخلفيتين ، فطرح جدي بقدميه على الارض ، كانت عيناه المدورتان تشمان حمسرة بانعكساسس لهيب النيران فيهما ، وراح يقفز ، وهو ينفخ بمنخريه ، ويحرن ، ويشب فلي عنف حتى افلت له جدي اللجام وابتعد عنه هاربا ، وهو يصيح :

_ امسكيه ٤ ما ارساه ١

غرمت جدتي بنفسها تحت قوائم ذلك الحصان الجامسح ووقسف دون حراك ، وقد فتحت له ذراعيها ، فصهل الحصان متألما وهسداً ، وهو يرنسو بنظرات مسترقة الى النار الداخنة ، قالت جدتي في صوت عميق ، وهي تربعت على رقبته وتأخذ اللجام بكلتا يديها :

ــ لا بخف! التخلى عنك في مثل هذه اللحظة المرهيبة ؟ انست ، ايهــا الفار الصغير الطائش ؟

خراح ذلك الغأر الذي يكبرها بثلاث مرات يتبعها بلطف وخنوع حتى

البوابة ، وهو بصهل كلما تطلع الى وجهُها المتورد .

وخرجت المربية يفجينيا مع الاطفال من المنزل ... كانسوا ، جميعا ، مدثرين بالاحرمة يدمدمون باشياء غير مفهومة ... صاحت :

_ اني لم استطع العثور على الكسي ، يا غاسيلي غاسيليفينش !

فأختبات تحت درجات الباب حتى لا تحملني بعيدا مع الاخرين ، في حين صاح جدي بها :

_ دعینا ، دعینا !

وانهار ستق المعهل مخلفا مكانه عاصفة من الدغسان استمسرت زمنا طويلا تنطلق باستقامة نحو السماء . وجاءنا من داخل البناء انفجار من النار احمر اللون ، تبعه آخر اخضر ، وثمة اخر ازرق ، اندلعست جميعا مسن الساحة في اتجاه جمهرة المقوم الذين يحاولون اطفاء ذلك اللهب الهائل بنثرهم الثلج عليه . وشرعت الاحواض تغلي ثائرة وتفور ، وهي تبعث بسحب من الدخان والابخرة فتملأ الساحة برائحة غريبة ، وتجعل الدموع تترقرق في الميسون .

خرجت من حيث اختبات وارتميت بالقرب مِن قدمي جدتي ، فصاحت :

_ امض من هنا! والا دهسوك! ابتعد ٠٠٠

ودلف الى الساحة خيال يلبس خوذة معدنية واسعة ، يعلو الزبد نم حصانه الاشتر ، وطنق بلوح بسوطه ويزعق متوعدا :

_ المسحوا الطريق !

وارتفع رئين اجراس صغيرة عديدة تدق مبتهجة ... كان كل شيء جميلا ومسليا كما في ايام الاعياد والافراح ... ودفعتني جدتي من قسرب الماك ٤ تأثلية :

_ الم تسمعنى ؟ قلت لك امض من هنا !

كان يستحيل ان اعصيها في مثل تلك اللحظة . رجعست الى المطبخ ، وجلست الى الناس كانت وجلست الى النافذة مرة ثانية . ولكن تلك الجموع السود من الناس كانت تختفي احيانا ، واحيانا تخفي على مسرح النار فلا استطيع ان ارى الا لمعان الخوذ المعدنية وهي تنبتل بين تلك القبعات الشعائية السوداء .

اخمدت النيران سريعا بحصرها في منطقة واحدة وصب المساء عليها .

وفرقت المسرطة الجماهير المزدحمة . وعندما انتهى كل شيء رجعت جدتى ادراجها الى المطبخ ...

ــ من هناك ؟ انت ؟ الم تنم ؟ هل انت خائف ؟ لا تخف ! لقد انتهى كل شيء الان !

جلست بجانبي تتأرجح الى الامام والخلف دون ان تنطق بحرف واحد . كنت سعيدا بان يستعيد الليل هدوءه وظلمته . ولكنني كنت ، في ذات الوقت، آسف على خسارتى مشهد النار . . .

وظهر جدى على العتبـة:

F 0 ----

_ مسادا ؟

۔ هل احترقست ؟

ــ لاشىء يذكــر ...

اشعل عود كبريت ، خاضاء لهبه الازرق وجهسه السنجابي المطسخ بالدخان . واشعل الشمعة الموضوعة على الطاولة ، ثم قبسع بالقرب من جدسي ، قالست :

ـ يجب ان تغتسـا، ا

كانت مغطاة هي الاخرى بطبقة كثيفة من الهباب . .

وتنهد جدي :

- ما اعظم رحمة الله اذ وهبك كل هذا الذكاء!

ضربها بلطف على كتفها ، واضاف وقد انفرجت اسارير وجهه :

- اعني انه يعبك اياه للحظات تصيرة ، وفي نوبات متباعدة ، ولكنه يرسله على ايسة حسال ! ...

مضحكت جدتي بدورها وارادت أن تقول شيئا لكن جدي قطب وجهه ، وتابسسع :

_ يجب ان نتخلص من جريجوري ، نكل ما حدث كان بسبب اهماله . ان هذا الموجيك لم يعد يصلح لشيء . اليك ياكون الذي يبكي عند العتبة . يا لمه من احمق ! يحسن جدا ان تخرجي اليه . . .

منهضت وخرجت ٠٠٠ وقد رمعت يديها تنفخ على اصابعها ١٠٠٠

سال جدي ، دون ان يتكلف التطلع الى :

_ أرأيت الحريق منذ بدايته ؟ حسنا ، ما رأيك بجدتك هذه ؟ لا تنس انها أمرأة عجوز . . . محطمة . . . منهارة . . . - أن في هذا لدرسا لك ، وللجميع أيضًا _ تفسو!

وانطوى على نفسه ، وظل صامتا بعض الوقيت . ثم نهض واتفا ، واطفأ لهبب الشمعة باصابعه ، وهو يسال :

_ اخف ت ؟

! <u>}___</u>

- حسنا ، فلم بكن هناك ما يستوجب الخوف .

ونزع عنه تميصه بحركة ساخطة ، ومضى الى المفسلة الموضوعة في زاوية المطبخ ، وضرب الارض بقدميه وصاح :

_ الحريق ! تلك حماقة كبرى وربى ! والذي يحدث حريق نهي بيته بجب ان يجلد في الساحة العامة كمجنون او لص ! هذا ما يجب ان يفعلوه مع مثل هؤلاء الناس ، وحينئذ بمتنع الحريق تماما ! . . . عد الى سريرك ، نما نقاؤك هنا ؟

اطعت امره ، ولكن النوم هرب عن جهني في تلك الليلة . ولم اكد ازحف الى السرير حتى رددت الى الحباة بصراخ لا انساني ، فركفت، مرة ثانبة، عائدا الى المطبخ ، حيث وجدته واتفا في وسطه وقد خلع قميصه ، وحمسل شمعة مرتجمه الشعلة ، وهو ينقل قدميه دون ان يتحرك من مكانه قيد انهلة .

تسال لاهتسا:

- أماه ، ياكوف ، ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

مقفزت موق الموقد ، وتكورت في زاويته . ومرة ثانية عاد كل ثسي، الى ما كان عليه من بلبلة واضطراب اثناء اشتمال النار . وكان المعويل يصطدم

بامواج منتظمة على الجدران والسقف ، وهو يزداد ارتفاعها ولجاجة ، ، ، وراح جدي وخالي يركضان هنا وهناك كالمجانسين ، وجدتي تطردهما خارج المطبخ وجزيجوري يحدث ضجة صاخبة بالاخشاب التي يلقيها في الموقد ، ثم راح يملأ بعض الغلايات بالماء وهو يهز رأسه كاحد جمال استراخان ،

امرت جدتسى:

ــ اشعل الغار اولا!

فتسلق جريجوري الموقد بلطف ، فوقع بصره على قدمي ، فاذا به يميح مرتاعها :

ــ من هناك ؟ تفو ، لقد ملاتني رعبا ! أنت تنطرح دائما حيث لا حاجة اليك على الاطلاق .

-- ماذا هنداك ؟

ماجاب بهدوء ، وهو يرجع الى الارض:

ــ ان الخالة ناتاليا تلــد !

فتذكرت أن والدتي لم تصرخ هكذا يوم وضعت . وحين رفع جريجوري الغلايات على الموقد ، تسلقه حتى صاقباني ، ثم اخرج من جيبه غلبونا من الخزف . قال ، وهو يريني الغليليلين :

ــ لقد بدأت ادخن لان فيذلك شفاء لعيني ، وجدتك تنصحني ان استعبل المعوط ، ولكنى اعتقد ان التدخين احسن وافضل . . .

جلس ، وقدماه مدليتان غوق حافة الموقد ، يشخص الى ضوء الشمعة الخافت ، وقد تلوثت أذناه وخداه بالدخان الاسود ، وتمزق قميصه ، بحيث رايت الى اضلاعه وهي تبرز وتغور ، وتشققت احسدى زجاجتى نظارتسه السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فتركت فرجة يستطبع المرء ان برى منها الى عينه الحمراء التي تبدو كجرح مفتوح يدمي .

وملاً غليونه مورق التبغ ، وراح يستمع الى انين تلك المراة الماخض ، وهو يتمتم لنفسه كما لم كان ثمسلا :

سيبدو ان النسار نالت جدتك على اية حال ، ترى ، كمف ستدبر المسر نوليد خالتك ؟ قل لمى ، هل سمعت كيف قضت خالتك نهارها ؟ لقد نسوها

تماما لقد شرعت في الانين منذ بدء الحريق ، وقد أوجعها المضوف كثيرا . . . انظر فقط كم يصعب حمل مخلوق جديد الى هذا العالم ! ومعذلك ، فان احدا لم يلق بالا الى تلك المرأة . ان المراة يجب ان تحترم ع فهي أم ، وهذه هي الحقيقة ، فلا تنسها أبدا .

غفوت برهة من الزمن ايقظني بعدها صرير الباب ، وصيحات الخال ميخائبل السكران الملتخ ، ثم صوت جلبة عامة شاملة . . . وتناهبت الى سمعى كلمات غريبة منها:

ــ يجب ان تفتح الابواب الملوكية في الكنبسة . . .

- اعطها بعض زيت الايتونة والروم ، واخلطهما بالهباب : نصف قدح من الزيت ، ونصف قدح من الروم ، وملعقة من الهباب . . .

وتابع الخال ميخائيل صيحاته:

__ أريد أن الملى عليها نظرة ٠٠٠

كان جالسا على الارض ببصق أمامه وقد مد رجليه المنفرجتين ، وراح يضربهما بكلتا يديه . واصبحت الحرارة لا تطاق على الموقد ، فأسرعت بالهبوط عنه . ولكنى لم أكد اقترب من خالى حتى لبطني بقدمه فأوقعنى على الارض ، واصطدم رأسى بها . . . صرخت :

_ احمــق !

نموثب على قدميه ، واختطفنى ، ثم أرجعني في المهواء وهو يغمغم :

_ ساحطمك على الموقد!

وعندما استعدت صوابى كنت مضطجعا على ركبتى جدى في الصالون الكبر . كان تابعا في زاوية الايتونات ، بهدهدنى الى الامام والخلف ، وعيناه مثبتتان في السقف ، وهو يجمجم :

ــ لن ينال احدا منا المغفرة ، ولا واحدا أبدا ...

كان لهيب الايقونات بحنرق بقوة فوق رأسه ، وفي وسيط الغرفة ، على الطاولة ، شمعة مضاءة . . وهناك صباح شبتائي مكنهدر يطل علينا من النافذة .

سالني جدي ، وهو يحنو علي :

- ماذا يؤلمك ؟

كان كل شيء في يؤلني ، فرأسي مبلسول ، وجسدي يشبه الرصاص وزنا . ولكنى لم ارغب في التحدث عن ذلك . كان كل ما يحيط بي غريبا غير معهود . فهناك جمهور من الناس غير المألوفين لدي يشمغلون عدة مقاعد في المغرفة ـ وهذا كاهن في حلة ارجوانية اللسون ، وهناك شيخ اشهسب الشعر يضع نظارة ويلبس بزة عسكرية ، وهناك عدة اشخاص اخرين يجلسون بدون حراك ، وقد جمدهم البرد ، فهم اشبه بتماثيل من الخشعب ، يسمعون في سكون الى غليان الماء في مكان ما عن قرب . . . وكان خالى ياكوف يقف منتصبا قرب الباب ، وقد وضع يديه خلف ظهره .

قال جدي:

- تعال أحمله الى سريره ، يا ياكوف .

غاوماً خالى الى ، فمضينا على رؤوس اصابعنا حتى وملنا غرفة جدتى . . همس الخال في أذنى ، عندما تكورت على السرير :

ــ لقد تونيت خالتك ناتاليا ...

غلم يدهشني ذلك _ لانها ظلت مدة طويلة لا تظهر في أرجاء البيت _ ولا تذكل المطبخ ، بل لا تقترب الطاولة لتناول الطعام .

۔۔ این هي جدتــي ؟

غاجاب ، وهو يحرك يده:

_ هناك ، تحـت !

ثم رجع مثلما جاء ، يسير على رؤوس اصابعه الحافية . . .

اضطجعت على السرير اتطلع حولي تلقا . وراحت تتراءى لي ، على زجاج النائذة ، عدة وجوه شائبة الشعر . كان ثوب جدتي معلقا في الزاوبة نوق المسندوق ــ كنت أعرف هذا ، ولكن الثوب بدا لي وكأنــه مخلوق حى بتربص هناك بين الظلال ، غخبأت رأسى تحت المخــدة ، واحتفظــت باحدى عينى مثبتة في الباب . كنت أود أن اتغز من السريــر وأهرب . . . كانــت الغرفة حارة ، وقد عج المنزل برائحة غريبة تذكرني كيق لاتــى تسبجانوك

حتفه › والدم يتدفق منه على أرض المطبخ ، وخيل الي ان رأسي ، بل تلبي، بنتفخ . . . وأن كل شيء اشاهده في ذلك البيست يمسرق في جسدي مشل مركبة جلدية تسرع في درب ثلجي ، وهي تشدد الخنساق علي ، ثم تمحوني من الوجود تمامسا .

وسمعت الباب يغتج ببطء ، ومنه دلغت جدتي ... ثم دغعيت الباب بكنفيها ، فأغلقته ، وظلت مستندة اليه وقد مدت ذراعيها ناحية اللهبب الازرق الذي يبعثه قنديل الايتونات .

وهمست في نغمة صبيانية شماكية : يا ليدي المسكينتين ! . . كيف احترقتسا ! . .



حصل تقسيم الاملاك في مطلع الربيع ، فتخلف ياكوف في المدينة ، اما ميخائيل فعبر النهر الى كونافينو ، واقتنى جدي لنفسه منزلا جديدا رائعا حجري البناء في شارع بوليفوي ، في الطابق الارضي منسه خمارة واسعة ، وعلى السطح غرفة أنيقة صغيرة ، ويلحق بهذا المنزل حديقة تشرف على واد يعج بأسجار الصفصاف المعراة .

غمزني جدي بعينه مبتهجا ، وقال يخاطبني ونحسن نطوي المسرات الطرية الناعمة نجوب ارجاء الحديقة ونتفحمها :

- ما اكثر القضبان ههنا! في وقت قريب سابدا بتعليمك القراءة والكتابة ، وعندئذ ساكون في امس الحاجة الى هذه القضبان!

كان المنزل يغيض بالمستأجرين ، غاختص جدي نفسه بغرفة واسعة في الطابق العلوي اعدوها لاستقبال الضيوف ايضا . وكان نصيبنا ، جدتي وانا ، غرفة السطح التي تطل نوافذها على الطريق ، فاذا ما جلست اليها استطعت ان اشاهد السكارى الخارجين من الخمسارة في الامسيات وايسام الاعياد ، يترنحون وهم يعبرون الشارع ، يستفدون الى مزاريسب الميساه ويزمجرون . . . وغالبا ما كانوا يرمون من الخمارة وكانهم اكياس فارغة من الطحين ، فيعودون الى الباب يدفعونه ، ويهاجمونه بأيديهم ، او يضربون عليه بدقاتته المتعنة ، وهم يسبون ويشتمون ، وكان الباب يخضع لهم احيانا ، بعقشب عندئذ معركة لا أدري نتأشجها . . . كان ذلك كله في الحقيقة مثيرا للاهتمام حتى الدرجة القصوى ، وكان جسدي يمضي كل صباح الى معملسي ولديه ليساعدهما في تنظيم أمورهما ، ثم يعود مساء غاضبا ، متعب الجسم كثيب القلب ، حاد الطبساء .

اما جدتى مكانت تقوم بتدبير المنزل ، وتهيء الطعام ، وتنبش الحديقة ، وهي تكردح هنا وهناك النهار بطوله كخذرون كبير ، وكانما يسيرها سوط خني غير منظور . وكانت تستنشق سعوطها ، ثم تعطس باشتهاء ، وهي تراقب كل شيء وتجاف وجهها المتصبب عرقا :

_ شكرا للقديسين والملائكة حتى اخر الدهور! لقد انتقلنا اخيرا الى حياة هادئة ، يا اليوشا ، يا طيري العزيز! أن كل شيء جميل ورائع بالنسبة اليناء ، نشكرا لمعذراء الطاهرة!

ولكنني لم اجد شيئا من الهدوء في حياتنا . . . فقد كان المستأجسرون مخبون منذ الصباح حتى المساء في الساحة وداخل المنزل ، والجيران يأتوننا وهم في عجلة من أمرهم دوما ، ودوما متأخسرون يسعون وراء شيء ما ، ودوما يتأهبون لعمل ما من الاعمال ، وكانوا ينادون جدتي :

_ اكولينا ايفانوننسا!

نتوزع اكولينا اينانوننا ابتساماتها العذبة عليهم بلطف جم على عادتها؛ وتصغى اليهم مانتباه زائد ، وهى تدنع السعوط داخل منخريها ، ثم تمسح انفها واصبعها باتقان في منديل احمر اللون .

كانت تقسول:

- تريدون ان تتخلصوا من القمل ؟ يجب عليكم اذن ، يا اعزائي ، حين تربدون التخلص من القمل ان تغتسلوا في الحمام في غترات متتالية ، واغضل على ذلك ان تعرضوا انفسكم لابخرة زيت النعناع ، ولكن ! اذا كان القمل تحت الجلد غيجب ان تتناولوا ملعقة من شحم الوز ، من انتى انواعه ، وملعقه تهوة من السليماني وثلاث تطرات من الزئبق ، وامزجوها جميعا سبع مرات في هاون صينى ، ثم ادلكوا جسدكم بها ، اياكم أبدا واستعمال ملاعق الخشب والمعاج والا فسد الزئبق ، واياكم ومسه بالنحاس او الفضة لان ذلك يكون عظيم المضرر اذن ،

وكانت تشمير احيانا ، بعد تبصر والمعان دقيقين :

_ الافضل ان تذهبي الى الناسك آزاف في صومعته ، يا سيدتي الطيبة . ان سؤالك صعب لا استطيع له تفسيرا أو جوابا .

وكانت تعمل تابلة ، وحكما في المساجرات البيتية ، وتداوي المرضى من

الاطفال الصغار ، ونروي قصة « حلم العذراء » عسن ظهر قلب لتتعلمها النسوة غينان السعادة والغبطة ، ثم تعطي نصائحها في شؤون البيت وقضاياه:

- أن الخبار نفسه يعرف الزمن الذي يجب أن يكبس غيه ، وذلك مباشرة عندما تزول منه رائحة الارض وسواها ، غيصبح عندئذ قابلا للتمليح . . . وللحصول على كفاس (١) طيب يجب أن يكون حار المذاق ، لان مشروبا كالكفاس لا يتفق أبدا مع أي شيء حلو المذاق ، ولكن ، لا مانع من أن تضيفوا اليه شيئا من الزبيب ، أو قليلا جدا من السكر حملعقة واحدة لكل دلو منه ، وأن هناك طعما مختلفا للقشطة حسب طريقة صنعها، غهناك أسلوب أهل الدانوب في ذلك ، وكذلك الطريقة الاسبائيسة ، ومن مم الطريقة القوقازية .

اما انا فكنت اخب في اعقابها وادب النهار بطوله ، متعلقا باثوابها ان في الساحة او في الحديقة او عند الجيران - حيث كانت تجلس لبضعة ساعات تحتسى الشماي وتعيد سرد ما لديها من قصص واخبار ... وكنت أبدو ، وكاني قطعة منها . وانا لا اذكر احدا خلال تلك الفترة من حياتي ، اللهم الا هذه العجوز الكدود اللطيفة .

وغالبا ما كانت امى تظهر بيننا في فترات قصيرات . كانت ما ترال متكبرة ، عابسة الوجه ، تراقب كل شىء بعينين باردتين مظلمتين كاشعة شمس الشتاء . . ولا تقيم بيننا طويلا ، بل ما أسرع أن تختفى دون أن تخلف وراءها أثرا يذكرنا بها .

سالت جدتي ذاتيوم:

_ اانت سادرة ؟

فضحكت:

حقا ؟ من ابن اخترعت هذا ؟

(١) شراب شبيه بالبسبرة .

وسرعان ما ارتسمت على محياها علائم الجد ، واضافت :

_ ومن أنا لاكون ساحرة ؟ أن السحر فن صعب ، وأنا لا أكساد أفقه الآلة ، من الباء ! أنظر إلى جدك ! يا له من رجل متعلم ! ولكسن العسفراء الطاهرة لم تعطنى ، أنا ، الكثير من الحكمة والمعرفة .

وحينذاك ائتمنتني على جزء اخر من حياتها:

_ لقد شببت يتيمة أنا الاخرى ، فقد كانت أمى فلاحة معدمة ، ومقعدة بالاضافة الى ذلك . وقد أخافها مرة سيد نبيل وهي لما تزل بنتسا بعد ... ولذا مقد ألقت بنفسها 6 ذات ليلة ، من احدى النوامدذ 6 مكسرت خاصرتها وكتفها ، بحيث وهن ذراعها عن الحركة ، ذراعها الايمن ، ذراعها الجوهرى في العمل ، اذ كانت عاملة تطريز ماهره ، وقد حررها النبيل بعد ذلك بزمن قصير لمعدم انتفاعهم منها ، وكأنهم قالوا لها : عيشى كمسا تهوين وتبغين . رلكن ، كيف يمكنها ذلك بيد واحدة ؟ وهكذا أمست مستعطية في الطرقات . وكان سكان بالاخنا ، في ذلك الحين ، أكثر غنى واطيب قلبا - كانوا نجارين شجعانا ، وعاملات تطريز ماهرات ، قلوبهم من ذهب ، وكل منهم المضل من الاخر ، فلم نغادر المدينة ، بل رحنا المي وانا لله نسبتجدى النساس طوال الخريف والشتاء . ونكننا نزحنا عن بلدتنا عندما رفع رئيس الملائكة جبرائيل سيغه فأزاح الجليد عن الاراضي ، فاذا الربيع يتخطر على وجسه البسيطسة بأبهى حلله - نزحنا حيث قادتنا أقدامنا ، فهضينا الى موروم ، ومنها الى يوريفست ، ثم سرنا على طول الغولجا ونهر اوكا الهادىء . لكم كان مسيرنا جميلا رائعا! الارض تفوح برائحة الربيع والخريف ، والتراب ناعم الملمس، والعشب يشبه المخمل في طراوته ، والعذراء قد نثرت الزهسور في كل مكان بحيث يغمر السرور قلبك ، ويمتد الفضاء المريض الواسع امام عينيك الطانمحتين بهجة وغبطة . . . وعندئذ ، كانت والدتي تغلق عينيها الزرقاوين نصف اغلاقة ، فاذا بغنائها يرتفع نحو السماء مسبحا . . . كان صوتها حنونا حلوا ، يخيل اليك معه ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهــدوء والسكون ، فكانه برمى بسمعه اليها ، لكم كان التسول حسنا في ذلك الزمان ! غير ان والدتي رفضت ، يوم بلغت العاشرة من عمرى ، ان اصحبها للتسول . كانت تجد ذلك مخجلا ، بل مضيحة شائنة . . . وهكذا استقرت في بالاخنا ، وهناك كانت تطرق الابواب ايام الاسبوع طلبسا للخز ، وتقسف أيام الاحساد على

باب الكنيسة تستعطي الناس والمصلين ، أما أنا فكنت أتخلف في البيت اتعلم التطريز . ولم استطع أن أتعلم ذلك بسرعة ، وأن كنست تواقة جسدا الى " مساعدة امي المسكينة . ولطالما بكيت وتساقطت الدموع من عينسي بغزارة عندما يكون صبعبا فلا انجح في تحقيقه ا... ولكن سرعان ما تعلمت فسى سنتين _ تأمل ! _ تلك المهنة الصعبة ، وذاعت شمورتي في البلدة وضواحيها. وكان القوم يأتوننا ، عندما يريدون عملا ممتازا ، ويقولسون : « حسنا يا الكوليا ، هلا لعبت بأصابعك وابرك ؟ » . وكنت سعيدة بذلك ، وان كنت لا استحق في الحقيقة ذلك الصبيت الذي كانت أمي أجدر به منسي ، لانها هي وحدها التي علمتني ، ورغم عجزها عن العمل بيد واحدة ، فقد كانت تستطيع ان تعلمني ، والمعلم الطيب الفضل من عشرة عمال . ولكنني كنست متكبرة جدا ، قتلت لها : « انك تستطيعين الان ، يا أماه ، ان تكفي عن التسول ، غانا اقدر ان اطعمك من عمل يدى! » . ولكنها قالت : « صه ! الا تعلمين ان هذا المال يجب ان يكون مهرا لك ؟ » . وما أسرع أن ظهر جدك بعد ذلك ــ رجل يافع ملحوظ ، في الثانية والعشرين من العمر ، ومسع ذلك يكسب كمية لا بأس بها من المال . . وتفحصتني امه جيدا ، ورات مسا أنا عليه من المقر سروانني ابنة امراة مستعطية ماستنتجت من ذلك أنني سأكون زوجة مطيعة . منطيعة .. سمعت !.. وكانت ، بدورها ، بائعة للحلوي والكعك ، ذات نفس خبيثة شريرة . . . ولكن ، سامحني الله ، لم نتحدث بالسوء عن الإموات ؟ وما مائدة ذكر القوم الاشرار ، ان اللسه يراهسم ، والشيطسان

وأطلقت ضحكتها الصادرة عن القلب ، فاهتز أنفها بشكسل يبعث على السخرية ، وشبهلتني عيناها بعطف حنون يفصح عن مراده أكثر مها تفصح الكلهسات . . .

• • •

وأنا أذكر ليلة هادئة كتت أشرب نيها الشباي وجدتي في غرنة جدي ، كان مريضا يتبع في سريره وقد خلع عنه قميصه ، وغطسى كتنيسه بمنشنةة طويلة يمسح بها ، بين الغينة والغينة ، العرق المتحسدر على جبينه وكسان تنفسه سريعا أجش الجرس ، وعيناه الخضراوان تغشيهما سحابة داكنة ،

ووجهه محمرا منتفخا ، واذناه المدببتان المسغيرتان متوردتسين ، ويده ترتجف ــ كلما حاول ان يتناول قدح الشباي ــ بشكل يثير الشنفقة حقا . كان رقيقا 6 في ذلك اليوم ، على غير عادته . . .

وراح يشنكني لجدتي بنغمة طفل مدلل :

_ لم لم تضعى لى بعض السكر ؟

غاجابت بلطف ، في شيء من العزم ايضا :

_ لان العسل اصلح لك ،

مجرع قدح الشاي متململا باكيا ... قسال:

ـــ احذرى ان أموت .

... لا تقلق ، فأنا ساهرة غير غافيسة .

سم حسنا! انا لو مت الان لاشبهت من لم يعش على الاطلاق ـ أو من عاش من أجل لا شميء . . .

_ اضطجع ، وكفاك ثرثرة .

ظل مضطجعا مدة قصيرة ، دون حراك ، مغمض العينين ، وهو يتلمظ شينتيه الزرقاوين ، ثم قفز غجأة ، وكأن أحدهم قرصه :

ــ يجب ان تزوجي ياكوف وميخائيل باقصى ما تستطيعين من سرعة . غلربما جعلهما ذلك اكثر الفة وهدوءا . ما قولك ؟

وشرع يستعرض نتيات البلدة اللائقات ان يتزوج ولداه منهن ، بينسا راحت جدتي تشتف الكاس من الشباي تلو الاخسرى ، دون ان يبدو عليهسا ادنى اهتمام بالموضوع .

كنت ممنوعا ، عقابا على ببعض ذنوب ارتكبتها ، من النسزول الى المحديقة . . . مهجلسما الى النامذة اراقب غروب الشمس ينعكس بريقه على نوامذ المنازل ، وأمتع الانظار بالقيلولة المشتعلة موق المدينة . كانت جموع من المخنافس تدوي في المحديقة تحت شجر البتولا ، واحد العمسال يضرب

بالمطرقة برميلا في الساحة المجاورة ، وشخص ما يشحد السكاكسين في مكان قريب مني ، وكانت ترد من الوادي ، خلف الحديقة ، صيحات أطفال يلعبون ببن الانسجار الكثيفة ، فاشتاق يانسا ، وقد اثقلت كآبة الغسق على قلبي، ان اكون بينهم أشاركهم لعبهم ،

وأخرج جدي ، على حين بغتة ، كتابا أنيقا للغاية ، لطمه براحة يده ، وناداني بصوت أنيس :

... انت ، ايها السنونو الصغير! انت ، يا صاحب الاذنين الملفوغتين! انت ، تعال هنا! اجلس ، ايها المتتري الموجه! اترى هذه الاشارة ؟ انها « الف » في أب ، « ب » في باب ، « ت » في توت ، ما هذه ؟

- « ب » في بـاب .

ــ « ت » في تــوت ،

ــ غلط! (« الله » في أب , انظر هنا ٠٠٠ (د » في دار ، (ج » فــى جار ، (ف » في غار ٠٠٠ ما هذه ؟

_ « ج » نــي جــار ٠

- صحيح ، وهــذه ؟

ـــ « د » فـــي دار ٠

ــرائع ، وهــذه ؟

__ « الــف » نــى اب

نقاطعتنا جدتي:

- يحسن بك ان تضطجع بهدوء ، يا أبتاه ا

__ أطبق شنفتيك! ان هذا يروح عني ويبعد المتاعب عن ذهني ، تابع ، يا الكسى! ...

ولف ساعده الحار الرطب حول رقبتي ، وأشار الى الحروف ، بينها أمسك في اليد الاخرى بالكتاب تحت أنفي مباشرة .

كان يفوح منه مزيج من رائحة الخل ، والعسرق ، والبصل المشوي ، فكاد ان تخنقنسي

واهتاج نمجاة ، بشكل غريب ، وصاح في أذنسي :

ـــ « م » في مطبخ . . . « س » في سيدة . .

كانت تلك الكلمات والاصوات مألوغة لدي ، وكذلك الامسور التي نعبر عنها ، ولكن للحروف السلافيسة لم يكن لها ادنى شبه بها على الاطلق ، فالسين تبدو أكثر شبها بالدودة منها بالسيدة ، والميم بجريجوري الاحدب منها بالملبخ ، أما الجيم المنتفخة فتذكرني بجدتي ، بينما كان في جدي شيء يجعله يشبه سائر الحروف كل الشبه ، واسنمسر طويلا يعلمني حسروف المهجاء ، يسألني عنها بانتظام مرة ، وحسب هواه مرة اخرى ، وأصابني بعدوى ثورته ، فرحت اتصبب عرقا بدوري ، وأصيح بأعلى صوتي ، الامر الذي راق له كنيرا فأغرق في الضحك حتى اصابته نوبسات متتابعة مسن السعال .

كان يتنهد ، وهو يضرب بيده على صدره والكتاب معا :

_ انظري كيف تحمس اذلك ، يا اماه ! تغو ! تفو ، أيها الطاعسون الاستراخاني ، ما بالك تصيح بهذا العنف ؟

ــ انك انت الذي يصيــح ٠٠٠

ورحت ارنو اليه مبتهجا ، وقد جلست جدتسي الينا ومرفقاها على الطاولة ، واصابعها على خديها ، تضحك بهدوء وهي تراقبنا . . . قالت :

- كفاكما صياحا يذهب بعقليكها!

والتفت جدي الى ، وهو يفسر لى بالفــــة :

ــ اني اصيح لاني مريض . ولكن ، لم تصبح انت ؟

ثم حك رأسه الناضح عرقا ، وقال مخاطبا جدتى :

ــ لقد كانت المرحومة ناتاليا مخطئة عندما قالت أن ذاكرته رديئة . انها اشبه بذاكرة المحصان ! تابع ، أيها الاقطس الانف ا

ثم جذبني ، غيما بعد ، ناحية السرير مازحا :

- ذلك يكفي ! احتفظ بالكتاب ، سأسألك في الغداة عن كامل الابجدية ، فاياك ان تخطى ، في تلاوتها ، وسأعطيك خمسة كوبيكات القاء ذلك ،

وعندما انتربت لاستلم الكتاب ، ضمني الميه ، وقال بأسمى :

_ ما الذي دغع امك الى الذهاب واهمالك هنا ، يا بني !

نتدخلت جدتــى:

_ ما معنى الحديث عن ذلك الان ، يا ابتاه ؟

__ ان الحزن يدغمني الى ذلك آه ، يا لها غتاة مـــن المؤسف أن تخـــل !

ودممنى عنه بحركة عنيمهة:

- امض من هنا والعب! ولكنني امنعك من الخروج الى الشمارع ، ابق في المحاحة او في الحديقة ، اتسمع ؟

كانت الحديقة هي بغيتي بالضبط ، اذ لا اكساد اظهسر فيها حتى يشرع الاطفال الذين يلهون في الوادي يرمونني بالحجارة ، فلا ارغب الا في أن اكيل لهم الصاع صاعين .

كانوا يصيحون ، عندما يبصرون بسي :

_ ها هي ذي البقـة!

ــ اضربسوه ا

لم اكن الملك أية نكرة عن ماهية المبقة ، وهذا يعني أنه لا يمكنني اعتبار اتوال الاولاد اهانة موجهة الي .وكنت اغتبط أذ اجد نفسي خصما لكل تلك المجمهرة ، وأرى الميهم يتراكضون عندما أصليهم بنار من المحجسارة حامية لا تخطىء المهدف هنا وهناك ، ويختبئون وراء الادغال الكثيفة . وكانت أمثال تلك المعارك لا تحمل حقدا ولا تترك شعورا بالاذية والضرر ، بل تنتهي دائما على خير وجسه .

تعلمت المتراءة بسرعة ، واظن ذلك ما جعل جدي يوجه المي المزيد من المعناية والاهتمام ، ويقلل من مرات جلدي ، مع انني كنست ، في رأيسي ، أستاهل من المضرب والمجلد اكثر منى قبلا بما لا يقاس ، ولما كنت ازداد سنا

واقوى جىسىدا، نقد شرعت الحالف اوامره كثيرا، نيكتفي بتعنيفسي او بهز · · اصابعه في وجهسي ،

صور لي ، وقتئذ ، أنه غالبا ما كان يجلدني في صغري دونما أدنى فائدة أو سبب معقول ، وأخبرته برابي هذا ذات يوم ، فنقر نقرة خفيئة نحت دقنى ، وحملق في عينى ، وقال وهو بتشدق بكلامه :

__ دا؟

تم الحاف ، وهو يقهقم :

_ انت 6 ايها الهرطوقي الصغير ! من انت حتى تقرر عدد المرات الني المات الجلد فيها ؟ . . أنا الوحيد الذي يعرف ذلك ! أفهمت ؟

وأمسك بي من كتفي - بينما كنت استدير عنه ، ومرة نانية راح يحملق ني عينيي :

النت خبيث ام ابلــه ؟

_ لسبت ادری .

ـــ لمنت تدري ، ما ؟ سأخبرك أذن ــ انت خبيث ، وهذا أغضل من أن تكون أبله ! أن الخراف بلهاء ، أغهبت ، والان ، أمض والعب . . .

وسرعان ما ابتدات اتهجا كتاب المزامير ، وجدي يدرسني ، غالبا ، بعد تناول الشماي مساء ، حيث اقرأ في كل مرة مزمورا كاملا .

ـــ س ، ع ، ي ، د . . . سعيــد . . ا ، ل ، د ، ج ل . . . رجــل . . . الرجل . . . لرجل . . .

كنت اتهجى ذلك ، واصبعي الوسطى تنتقل على طول السطر . وكان الضجر يفهرنى ، فاطرح عدة اسئلة مختلفة :

ــ من هو السعيد ؟ أهو المخال ياكوف ؟

ــ ساضربك على نقرتك فتعرف وقتئذ من هو السعيد .

كان جدي يهتف بهذه الكلمات وهو يلهث غاضبا . ولكنسي أشعر أن غضبه ليس صحيحا ، بل من تأثير العادة فقط ، ولحفظ النظام ليس غير .

لم اكن لاخطىء قط ، اذ لا يلبث ، بعد لحظة ، أن يهمهم ناسيا وجودي:

_ أنى ، عندما يأخذ باللعب والغناء يشبه الملك داوود كل الشبه ؟ ولكنه يسبه ابشالوم الخبيث في اعماله ، قوي ، غشاش ، مهسرج لله يرقص ويمررح فوق المعسب ! حسنا : ولكسن الى اي حسد سيذهب بسك رقصك لا اعتقد انه لن يطلول !

غاتوقف عن القراءة لاستمع اليه ، واتطلع الى وجهه الانيس المضطرب. كانت عيناه المضيقتان ترنوان من فوق راسي إلى ما ورائي ، مليئتين بحزن عنبف يذوب قساوته المعتادة ، وحاجباه الذهبيان يرتعشان ، واظافر أصابعه الملوثة بالصباغ تلتمع وهو ينقر على المطاولة بعصبية .

_ ماذا ؟

ـ قص على قصـة . . .

فيدمدم . وهو يفرك عينيه كما لو استيقظ لساعته من النوم :

_ هيا ! تابع قراءتك ، ايها الكسول ! انت تفضل أن تستمع السي المخرافات أكثر منك الى المزامير !!

كنت واثقا انه يفضل القصص الخرافية على المزامير الني يحفظها عن ظهر قلب . وقد نذر الا ينام قبل أن يقرأ جزءا منها كل ليلة بصوت مرتفع ، فبرتلها كثمماس الكنيسة عندما يرتل في كتاب الصلوات .

والح عليه حتى يرق قلبه أخيرا ، فيروي لي احدى قصصه قائلا :

ــ اوه ، حسنا ، انت ستحتفظ بالمزامير معك طوال حياتك ، اما انا نسامضي قريبا لاقابل خالقي أمام كرسي الدينونة ،

ويلقي براسه الى الوراء ، وهو يستند الى حافة الكرسي العتيت الحادة ، ويثبت عينيه في السقة ، ويغرق في ذكريات أيامه الخالية ، ثم يأخذ بالحديث عن ابيه والزمان المغابر ، لقد حدث ، ذات مسرة ، أن عصبة من اللصوص أغارت على بالاخنا مستهدفة دكان التاجر زاييسفه ، فركض والد جدي الى قبة الكنيسة لينبه الناس ، ولكن اللصوص ادركوه ، ومزقوه بسيوفهم ، ورموا بقطعه من فوق البرج .

- كنت طفلا صغيرا بعد غلم اشبهد تلك المحادثة ، بل لم اعدد اذكرها أيضا . غذكرياتي الاولى تعود الى مجيء الفرنسيين عسام ١٨١٢ - وسني

حينذاك لا تنجاوز الثانية عشرة حرين ساقوا ثلاثيين اسيرا الى بالاخنا ، وهم جميعا صغار البنية ، برزت عظامهم ، وتهلهلت نيابهم حنى أنه بهت السمال المتسولين ـ كانوا ، على أية حال ، اسوا من هؤلاء منظرا _ يرتعشون وبرتحفون ، وقد تجمدت اطراف بعضهم بردا فاضحوا علجزين لا بستطيعون المنهوض على اقدامهم ، وأراد الفلاحون قتلهم جميعها ، ولكسن الحراس مامية المدينة منعوهم عن ذلك ، وردوهم طرا الى اكواخهم ، ثم سار كل شررء على ما برام ، واعناد الطرفان بعضهما بعضا ، فاذا الفرنسيين اذكياء القلب ٤ ثاتبوا الفكر ٤ خفيفو الحركة ٤ يتغنون بأغانيهم حيثمسا طاب لهم . وراح نبلاؤنا بنحدرون من نيجنسي نونهجورود من العربات للنفسرج علبهم ، وفريق منهم يلعن الفرنسيين ويهز مبضته في وجوههم ، بل يضربهم في بعض الاحيان . . . بينما يحدثهم الفريق الاخر بلطف بلغتهم الفرنسية ، وبقدم اليهم المال والنياب المعتبقة لبفرح قلوبهم بها . وأنا أذكر شيخًا منهم ، كان من كبار الندلاء ، أخفى وجهه بيديه , مرة وطفق يبكي وبصبح: « هلا رابتم الي ما جناه ذلك الشبطان نابلبون بحق هؤلاء الغرنسبين ؟ » . تمعن في ذلك ... روسي نبيل ذو قلب طيب ـ تأخذه الشفقة بمثل هـذا الشكل على اولئـك الفرياء الإجانسب •

ويصمت جدي برهة ، ويغمض عينيه ، ويحنى رأسه ، وبصفف بيده شعره الطويل . . . ومن نم بتابع الحديث بعناية ، منقبا في مهامسه ذكريامه القديمسة :

وجاء ذلك الشتاء ، باعساره الثائر المربع ، وريحه الباردة تزمجسر بقسوة وعناد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يتراكضون احمانا حتى نوافذنا بنادون والدتي _ وكانت تصنع كعكا للبيع _ يقرعون الزجاج عليها ، ينبون عن الارض ويطلبون الكعك الساخن منها ، ولم تكن أمي تسمح لهم بالدخول الى الكوخ ، بل نناولهم ما يطلبون من خلال النافسذة ، فيتخاطفونه حسارا يتصاعد البخار منه ، بعد خروجه من الفرن مباشرة ، تم يخبئونه في طبات متصانهم ، ويضمونه الى اجسادهم المنجمدة ، ردا فوق القلب نماما ، ولم اكن أهم كسفهمكنهم تحمل تلك الحرارة الشديدة ! ولقد مات اكترهم من الدرد، لان سركان البلاد الحارة لا يتحملون منل ذلك المجليد . وقد أقسام اننان منهم لان سركان البلاد الحارة لا يتحملون منل ذلك المجليد . وقد أقسام اننان منهم

عندنا ، احدهما ضابط والاخر تابع له يدعى ميرون ، فاسكناهما غرفة الحمام في التصى الحديقة . وكان ذلك الضابط فارع الطول ، نحيل الجسم ، لا يزيد عن حزمة من العظام والجلد ، يتجول في معطف نسائي يصل حتى ركبتيه . وكان لطيفا ، ذا نفس طيبة علته الوحيدة ادمانه على الشراب ، ولما كانت امي تصنع الجعة وتبيعها خفية ، فقد كان يشتري مقادير كبيرة منها . . . فاذا أصبح ثملا راح ينشد اغنياته التي لا تنتهي ، ولقد تعلم شيئا من لغتنا ، فكان يردد أحيانا : « أن بلادكم غير بيضاء ، أنها سوداء جافة . . . » ، وكان حديثه متقطع الالفاظ ، ولكنك تفهم ما يتصده ، والحقيقة التي لا مراء فهبها أن المنطقة الشمالية جافة فظة . ولكنك اذا ما انحدرت مع الفولجا اصبحت الاراخي دافئة ناعمة ، لا بل يقال انك اذا ما تخطيت بحر قزوين لم تر للثلج أثرا . . ، ولربما كان في ذلك شيء من الصحة ، فانظر كلف يخلو الانجيل ، ولكتاب اعمال الرسل ، وسنفر المزامير ، من ذكر الثلوج أو الشيتاء ، والمسيد ولد وعاش في تلك البلاد ، . عندما سننتهي من قراءة المزامير ساشرح واياك قراءة الاناجيل ،

وبعود الى الصمت ، فيخيل الى انه يغنو ، ، ، ثــم يشخص من خلال النافذة ، وقد ركز انتباهه في امر ما ، وضيق فرجة عينيه ، واتخذت ملامحه مظهر الحدة . . . فاهمس بهــدوء :

_ هلا تابعـت ؟

نيجيب ، وهو ينتفض :

_ آه ، حسنا! عما كانت اتحدث ؟ عن الغرنسيين ؟ حسنا! لقد كانوا، بدورهم ، مخلوقات بشرية ليست اردا منا نحن الخطاة . . . وكانوا يتراكضون خلف والدتي وهم يصيحون : « مدام ، مدام ! » ويعنون بذلك «يا سيدتي » . ولكن تلك « السيدة » تخب نحو المنزل تحمل كيسا من الطحيين يزيد وزنا عن المائة كهلو غراما ، فقد كانت تفوق الثور توة وبأسا ، ظلت تفعل بي ما تشاء حتى جاوزت العشرين من العمر . وأنا لم أكن أبدا ، في ذلك الوقت ، ضعيف النبية أو جبانا . أما ذلك التابع ميرون مكان مولعا بالخيل كثبرا ، ينتقل بين الاسطبالات ، ويسال الناس بالاشارات السماح له بالعنابسة يالخبل . ولكن القوم خافوا منه بادىء الامر حديه عدو ليس ما يمنعه من الحاق الاذى بها . ولكن لم تمض فترة من الزمن حتى أصبح النلاحون ، بعد

ان خريوه ، يأتون اليه من تلقاء انفسهم : « هي ، انت ، ميسرون ، هسلا اتست ؟ » . فيضحك ويهز رأسه كالثور ، ويعدو نحوهم ركضا . كان شعره أحمر اللون كالجزرة ، له أنف كبير ، وشفتان عريضتان ، وهو سائس خيل عظيم ، له خبرة واسعة عن كيفية العناية بالخيول مهما كان مرضها . . وقد أضحى ، بعد ذلك ، مسائسا في فيجني نوفجورود ، لكنه مقد عقله نيما بعد . و في ذات يوم ، انهال رجال المطانىء عليه ضربا حتى مات ٥٠٠ اما الضابط نراح يذبل ويذبل مع قدوم الربيع ، ثم مات دون أدنى صوت او ضجة ، في عيد التديس نيقولا . كان يجلس الى النافذة في مسكنه غارمًا في بحر من الاحلام نته في هكذا ، وهو يتطلع الى العالم ، وشعرت بالاسف من اجله ، وذرغيت مليه بعض الدموع خفية ، فقد كان انسانا لطيفا ، اعتساد ان يمسك باذني لسبك فيها كالاما ناعما بلغته الخاصة . ولم أكن أفهم مما يقسول شيئا ، اكن وقع تلك الكلمات في نفاسي كان رائعا للغاية ، ان العالم لا يحوى عددا كبرا من ذوى القلوب الطيبة ، ومثل هذه الصداقات لا تبساع مي السوق . ولقد شرع ، مرة يعلمني طريقة الحديث بلغته الاصلية ، ولكسن امي منعته عن ذلك ، وقادتني الى الكاهن الذي امرها بجلدي ، ثم رفع شكوى ضد ذلك الضابط . لقد كان الناس شديدي الباس في تلك الايام ، يا صغيرى! وانت لن تذوق ما قاسيناه في زماننا _ فان اناسا اخرين تحملوا ذلك عنك ، وهذا ما يجب الا تنساه أبدا! خذني مثلا ــ لو أنك تعلم مقط مبلغ ما عانيت!

واحلولكت الظلمة ، وكان جدي يتمدد في ذلك الجو القاتم بشكل غريب، وعيناه تشمعان وتبرقان كعيني القط ، وهو يتحدث عادة بهدوء ، واحتراس، وتأمل ، ، ، ولكنه أمسى ، اذ راح يتحدث عن نفسه ، اكثر حمية وتفاخرا : ولم بكن ذلك منه يروق لى ، ولا كنت احب ايضا عظاته المستمرة :

ـ « تذكر ذلك! » . . . « اياك ان تنساه! » .

لقد اطلعني على اشياء عديدة اتوق بكل نفسي الى نسيانها جبيعا ، ولكنها تتشبث بذاكرتي مثل شوكة مؤلمة يستحيل انتزاعها ، . . لم يكن يروي لي شيئا من القاصيص المجن ـ بل كانت سائر حكاباته مستمدة من واقسع الحياة ، ومن ماضيه بصورة خاصة . ولقد اكتشفت ان كثرة الاسئلة تزعجه كثيرا ، ولذا كنت اغتنم كل فرصة لالقي عليه اكبر عدد منها :

_ قل لي أيهما أغضل _ الروسي أم الفرنسي ؟

غيجيب مغتاظا:

__ ومن يستطيع الاجابة على ذلك ؟ أنا لهم أن الفرنسيين في وطنهم الاصلى .

ــ ان الفأر نفسه لفاضل في حجره الخاص .

ـــ وهل الروسيون طيبــون ؟

- بعضهم ذلك وبعضهم لا ! كانوا اكثر طيبة أيام كاأسوا عبيدا تقيدهم السلاسل ، أما الآن ، وقد أصبحوا أحرارا ، فقد نسوا المعادات القديمة ، ولا ريب أن الاسباد قسماة المقلوب نوعا ما ، ولكنهم أعقل من الموجيك ، لا أقول هذا عنهم جميعا ، ولكن النبيل أذا كان طيب القلب مرة ، كرسان فاضلا جسدا ، وبعضهم حمقى تماما ، يتقبلون ، كالاكياس ، كل ما تضعه فيهم ، حقا ، أن بيننا لكثيرا من القشور ، ومن الصدف اللفارغ ، يبهدون للوهلة الاولى كالكائنات البشرية ، فأذا أقتربت منهم وتمعنت فيهم رايتهم قشورا لالب فيها ، أن ما نحتاج اليه هو شيء من الثقافة ، أن ما يلزمنا همو أن شحذ عقولنا ، ولكن ، لا يوجد هناك ما نشحذها به . .

- هل الروسيون أقوياء ؟

بعضهم القوياء ، ولكن القيمة ليست في اللهوة ، بل في المهارة ! غلانت مهما يلغت من المقوة يظل المحسان متفوقا عليك في هذا المضمار .

- لماذا حاربنا الفرنسيون ؟

- حسنا! الحروب مهمة الحكومات والقيصر - وليس لنا ، نحسن الناس البسطاء ، ان نفهم هذه الامور . . .

ولكننى لن انسى ، ما حييت ، ما اجابني به جسدي يوم سالته عسن بونابريت من يكون . . . قال :

ــ لقد كان رجلا شبجاعا اراد ان يستولي على العالم اجمع حتى ستطيع حميم الناسي ان يعيشوا في مساواة عادلة ، قلا نبلاء ، ولا موظفسون ، بل الجميع في مستوى واحد ، وستختلف الاسماء لكن الحقسوق ستتساوى للجميع . . . ولن يكون هناك أيضا الا ابمان واحد للجميع ، وتلك فكرة بلهاء

بالطبع لا معنى لها . . . فليس الا سرطانات الماء تشبه بعضها بعضا . . . خذ الاسماك مثلا ، حتى هي تختلف عن بعضها : فحوت سليمان لا يشبه السمك الابيض ابدا ، والسمك النهري لا يداني السمك البحري . . . ولقد كان لنا ، بدورنا ، بونابرتاتنا حفيناك مثلا رازيسن ستيفان تيموفييف ، وبوكاتش ايميليان ايفنوق حولكني ساخبرك عنهما في وقت اخر . . .

وقد كان ، في اغلب الاحيان ، يرنو التي بعينيه المتسعنين مدة طويلة ، م وكانه يرانى للمرة الاولى ، وكان هذا يزعجني كثيرا .

ولكله لم يحدتني ، أبدأ ، عن والدي أو عن والدتي . . .

• • •

كانت جدتي تدلف احيانا الى المغرفة اثناء هذه الاحاديث . . فتقتعد ، في هدوء جم ، كرسيا في زاوية المغرفة ، وتعتصم بالصمت مدد حتى تسأل على حين فجأة بصوتها اللطيف :

_ اتذكر ، يا ابتاه ، كم كانت جميلة تلك الايام التي حججنا نبها الى ميرون نزور العذراء الطاهرة ؟ في اي عام حدث ذلك ؟

... لسبت أذكر بالضبط ، لكن ذلك كان قبل الكولبرا ، في السنة التي طهروا فيها الغابات من الاولنخاريين .

_ صحیح! انا اذکر کم کنا نخانهم!

ــنعم ، نعــم!

فسالت من يكون هؤلاء الاولنخاريون ، وما دمعهام المي الاختباء علي الغابات . ماجاب جدي باشمئزاز :

- _ لم يكونوا الا فلاحين ارقاء ، هربوا من المعمل في المحانع والحقول.
 - _ وكايف قبضوا عليهم ؟
- _ هل لك ان تحزر ؟ كان ذلك اشبه بالاطفال وهم يلعبون . . . البعض يركضون ويختبئون ، والاخرون يمسكون بهم . وعندما تم القبض عليهم جلدوا مالسياط ، وضربوا بالعصي ، ثم جدعت انوفهم ، وكويت جباههم بالنار كي يتضمح للهلا المعتاب الذي انزل بهم .

_ ولم ذلك ؟

سمن يدري ؟ ان ذلك امرا مبهما غامض الاسرار ، ومن الصعب ان تميز المخطىء نيهم سم اهو الذي نر ، أم الذي تبض على النمار ؟

وقالت جدتي ثانيــة:

_ اتذكر ، يا ابتاه ، ما الذي حدث بعد النار العظيمة ؟

المستفسر جدي ، وقد قطب وجهه بدقة :

ـ ایة نار عظیمــة ؟

وغرقا في ذكرياتهما ، وكاتا دوما ينسيان وجودي في مثل هذه الحال ، هتتعالى كلماتها بهدوء ، موزونة ، حتى يخيل الي انهما ينشدان اغنية شجية ، لكنها اغنية حزينة في الوقت ذاته ، موضوعها النار ، والامراض ، والمسائب التي تنزل بساح المخلوقات البشرية ، والموت المفاجىء ، واللصوص الاذكياء ، والدراويش ، والمنبلاء المنزقون المنحدرون من الطبقات الراقية ، والمسولون المتعددون . . .

وتمتم جدي:

_ ما أكثر ما شماهدنا! ما أكثر ما عشنا!

مُسِالت جدتسي :

ـــ وهل كانت حياة سيئة ؟ هلا ذكرت روعة ذلك الربيع الذي ولدت نيه غارفـــارا ؟

ــ كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، سنة الحملة على المجر ، ولقد ساقوا معهم عرابها تيخون بعد يوم واحد من عمادها فحسب .

فتنهدت جدتي ، وقالت :

ـ وهو لم يرجع منذ ذلك الحين !

نعم ، لم ميرجع ! ومنذ ذلك اليوم حتى الان ورحمة الله تنزلق بعيدا عنا ، كالماء اذ يسيل على سطح مشحم . . . آه ، ان فارفلارا . . .

ـ كفى ، يا ابتاه . . .

فأجاب غاضبا

لماذا كفى ؟ هؤلاء اولادنا ينقلبون أرذالا رغم كل المعناية التي بذلت لمهم، لقد ذهبت سائر جهودنا هباء منثورا ! كمّا نظين ، انت وانيا ، انفا نضيع السياءنا في حرز أمين ، ولكن الله أراد أن يضيع كل شيء من بين أيدينا . . .

وكمن وسم بالنار ، الحذ يقفز بين زوايا الغرفة ، يئن ؛ ويهاجم أولاده، ويهز قبضته المتعظمة الصغيرة في وجه جدثي ، وهو يصيح :

_ وانت دانمت دوما عن هؤلاء اللصوص ، وانسدتهم بتدليلك لهم ، انت ، ايتها المساحرة!

والقى به غضبه المعنيف في زاوية الايقونات ، حيث شرع يضرب صدره النحيل بكلتا قبضتيه ، وينوح بصورة مؤثرة:

_ لم ذلك ، يا ربى ؟ هل انا اكثر خطيئة من سواي مـن الناس حتى استحق هذا المعتاب المقاسي ؟

وراحت عيناه النديتان تلمعان سططا والما ، وجسده يرتجف كالورقة الحامة في مهب الريسح ٠٠٠

كانت جدتي تظل قابعة في الظلمة ، وهي ترسم اشبارة الصليب، ، ثم تنهض ، وتمثى اليه بحذر ، وتقول معزية :

_ لم تعذب نفسك هكذا ؟ ان الله بكل ما تصنع يداه عليم ! فليس هناك كثرة من الاولاد أغضل من أبنائك . ان الامر متشابه في كل مكان ، يا أبتاه . . خصومات ، ونزاعات ، وضوضاء . . . ان جميع الامهات والآباء بغسلون خطاياهم بدموعهم الخاصة ، ولست الوحيد الذي . . .

كانت كلماتها ، احيانا ، ترد اليه الهدوء ، فينزلسق في فراشه متعبسا بينما ننطلق ، جدتي وانا ، الى جناحنا الخاص ، ولكنه ، اذ اقتربست منه ذاستمرة ، تخاطبه بكلماتها اللطيفة ، استدار حول نفسه ولطمها بقبضته لطمة رنانة على وجهها ، فترنحت جدتي ، وقد شدت يدها على شفتيها ، حتى اذا استردت هدوءها ، قالت في صوت هادىء لطيف :

_ يا لك من احمــق!

نم بصقت الدم عند قدميه ، فرفع ذراعيه فوق رأسه ، وزعق مرنين :

_ اذهبي من وجهي قبل ان اقتلك !

نرددت جدتي ، وهي تتجه صوب الباب:

ـــ أحبــق !

فالقى بنفسه خلفها ، ولكنها اجتازت العتبسة دون تسرع ، وصفقست الباب في وجهه . . . فصرخ الشيخ ، احمر اللون كالفحم المتأجج ، وقد أمسك بقبضة الباب يضرب عليه بأظافسره :

ـ يا للفاجرة العجـوز!

كنت جالسا على ظهر الموقد ميتا اكثر مني حياً ، عاجزا عن تصديق عيني. لقد كانت المرة الاولى التبي تضرب المها جدتي في حضوري ، ولقد تألت مسن شمناعة ذلك ، وكثيفت المعلقة تلك عن صفة جديدة الله لا يمكسن ان يبررها شيء على الاطلاق ، راحت تثقل علي بنير لا يطاق . . . ظل واقفا هناك متعلقا بقبضة الباب ، وقد أربد وجهه الكان الرماد ذر عليه . واجها ، خطا الى منتصف الغرفة ، وسقط على ركبتيه ، وارتمسى الى الامسام مستندا على ذراعه . ثم نهض واقفا ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصيح :

_ يا الله! يا الله!

فتدحرجت على قرميد الدكة الحار السذي بدا لسي وكأنه مصنوع من المجليد ، ثم اطلقت ساقي هاربا . . .

كانت جدتي في الطابق العالوي تغدو وتروح ، وهي تغرغر كميـــة من الماء نمي فمهـــا .

هل تتألمين ؟

المنت الى زاوية الغرفة ، وبصقت الماء في المغسلة . . .

الجابت برزانسة:

ــ لا ، أبدا! ان اسنانسي لم تصب بسوء ــ لقد جرحــت في شنتسى

سے لماذا فعل ذلسك ؟

فأجابت ، وهي تشخص الى النافذة :

_ لقد نقد صوابه ! كم يصعب عليه ، هو الرجل الشيخ ، ان يتحمل هذه المصائب كلها ! . . . اذهب انت الى طرائمك ، وانس ما جرى ٠٠

نسألتها عن شيء اخر ، ولكنها صاحت بشدة غسير متصودة ، وغير معتسادة :

_ الم تسمعني ؟ اذهب الى غراشك ! يا لك من ولد عاق !

جلست قرب المنافذة تمص شهفتها وتبصق ، من حين لاخر ، في منديلها ، طللت انظر الميها طول الموقت ، وأنا الخلع ثيابي ، وفوق رأسها تلتمع كوكبة من النجوم في غسق المليل ، كان كل شيء هادئا في الخارج ، وكبل شيء في الداخل مظلما ، وعندما المتحفت الغطاء تقدمت مني ، وداعبت جبيني بلطيف :

ـ نم في سلام . اني سانزل اليه الان . . . فلا تأسف من أجلي ، أيها اللعصفور الصغير! ان لاخطائي نصيبا كبيرا في ذلك . هيا ، الى الغوم!

قبلتني وخرجت ، وخلفتني غارقا في بحر من الحزن والالم . فقفزت خارج السرير الدافيء الطري ، ومضيت الى النافذة حيث رحت أحملق فهي الطريق المخالي ، وأنا أرزح تحت عبء عذاب لا يطاق . . .



مرة اخرى ، امست الحياة كابوسا لا يحتمل ! فغي ذات مساء ، وقد انتهينا من تناول الشماي ولمجانا ، جدي وأنا ، الى قسراءة المزامير ، بينمسا راحت جدتي تغسل الصحون والاواني ، اندفع الخال ياتكوف كالريح العاصفة داخل الفرقة . . . كان اشعث الشعر كعادته ، يشبه الى حد بعيد مكنسة بالية مهترئة ، ورمى بقبعته في احدى زوايا الحجسرة وراح يتكلم بسرعسة دون أن يلقي سلاما أو تحية ، وهو يقوم اثناء ذلك بحركات جنونيسة همجية غريبسة :

— أن ميخائيل مغتاظ ، يا أبتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، وأمسى كالمجنون ! فكسر الصحون ، ومزق ثوبا من الصوف يخص أحد المعهلاء ، وحطم الناغذة ، وشتمني وجريجوري ، وهسو الان في طريقسه الى هنا ، وقد أقسم أن ينال منك ! كان يعوي : « سأنتف الشعر عن لحية وإلدي ! » ، ثميصيح: « وسأقتله ! . . . » . يحسن بك أن تنتبه لنفسك . . .

وانحنى جدي على الطاولة ، ونهض على قدميه بصعوبة ، وقد تشنيج رجهه وتجمع عند انفه حتى اشبه بلطة صغيرة ، وزعق قائلا :

- اتسبعين ذلك ، يا اماه ؟ ما قولك ، ايه ؟ انه يريسدان يقتل والده! هذا هو ، من لحمي ودمي ! حسنا ، لقد حان اللوقت ! لقد حان اللوقت ! ليا شباب

واصلح من وضع كتفيه ، وراح يتخطر في الغرنة غدوة ورواحا ، شم مضى الى الباب واترسه بمزلاجه الثقيل . قال :

_ انكما تتسمابقان وراء مهر فارظارا دوما ! انا اعرف ذلك ! ولكن الميك ما ستنالسه ...

واستدار نحو ياكوف ، وانحنى ساخرا تحت انغه مباشرة ...

وتراجع هذا الاخبر ، وقال بصوت مفتاط:

_ وما ذنبي أنا ، يا أبتاه ؟

ــ أنت ؟ التي أعرفك أنت أيضا!

لم تقل جدتي شينا البتة ، بل راحت تضع الفناجين بسرعة في الخزانة _ بكل بساطة _ ثم تغلق عليها ،

ــ لقد جئت احميــك !

نضحك جدى بخبــث:

ــ ها! ذلك جميل اعرفه! اشكرك ، يا بنسي السمعي ، يا اساه! اعطي هذا الثعلب شيئا يشتغلبه، قضيب النار ، او المكواة ، وانت يا ياكوت نسيلينيتش ، في اللحظة التي يتوصل اخوك نيها الى الدخول ناعطه اياها ــ على رأسي

مدمع خالي يديه في جيبه ، وانتحى بعيدا احدى الزوايا :

- حسنا ، ما دمت لا تريد ان تصدقني .

غصاح الجد ، وهو يضرب الارض بقدمه :

- اصدقك ؟ انت ؟ اغضل ان اصدق قطا ، او جرذا ، او خنزيرا ، الها انت نملا ا غانت الذي سقيته المسكر واثرته . . . انا اعرف ذلك ! حسنا . . . والان ، عليك ان تتخلص من احد الاثنين . هيا ، واختر . . . اقتل احدنا : هسو او انسا ا

واستدارت جدتى الى ، وهمست :

- أسرع الى الطابق العلوي ، وارقب خالك ميخائيل من خلال الناخذة، واخبرنا سريما عندما تلمحه ! هيا الى فوق ، اركض !

نصعدت السلم نهبا ، وارتفقت الناغذة . . .

كنت خائفا نوعا ما لمجرد تفكيري بما سيفعله خالي الحانسق عندما يبلغ المنزل ، لكن مزهوا بالمسؤولية الحطيره التي عهد بها الي . كسان الشارع عريضًا ، غطته سحابة كثيفة من الغبار نبدو من خلالها حوانيت الحذائين ، وهو يذهب بعيدا ناحيه الشمال وينجاوز المنحدر ، ويفضى الى ساحسة اوسنروجنايا ، حيث ترتفع ابنية المسجن القديمة الشهباء اللون بابراجها الاربعه المنتصبة برسوخ في التربه الطينية . وكان في ذلك البناء جمال كئيب مثير للشعور . والى اليمين ، لم يكن الا ثمة ثلانة منسازل مفصل دارنا عن ساحة سينايا التي يحدها من الجهة المقابلة معسكرات الاسرى الصغراء ، وبرج المراقبة الذي يدور الحارس فيه ككلب تقيده سلسلته ... أما الساحة نكانت مليئة بالخنادق والحفر التي طاف قاع احداها بوحل مخضر ٠٠٠ وعن يمين ذلك ، كانت بحيرة دوكوف حيث حفر خالاي مرة ، كما روت لي جدتي فيما بعد ، تغرة في المجليد يريدان القاء والدى فيها ٠٠٠ وثمسة درب ضيق جانبي ينفتح مقابل نافذتي تماما ، تحف به منازل صفحيرة كثيرة الالسوان تنتهى عند كنيسة الاقمار الثلاثة ، وهي بناء ضخم يجشم على الارض بفتل وارهاق . كنت اذا نظرت من نالهذتي باستقامـــة بدت لي السقوف أشبـــه بقوارب متلونة مقلوبة تسبح فوق امواج الحدائق الخضراء وتعوم .

وكانت دور شارعنا الغبراء التي جرد لونها بفعل رياح فصول الشتاء الطويلة ، والتي طالما اغتسلت بأمطار الخريف اللامنتهيسة ، تتراكم متراصة الى بعضها كجماعة من المتسولين عند بوابة الكنيسة ، تسترق النظر بنوافذها الناتئة وكأنها مثلي تنتظر شيئا ما ، والناس القلائل الذين وقع بصري عليهم يقطعون الطريق مبطئين ، وكأنهم تلك الصراصير الناعسة تتسلق جدران الموقد لتأوي الى الظل مرتاحة اليه . ، وشرعست حرارة خانقة تهسب على نافذتي ، تحمل في طياتها رائحة غريبة كريهة في مزيج من فجل الربيع وجزره وما زلت اذكر ، حتى هذه الايام الحاضرة ، ان تلك الرائحة لم تكن تطاق ، وانها بعثت في نفسى مقدارا عظيما من كآبة لا مبرر لها ولا سبب .

كان المنظر مملا ، مملا حتى ليصعب احتماله ، فساذا بصدري يزدحم بشيء أشبه بالرصاص السائل ثقلا ، راح يضغط على أضلاعي حتى صور لي أنني سأنفجر مثل أناء مليء بالبخار ، تضيق تلك الغرغة الصغيرة الشبيهة بالنعش عن استيعابه.

وغجأة ، لمحت خالي ميخائيل يبرز من وراء احد المنازل الشهباء في زاوية الدرب المجانبي ، وقد غاص راسه في قبعته حتى الاذنين ، كان يرتدي معطفا قصيرا ، وحذائين يبلغان ركبتيه غطاهها المغبار تهاها ، وقد اختفست احدى يديه في جيب سرواله ، بينها أمسكت الاخرى بلحيته تشد عليها بحنق وغيظ ، ولم استطع أن أميز ملامح وجهه ، ولكن مظهره كان يوحي بانه يستعد لان يقفز حلال الشارع ، ويغمد مخالبه السوداء الملبئة بالشعر في منزل جدي ، وكان يجب على أن أهبط الدرج بسرعة لاخبرهم بمجيئه ، ولكني لم استطع سبيلا الى اننزاع نفسي بعيدا عن النافسذة ، بل رحت أراقبه يتقدم بحذر شديد ، يعبر الشارع وكأنه يخاف على حذائيه الرماديين أن يتسخا ، ومن ثم بلغ سمعي قرقعة الزجاج وصرير المفصلات وهو يفتح باب المحانة وينسل الى داخلها .

هبطت الدرج أربعا أربعا ، وطرقت باب غرفة جدي ، فصاح العجوز بخشونة دون أن يفتح الباب :

_ من هناك ؟ انت ؟ حسنا ؟ ادخل الى المحانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس ! عد من حيث أتيب

ــ انسى خائست ا . . .

ـ لا حيلة لى في ذلك ،

فرجعت ادراجي الى النافذة . . . كانت الظلمة قد ابتدات تنتشر ، فازداد غبار الطريق كثافة وسوادا . وتدحرجت من النوافذ اضواء مصفرة راحت تنتشر كبقع زيتية متزايدة الاتساع ، وتصاعد من المنزل المقابل ضجيع موسعى بعضها جميل مفرح ، وبعضها الاخر كثيب محزن . . وكان احدهم بغني في الحانة ، وكلما فتح الباب تناهى الى سمعي صوت منكسر متعب اعرف فيه صوت المتسول نيكيتوشكا الاعور ، وهو شيخ ملتح اغمضت عينه اليسرى ، بينما اشبهت اليمنى فلحمة حمراء تنفث لهبا . وكان اصطفاق يطفى على غنائه ، فنصمت الاغنية وكانها قطعت بضربة فاس قطعا مباغتا

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول ، وحيثها كانت تسمع اليه يغني تتنهد وتقسول:

ــ ما أسعده في هذه النغمة اذ يعرف جميع هذه الاغاني الرائعة !

وكانت تدعوه الى ساحتنا احيانا ، غيجلس على عتبة الباب مستندا الى عصاه ، يغني منظومات من الشمعر ، بينما تتبع جدتي بالقسرب منه تقاطعه بأسئلتها المتعددة :

ـــ اتعني انك تود أن تقول أن العذراء الطاهرة ظهرت في ريازان ؟ مكان يجيب واثقــا:

وزحنت على طول الشارع موجة من ضنى ناعس غير مشعور بها ضيقت الخناق على تلبي ، وراحت تعمل على اغلاق عيني ، لو أن جدتي تأتي نقط! او حتى جدي أيضا! أي رجل كان أبي حتى يبغضه خالاي وجدي هكذا ، في حبن تتحدث جدتي وجريجوري والمربية ينجينيا عنسه بكل ما هو جميسل ولطيف ؟ وأين هي والمدتسى ؟

اضحيت ، في المدة الاخيرة ، افكر فيها اكتسر فاكثر ، اتصورها بطلسة سائر قصص جدتي واساطيرها ، وكان صدوف امي عسن العيش مع عائلتها يكفي وحده ليرفع من قدرها في عيني ، ويضاعف من احترامي لها ، فأتخيل انها تحيا مع عصابة من قطاع الطرق في احد الحانسات ، يسرقون الاغنيساء ويوزعون ما نهبوه على الفقراء من الناس ، او لعلها تعيش في كهف في المغابة مع عصابة من اللصوص طيبي القلوب طبعا ، تطبخ لهم طعامهم وتحرس خهبهم المسروق ، او اني اراها هائمة على وجه الارض ، تضرب في ارجائها وتعدد كنوزها مثل ينجانيتشيفا « الاميرة اللصة » ، تصحبها العذراء المقدسة التي تهمس لها باستمرار ، كما كانت تفعل للاحيرة اللصة :

« أنا لم أجرد أرضنا عبثا ،

مما حواه كنزها الذهبي . .

يا من سرقت المسال لاهية ،

قومي ، واخني المعار ، وانتحبي ! »

فتجيبها والدتي بكلمات الاميرة الملصة:

« اغغري لي ، أم الالمه ، طموحسى ،

وارحبي نفسي ، واصفحي عن ذنوبي ! فأنا لم اسرقه بن اجل روحي ، انبا كسان لابنسى المحبوب ! »

وعندئذ تسامحها العذراء المقدسة ، وهي الني نحمل قلبا نتيا طيبا كتلب جدتى ، ونقول لها :

« دعي الكهف ، خارخارتي ، واخجلي ، وهيا اتركب الان اولئكا !
ولا تسرقي مال جارك الا
اذا كنت محتاجة ذلكا !
واياك ان تلعني أبدا ! ...

وغرقت في ذكريات هذه الاساطير كما يغرق المرء في حلم لذيذ عذب .
ولكن زعاقا ، وضجيجا ، وهتافات واردة من الحانة والساحة في الاسفسل
بعثتني من غفوتي ، فانحنيت على حافة النافذة لارى جدي ، والخال ياكوف،
وشخصا اخر من مستخدمي الحانسة تبعث هيئته على الضحك ، يدفعون
الخال ميخاثيل الثمل خلال البوابة الى الطريق . كان يشق طريقه متعثرا ،
فيركلونه ، ويلطمونه على الذراعين ، والقفا ، والكتفسين ، حتى ذهب اخيرا
بتدحرج في غبار الطريق . . . وأغلقت البوابة وارتجت بالمزلاج والمتراس ،
والمتي بقبعة الخال السكران من فوق الحاجز ، ثم اضحى كل شيء هادنا

وبعد أن أضطجع خالي ميخائيل المنهول المهلهل ساكنا قترة من الزمن. عاد قانتصب على قدميه ، وتناول حجرا من الارض قذف البوابة به محدثا بذلك دويا أشبه بصوت برميل فارغ على الارض ، فاندفع من الحانة أناس سود الوجوه ، يتزاحمون ويشرئبون باعناقهم وهم يحركون أذرعتهم فسي الفضاء ، كما أطلت بعض الرؤوس من نوافذ المنازل ، وأصبح الشارع يعج بالصياح والضحك . كان كل ذلك ساحرا حلوا كاحدى أساطه الجنيات ، لكن مزعجا في الوقت ذاته ، ومخوفا ايضا . . .

وعلى حين غرة انتهى كل شيء ، وانصرف الجميع ، وخيم السكون. . .

... وهذه جدتي متكورة على صندوق للثيساب ، محدودبسة الظهر ، عديمة المحركة ، تكاد لا تتنفس ، وأنا أقف قبالتها أربست على خديها المناعمين الداهنين النديين ، دون أن تلقي فيما يبدو ألى ذلك بالا ، وهي تتمتم بأسسة بأسياء كشيرة:

__ رباه العزيز ، الم يكن لديك ما يكني من المعقل لتوزعه علينا ، أنا واولادي ؟ رباه ، كن رحوما بنا . . .

. . .

احسب ان جدي لم يعشى في منزل بوليفوى اكثر من سنة واحدة سمن الربيع الى الربيع الى الربيع فقط ولكن المدار اكتسبت ، في تلك المدة القصيرة ، شهرة سينة للغاية ، فكان الصبية يأتون بوابتنا متراكضين متزاحمين ، في كل أحد نقريبا ، فيتجمهرون ويأخذون بالهتاف مبتهجين فرحين :

ـ هناك معركة جديدة في دار آل كاشرين !

وكان المخال ميخائيل يأتي ، بصورة عامة ، في كل مساء تقريبا ويبقى طوال الليل ، جاعلا من المنزل هدما لحصاره ، ومن سكانسه مريسة للقلق الدائسم

وغالبا ما يصطحب . عه مساعدين او ثلاثسة ، وهسم غتيان بائسون يستخدمهم في معمل كوناغينو ، غيتسلقون السور سويسة ، ويهبطون السي الحديقة حيث يطلقون العنان لما يمليه عليهم خالى الثمل ، غيقتلسون جذور الغرز ، والاغصان الخضراء ، وكل ما يقع في مساول ايديهسم ، وفي ذات مساء ، انقضوا على غرفة الغسيل يحطمون كل مايمكن تحطيمه غيها ، من الرفوف حتى المقاعد والقدور ، واخذوا معهم الموقد بعد أن اقتلعسوا بلاط الارض ، وخلعوا الباب وأخشاب النواغذ ،

وكان جدي يقف الى النافذة ، صامتا ، مكفهر الوجه ، يصغي اليهم وهم يدمرون ممتلكاته ، اما جدتي فتركض عبر الساحة ، حيث تغييب في الظلمة فلا يبلغنا منها سوى صوتها المتوسل .

- ميخائيل! فكر غيما تفعل ، يا ميخائيل!

منتلقى الجواب سلسلة من الاوساخ والشمتائسم الروسية البلهاء التي يتجاوز معناها ، من دون ادنى ريب ، المهام ومشماعر تلك الحيوانات التي تقسىء بها .

لم يتبادر الى ذهني أبدا أن الحق بجدتي في مثل نلك اللحظات : كان دلك مستحيلا ، ولكن البقاء دونها أمر مرعب حقا ، مامضي الى غرمة جدي ، ولكنه يزعق في وجهي بقسوة :

_ اخرج من هذا ، ايها الملعسون!

فأسرع الى الطابق العلوي ، اتفرس في ظلمة الحديقة ، مثبتا بصري في جدتي ، ساعيا الا تضبعها عيناي ، وأنا أصيح وأناديها خوفا من أن يفتكوا بها . ولكنها تأبى الرجوع ، بينما بطلق خالى الثمل على أمى ، لدى سماعه صوتى ، كل ما في جعبته العامرة من الشتائم الدنسة والسباب البذىء .

وحدث ان مرض حدي ذات مساء ، فتمدد في فرائسه وراح يعول بشكل يقطع بباط القلب ، وهو يؤرجح راسه الى الامام والخلف فوق الوسادة :

_ اهذا ما عشب له ، واخطأت من أجله ، وادخرت ألمال في سبيله ؟ لولا الخوف من العار لاستدعبت الشرطة ، وسقتهم أمام المحكمة . . . يسا للفضيحة ! من ذا الذي سمع أبوين يسلمان أولادهما للشرطة ؟ لم يبق أمامك أذن ، أيها العجوز ، ألا أن تتحمل كل شيء أو تظلل مضطجعا هنا دون حساك ! . . .

وغجاة رمى قدميه عن حافة السرير ، ومضى يحسب الى النافدة . فصاحت جدتى ، وقد أمسكت به من ذراعه :

_ قف ، الى ابن انت ذاهب ؟

مُأْمِرِهَا ، وهو يكاد يختنــق:

ــ اعطنی تندیـــلا!

ماشعلت جدتى شمعة قدمتها اليه ، فأمسك بها كالجنسدى اذ يمسك

بندقيته ، وصاح هازئا من خلال النافذة :

_ تفو ، مبتسكا ! يا سارق الليل ! ايها المجنون ! ايها الكلب المستكلف !

ماذا بلوح من زجاج النافذة يتهشم في اللحظة نفسها ، وتقع نصف آجرة
على المائدة قرب جدتي ، فهتف جدي في حالة لم ادر على الضبط ان كانت بكاء
أم ضحكا :

_ لقد اخطات الهدف !

مالتقطته جدتي بين ذراعيها كما تفعل بي ، واحتملته الى السرير ، وهي مغمغم بصوت مرنجف :

ــ ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو حدث شيء لكانــت سيبيريا تنتظــره! اتظنه يدرك ماذا تعنى سيبيريا عندما يكون في متل هذه الحال ؟

واضطجع الجد ، ترتجف ساقاه ، وهو يبكي بصوت خشن :

- فليقتلنسي ٠٠٠

ودندف من الخارج صوت زمجرة وغضب وصخب . . . ماختطفت تطعة الاجر عن الطاولة ، وركضت الى الناغذة . . . ولكن جدتي المسكت بي ، ودنعننى الى الزاوية ، وهي تفسح :

_ أبها الابله الصغير!

وفي مرة ثانية تسلق خالى الباب الخلفي ، وشرع يضرب عليه بهراوة غلبظة ، ووقف جدي في الصالة ينتظره ، يعضده اثنان من الجيرة ، يحمل كل منهم هراوة في احدى يديه ، وكانت هناك أيضا زوج صاحب الحات البدينة ، تحمل حبلا طوب لا مدورا ، أما جدتني فقد وقفت خلف الجميع تتوسل :

- دعوني أصل اليه . . . دعوني اقل له كلمة واحدة . . .

ورنع جدي هراوته متهيئا لكل طارىء ، وقسد مد قدما الى الامسام ، فاضحى بذلك شبيها بالفلاح حامل الرمح في لوحة « صياد الدببة » . وعندما

مضت جدتي اليه دفعها عنه ، بصبت ، بقدمه ومرفقه . . . كانوا ، أربعتهم، يتفون في وضع وعيد ، وتهديد ، وارتقاب . . . وكان قنديل مثبت في الحائط فوق رؤوسهم يضيء وجوههم بشعاعاته المتلونة . أما أنا غوقفت أراقب ذلك من الطابق العلوي ، تفعمني الرغبة في أن أخطف جدتي الى جانبي ، بعيدا عن ذلك المكان المرعب .

ظل خالي يضرب الباب ثائرا ، حتى تحطمت مفصلته السفلية وانهارت فتركته معلقا بالمفصلة العلوية وحدها ، وهي الاخرى تهدد بالانهيسار بين لحظة واخرى ، واتجه جدى الى معاضديه ، وقال لهم بذات الصوت المتكسر:

ـ اضربوه على بديه وساتيه ، وحذار من اصابته في رأسه . انتبهوا !

كان بالقرب من الباب نافذة صغير قالا تسمح لاكثر من الراس بالرور من خلالها ، فكسر خالي زجاجها ، وتركها فاغرة فاها في الظلمة ، مزركثمة بشيظايا الزجاج المكسور كعين مقلوعة ، فركضت جدتي الى هذه النافذة ودفعت يديها خلالها ، ولوحت بهما لميخائيل وهي تقول :

ــ ميشا ، بحق المسيح ، أرجع من حيث أتيت ! سيعطلون أحد أعضائك أن بقيت ! أرجع ا

ولكنه ضربها بهراوته . . . واستطعت أن ارى شيئا ثقيلا يومض قرب الناهذة يصيب ذراعها ، هاذا بها تسقط على الارض ، وهي تصيح مرة ثانية:

ــ میشا ، اهـرب ...

ثم تكومت على نفسها ، وصمتت ...

وصرخ جدي ، في صوت مخوف :

- To ... اماه!

وغتح الباب ، واندفع خالى ميخائيل منه المى الداخل ، ولكنه سرعان لها ترنح وسقط على العتبة كتفة من طسين .

وحملت زوج صاحب الحان البدينة جدتي الى غرفة جدي حيث تبعها

سأل مغتما ، وقد انحنى عليها :

_ هل كسر العظـم ؟

المابت ، دون ان تغتج عينيها :

ــ يبدو كذلك ! ولكن ، ماذا فعلنم به ــ ماذا فعلتم به ؟

نصاح الجد غضبا:

ــ استردي عقلك ، يا امراة ! اتظنين اننى وحش مفترس ؟ لقد قيدناه، وهو يضطجع الان في الخارج ، في الاسطبل ، لقد صببت سطلا من الماء على وجهه ، . . ، يا لذلك الشيطان الذي انجبته ! ترى من اين جئت به ؟

فتأوهست جدتي ٠٠٠

وقال جدي ، و هو يجلس الى جانبها على السرير:

- لقد أرسلت في طلب المجبرة ، حاولي أن تتحملي ذلك بعض الوقت. انهما سيحملان الموت الينا ، يا أماه ! أنهما سيؤديان بنا الى المقبرة قبل أن بحين أجلنا !

_ اعطهما كل شيء .

ــ و فار فــار ا ؟

استمرا في الحوار مدة طويلة ، جدتم بصوتها الهادىء الحزيسن ، وجدي بصوته النزق الغاضب .

وأخيرا ، ظهرت امراة صغيرة حدباء ، يمتد غمها من الاذن الى الاذن ، مغتوحا أبدا كغم السمكة غوق مكها الاسفل الذي يرتجسف دون انقطساع ، يشطر منذر حاد بارز شفتيها العليا حتى لميخيل الى المناظر اليه انه يسمعى الى الارتماء في احضان الجوف الفاغر غاه ، أما عيناها فصغيرتان غائرتان ، تستحيل رؤيتهما ، ولم تكن تهشي ، بل تزحف بالاحسرى على الارض متكئة على عكازين ، وهي تحمل في احدى يديها حزمة صغيرة يصدر عنها رنسين غريب مده .

ظننت انها الموت يزحف نحو جدتي ، فاندفعت الميها اصبح بكل ما في من شوة :

- اخرجي من هنا!

لكن جدي اختطفني ، وحملنى بين ذراعيه ، وصعد بي الى العلاسق العلسوي .

أدركت في وقت مبكر جدا أن اله جدي يختلسف كل الاختلاف عن السه جدتي ، فقد كانت هذه الجدة ، بعد أن تستيقظ صباحا ، تظل في السرير مدة طويلة تمشيط شيعرها المدهش ، فيهتز راسها ، وتصر اسنانها ، وهي نسرح خصله الحريرية السود الطويلة ، وتلعنها بصوت خفيض خشية ايقاظي :

فليصبك الجدري ٠٠٠ فليصبك الطاعون ٠٠٠ فلتحل اللعنة عليك ٠٠

وكانت تصدف احبانا عن تصفيفه فتجمعه ، دون عناية ، في جديلسة - واحدة ، ونعجل بالاغتسال ، وجمجمة غضب تند عنها طروال الوقت ، ثم نجثو تجاه الايقونات دون ان يمحي عن وجهها العريض ما ارتسم عليه من آثار الغيظ والنوم ، وعندئذ يبدا اغتسالها الحقيقي الصباحي الذي ينعشها تماما ، ويرد عليها ، بصورة مفاجئة ، حيويتها كاملة غير منقوصة ، . . واذا بها تقوم عمودها الفقري ، وتشمخ براسها الى المسلاء ، وترمي به السي الخلف تليلا ، وترنو بحنان الى وجه عذراء تازان الدور ، ومسن ثم ترسم السارة الصليب بحماسة زائدة وهي تهمس :

- أيتها المعذراء المباركة ، يا لم الاله المجيدة ، امنحينا بركاتك في هذا اليوم الجديد

ثم تنحنى حتى تلامس جبهتها الارض ، ومن ثم تنهض ببطء ، وتعمود تهمس في حمية عظيمة ، وحنان متزايد أبدا :

ــ يا ينبوع السعادة والنهرح ، أيها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح في أوج ازدهارهــا . . .

كانت تجد في كل صباح كلمات جديدة من المديح والعبادة ، مما يجعلني

115

اعنى بصلوامها ، فأعيرها أذنى بانتباه ذائد :

_ أيها المقلب العزيز الفائق الطهارة والالوهية ... يا ضياء نفسي ، بإ حارسة مأواي ، يا شمس السماء البهية الذهبية ، يا أم الحبيبة ، انقذينا من تجارب الشيطان الماكر ، واحميني من أن أهين أحدا ، أو أتلقى الاهانة من أي انسان دون ضرورة أو فائدة

وتبرق ابتسامة لطبقة في عينيها السوداوين ، فيخيل المي انها تستعيد صباها وشبابها ، ثم ترسم اشارة الصليب بحركة رزينة من يدها الثقيلة ، وتستطرد:

_ يا يسوع الحبيب ، يا ابن الله ، ارحمني انا الخاطئسة بشناعسة والدتك الطاهرة . . .

كانت صلواتها ، دوما ، ذبائح من التمجيد والثناء ، تصدر عن تلب نقي ساذج طاهر . . . ولم تكن تطيل صلاة الصباح كثيرا ، اذ لا بسد من القيام الى اعمال البيت ، وفي المحل الاول تهيئة السماور ما دام جسدي قد استغنى عن معونة الخدم ، فاذا حدث ان تأخرشاي الصباح عسن الموعد المحسدد كافاها جدى بسيل من اللوم والتقريع لا ينتهى .

كان يستيقظ ، في كثير من الاحايين ، قبل جدتى ، فيصعد اليها فسي الطابق العلوي حيث يجدها غارقة في صلواتها ، فيرهف السمع بعض الوقت في سكون ، وقد تراقصت على شفتيه الضيقتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها سفيا بعد حوندن نتناول طعام الافطار :

- كم مرة علمتك الصلاة ، ايتها الغبية المجسوز ؟ ومع ذلك فانست تصرين ، في عناد ، على تلاوة سخافات من ابتكارك كما يفعل الهراطقة تماما! كبق يستطيع الله ان يرضى بذلك ؟ هذا ما يفوق ادراكي !

فتجيب جدتي في ثقسة:

- أما هو فيفهم . . . فالمرء يستطيع أن يقول له كل ما بشاء ، وهو بفهمه بكل تأكيد . . .

ــ انك لمجنونة ، تلك هي حقيقتك ! تفسو!

كان الهها يصحبها طوال اليوم ، حتى انها تحدث الحيوانسات عنه .

وكنت اشعر أن سائر المخلوقات ، من بشر ، وكسلاب ، وطيور ، ونحسل ، وحتى النباتات أيضا ، تخضع لذلك الالمه القادر على كل شيء في غير عسر او صعوبة ، اذ كان لطيفا لكل حي على الارض ، وعزيزا عليه بالتالي .

وحدث ، ذات يوم ، ان قط زوجة صاحب الحان المدلل ـ وهو حيوان شرير ، سيء الطباع ، رمادي اللون ، ذهبي العينين ، يحبه الجميع بالرغم من انه خبيث متملق ، ولص اكول جشع بالاضافة ـ حدث ان هذا القط اصطاد احد الزرازير ، فانتزعت منه جدتي الطائر المسكين ، واتجهت اليه غاضبة توبخه بقولها :

الملست تخلف الله ، ايها الحيوان الشنيع ؟ تلك هي مصيبتك ، ايها المائسين !

غضحك البواب وزوج صاحب الحان البدينة من جدتي لهذه الكلمات ، ولكنها صاحت فيهما بنسزق :

_ اتظنان أن الحيوانات لا تعرف الله ؟ ان الله على المحيوانات لا تعرفه كما تعرفانه ، انتما إيها المخلوقان الفظان !

وعندما كانت تسرج الحصان « ساراب » السمين ، لم تكن تتأخر عن النحدث اليسه :

ــ لم انت حزبن هكذا ؟ لم انت حزين هكذا ، يا خادم الله ؟ لقد هرمت على ما اعتقــد ؟ . . .

فيزغر الحصان ويهز رأسه ...

ولكن اسم المولى ، بالرغم من ذلك كله ، لم يكن يتسردد على شغتيها بمقدار ما كان جدي ينطق به . ولقد اصبحت الهم اله جدتسي ، غلم يعسد يخيفني البتة ، ومع ذلك كنت لا استطيع الكذب في حضرته : تلك تكون نضيحة اذن ! واتقاء لمهذا المعار لم اكذب على جدتي أبدا . ولقد كان بستحيل تماما، بالاضافة ، اخفاء اي شيء عن ذلك الاله اللطيف ، وفي ذكرياتي اني لم اشعر قط يميل الى ذلك .

وحدث مرة ان تخاصم جدي وزوج صاحب الحان ، فشملت هذه جدتي البريئة في تدحها وذمها ، لا بل بلغ الامر بها ان ضربتها بجزرة كبسيرة ، فلم نفعل جدتى اكثر من ان قالت لها :

_ انك حمقاء ، يا سيدتي العظيمة!

ولكني استأت كثيرا من تصرف تلك المراة تجاه جدتي ، وقررت ان اتأر لها . . . فظللت ، مدة طويلة ، انتش عن احسن طريقة أنال بها من تلك المراة المبدينة ، الحمراء الراس ، المزدوجة الذهن ، والتسبي كان يستحيسل على الانسان ان يرى عينيها الفارقتين في كتل الشحم الكثيفة .

كنت اعرف ، من مراقبتي لسائر مراحل الحروب المهلكة التي تنشيب بين الجيران ، ان الثار يكهون عادة اما بقطع اذناب القطط ، او تسميسم الكلاب ، او قتل الفراخ الصغيرة ، او التسلل الى اقبية العدو ليسلا وصب الكاز في براميل مخال الخيار والملفوف واواني المؤونة ، او نزع السدادات عن براميل الكفاس الصغيرة ، ولكن هذه الطرق لم ترق لي : كان لا بد من مختراع شيء جديد اكثر تأثيرا ، واشد هولا .

واخيرا قر رايي على التدبير التالي: انتظرت مسرة زوج صاحب الحان البدينة حتى سعت الى القبو طلبا لحاجة ما ، فاغلقت الباب خلفها واقفلته ، ومن بم النفعت وقمت برقصة الثار عنده ، ثم القيت بالمفتاح على السنة ، ومن ثم اندفعت باقصى سرعة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام ، ولم تفهم بادىء الامر سببا لحماستي ، حتى اذا اكتشفست ذلك صفعتنسي عدة مسرات على الاماكن المعبنة لهذا الغرض ، ثم جرتني الى الساحة وارسلتني الى السطح طلبا المفتاح ، فجئت به صامتا ، مذهولا من هذه الخاتمة غير المنتظرة ، ثم هربت الى احدى زوايا الساحة ، حيث رحت اراقب جدتي تطلق سراح الاسيرة التي جاعت الى برفقتها ، وكلتاهما تضحكان برقة ، فكانهما صديقتان ،

وهددتني زوج صاحب الحان البدينة ، وهي تهز قبضتها الغليظة هسي وجهي ، وان ظل وجهها الابله يبتسم بلطف وحنان ووداعة :

ــ سوف انتقم منك يوما ما ، ايها العفريت الصغير !

وجرتني جدتي من عنقي ، وقادتني حتى المطبخ ، وسالت :

_ لم معلت ذلك؟

ــ الم تضربك بجزرة ؟

— آها . . . لقد فعلت ذلك من اجلي اذن ؛ اليس كذلك ؟ ساحفظ ذلك لك ؛ ابها الصغير ؛ فارميك تحت الموقد بصحبة الفيران ؛ وعندئذ تسترد بعض الاحساس ! لقد جعلت من نفسك فارسا اذن ! تعالوا يا قوم وانظروا هذه المفتاعة قبل أن تغفجر ! . . . ولو اخبرت جدك بذلك ؛ المان يسلمخ الجلد عن تفاك ؟ هيا ؛ اسرع الى الطابق العلوي الان والمق نظرة على كتبسك

لم تحدثني أبدا بقية ذلك النهار ، لكنها جلست مساء ، قبل ان تجثو للسلاة ، على هاءة سريري ، وقالت هذه الكلمات التي لن انساها :

- اصغ ، ايها الطير الصغير ، وتذكر دوما ما ساتول الله : لا تتدخل ابدا في امور الكبار ، فالكبار جماعة شريرة مفسودة امتحنتها المعبرات والتجارب ، أما انت فضعيف بعد ، وعليك اذن ان تعيش حسب سنك الصغيرة ومعلوماتك الحاضرة ، وتتصرف حسب ما يمليه عليك قلبك الطاهر حتى يجد الرب من الموافق ان يلمس قلبك ، ويبين لك واجبك ، ويقودك الى الدرب التي يجب ان تسير عليها . . . افاهم انت ؟ فالله يحكم ويقتص ، وذلك شانه وليس شانفا ! اما من يستحق اللهم على هذا الامر او ذاك فليس من شانك اسدا !

والتجأت الى الصمت لحظة استنشقت خلالها بعض السعبوط ، ثم ضيقت عينها البمنى ، وإضافت :

ــ واؤكد لكان الله نفسه يصعب عليه ، في اغلب الاحيان ، ان يميز البرىء من المنسب . . .

مسألت مذهولا:

ــ لم ، الا يعرف الله كل شسىء ؟

فأجابت بكآبسة:

-- انه لو كان يعرف كل شيء ، اذن لامتنع الناس عن ارتكاب العديد من الامور . انه يجلس هناك في السماء ، يراقبنا نحن الخطاه على الارض، وكثيرا ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتأوه ويقول : ٥٦ ، يا ابنائي ، يا ابنائي الاحباء المساكين ١٠ لكم يتألم من اجلكم قلبي ا

وبكت بدورها ، ثم مضست ، دون أن تجفف عينيها ، الى زاويسة الابقونات وشرعت بالصلاة ٠٠٠

ومنذ ذلك الحين ، امسى الهها عزيزا على قلبي وغاليا اكثر من ذي قبل ، واقرب الى ادراكي وغهمي ايضا ٠٠٠

• • •

كان جدي يعلمني في دروسه ان الله يعرف كل شيء ، ويرى كل شيء ويوجد. في كل مكان ، وهو على استعداد لمساعدة النساس في سانر مشاكلهم الطارئة ، ولكنه كان يصلي باسلوب يختلف كثيرا عن اسلوب صلاة زوجه مد ، فهو ، قبل ان يتلو صلاته صباحا ، يغتسل بعناية ويرتدي ثيابه ، ويصفف شعر راسه ولحيته الدمراء بتأنق هائق ، ولا يتجه نحو زاوية الايقونات — الامر الذي يفعله خلسة دوما فيما يصور لي سم الا بعد ان يصلح من وضع قميصه امام المرآة ، ويعقد ربطة عنقه السوداء فسوق صدريته الناصعسة البياض وكان يقف ، على الدوام ، في ذات البقعة من الارض الخشبية حيث تركت اقدامه اثرا يشبه عين الحصان الى حد بعيد ، فيسمسر ذراعيه الى جانبيه كالجندي ، ويظل فترة من الوقت غارقا في بحر من الصحت عميق ، خاشع الراس ، منتصب القامة ، نحيل الجسد ، اشبسه ما يكون بمسمار خاشع بتأشس :

ــ باسم الاب والابن والروح القدس!

وكان يخيل الي ان سكونا خاصا يرين على الغرغة بعد تلك الكلمات ــ حتى ان الذباب نفسه يروح يوز بهدوء اعظم ! . . .

ويرمي براسه الى الخلف حنى توازي لحيته الذهبية الارض ، ويعقد ما بين حاجبيه ، ويأخذ بتلاوة صلواته بصوت رزين وكانسه يستعيد أمثولة عليه ان يحفظها عن ظهر قلب ، وهو يشدد على الكلمات كمن يضن بها :

سد وسيجيء يوم الحساب ، على غير انتظار ، وعندها تنكشف اعمال البشر ...

ويشرع يضرب مدره بلطف ، ثم يلتمس قائلا:

ــ قدام وجهك ، قدام وجهك وحدك اخطأت ... فاصرف وجهك عن خطاياً كالله من الماد ا

واذ ينلو « دستور الايمان » تنطلق الكلمات من نيسه باندناع وعسزم وتأخذ ساقه اليمنى بالارتجاف زمنا طويلا ، ويميسل جسده كله في اتجساه الايتونات ، ويبدو كما لو كان يكبر ، وينحل ، ويقسو . . .

ــ انت ، يا من ولدت المخلص العظيم ، طهري قلبي من جميع الخطايا واصفى الى انين نفسى ، واغفري لى يا ام الاله الطاهرة!

ثم يبكي بهدوء 6 وتلتمع الدموع في عينيه الخضراوين :

_ يا الهي ، دع ايماني ينب عن اعمالي ، وامح كل مآثمي ...

ومن بعد يرسم شارة الصليب عدة مرات ، بسرعة وارتعاش ، ويحني راسه مثل تيس يناطح ، ويتحدث بصوت باك كثيب ، ، ، وعندمسا سنحت لي الفرصة ، فيما بعد ، لزيارة مجامع اليهود ، ادركت أن جدي لا يختلف في صلاته عن أحد الاسرائيليين . . .

كان السماور يغلي منذ زمن بعيد على الطاولة ، وقد امتلأت الغرفة برائحة كمك الجاودار الحار والقشيطة الطازجية ، ان معدتي لتعوي من الجوع ، ، . وقد وقفت جدتي مستندة الى الباب تتشاعب وتكثير ، ترنو الى الارض لا تحيد بنظراتها عنها ، والشمس تطل جذلانية فرحانة من خيلال النافذة ، والندى يتضوأ كاللؤلؤ على الاشتجار ، ونسيم الصباح العليل يحمل رائحة طرية من نبات الشمار ، والزبيب ، والتفاح الناضج ،

ولكن جدي يتابع عويله ونواحه ، وهو يتلو صلواته :

ــ اطفىء نار اهوائي لانني بائس ملعون !

كنت احفظ صلاة السحر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب عن ظهر قلب ، ولذا كثب اتأثره بانتباه مركزا املا في ان يخطىء مسرة او ينقص منها شيئا ، ولو كلمة واحدة مقط ، وكانت تلك المعرص نادرة جدا ، ولكنها توقظ مى دوما احساسا خبيثا بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، يلتفت الينا ، ويلقي السلام :

_ انعهتها صباحـا ا

. . . فننحنى ، ثم نتخذ الماكننا من المائدة

قلت مرة ، وقد استدرت ناحيته :

- لقد اسقطت الميوم كلمة « يكفيني » من صلاتك .

نسال مرتابسا:

ـ بعنقا ا اواثق انك لا تكذب ا

ــ نعم! كان يجب ان تقول: « ولكن ايماني بكنيني ماستفني بكل نسيء . . . » . ولكنك السقطت كلهة يكفيني .

نقال ، وهو يطرف شررا:

_ هــم ا.

كنت ادمع غاليا ثمن ملاحظاتي هذه ، ولكنني اشمعر بالظفر والطالم اجده متضايقا مرتبكا .

وذات يوم ، قالت جدتي مازهــة :

ـــ لا ريب ان الاستماع الى صلواتك امر يبعث على الملل بالنسب الله ، با ابناه ! فاتت تردد دوما الاشياء نفسها .

نتشدق بكلامه متوعسدا:

ــ م . . . ا . . . ذا ؟ بماذا تهذرين ؟

- اقول اني لم اسمعك ، منذ معرفتي بك حتى اليوم ، تخاطب بكلمة واحدة من عندك صادرة عن تلبك

فاحمر وجهه ، واخذ يرتجف فوق مقعده ويرقص ، ثم يقفز على ورماها باحد الصحون الصغيرة ، وطفق يزعق كمنشار يقطع زجاجا :

- اخرجي من هنا ، ايتها الساحرة العجوز!

كان كلما حدثني عن قوة الله التي لا تقهر ، يشدد في الدرجة على قسوته وهول غضبه ، مثلا ، ان الناس قد اخطاوا مرة غاغرتهم في الطوفان ، واخطأوا مرة ثانية فاحرق الله مدنهم ودمرها ، وفي مرة ثعرقبوا بالمجاعة والطاعون فوق رؤوس الاشرار .

كان يحذرني ، وهو يقرع الطاولة باصبعه المنعظمة :

ــ ان كل من يخرق قوانين الله لا بد ان تكون عاقبتــه سيئة - غيدل الشيقاء والخراب في داره .

وكان الايمان بقسوة الله يصعب علي جدا ، فارناب في ان جدي يضلف تلك الاحاديث ليبعث في ليس مخافة الله ، بل مخافته هو . . .

سألنه بصراحة ذات يسوم:

ـ اتخبرني بهذه الامور لتجعلني اطبعك وحدك ؟

فاجاب بصراحة مماثلسة:

- بالطبع ! ان شببنا عظيما سيحدث ان لم تطع . . .

ــ ولكن جدتــي ٠٠٠٠

فأجساب بحدة:

__ لا تلق بالا لتلك الحمقاء . لقد كانت طوال حياتها مجنونة ، جاهلة ، عديمة الحس السليم ، امية . . . وسأمنعها من التحدث اليك بمثل هذه الاشياء المهامة . والان ، اجبب على هذا السؤال : كسم طبقة يوجد بسين الملائكية ؟

غاجبت ، ثم سألت:

_ ماذا تعنى هذه الكلمات : « فرد من الطبقة الراقية » ؟

المنفخ بمنخره ، اسبل جانيه ، وعض شافته ، وصاح :

ــ أيجب أن تلم بكل شيء ؟

ثم شرح لي ذلك ، بعد لحظة تصيرة ، بصوت متردد :

- ان ذلك لا يتعلق بالله ، بل هو من خصائص البشر - افراد مسن الطبقة الراقية - انهم امثال موظفي الحكومة ، فالموظف هو احد الذيت يعيشون من القوانين ويلتهمونها ...

س اية توانين أ وما هو المانون أ

فأجاب الشيخ ، وقد ومضت عيناه الحادتان النديتان باللذة :

- المقانون ؟ انه ، على حد تعبيرهم ، النسيء الذي يتخذه الناس عادة . فالناس يعيشون سوية ، ويتفقون نيما بينهم على ان هذا الاسلوب او ذاك ، مثلا ، اغضل ما يسيرون عليه في التعامل مع بعضهم البعض ، ولذلك يتخذون منه عادة ، ويجعلون منه قاعده ، او قانونا كما يسمونه ، مثلهم في ذلك مثل جماعة من الصبيان يتجمهرون ليلعبوا لعبة ما ، ويقررون بسين بعضهم كيف سيلعبون ، نهذا الذي يقررونه يسمونه القانون ،

ــ والموظفسون ؟

ــ انهم يشبهون الاولاد الشريرين الذين يخرقون القانون ، مع ان حراسته اوكلت اليهـم .

سرولسم ؟

فقال ، وهو يزمجر :

ــ ذلك ما لا تقدر أن تفهمه ! أنك أصغر من أن تعرف هذه الأمور ثم بعود ألى متابعة الدرس :

ــ ان الله يراقب اعمال الجميع ، وهم يريدون شيئا ، وهو يريد شيئا اخر ، ولكن ارادة الانسان مزعزعة سريعة العطب ، ويكفي ان ينفخ الرب عليها حتى يتبدد كل شيء مع الريح فكانه الهباء المنثور .

كانت هناك عدة أسياب هامة تدفعني الى الاهتمسام بالموظفين ، ولذا تشبثت بوجهة نظري ، وعدت الى الكر قائلا :

ــ ان هناك اغنية يرددها الخال ياكوت تقول: « الملائكة الابرار هم خدم الله . . . وموظفو الحكومة هم عبيد الشيطان! » .

ناغلق جدي عينيه ، ووضع لحيته في راحة يديه ثم دنعها في نمسه . كنت أستطيع ان الحظ ، من ارتجاف خديه ، انه يضحك في سره ، قال :

ــ يجب أن توضع أنت والحال ياكوف في كيس من الخيش ثم يلتى بكما في النهر . ما شائله حتى يغنى مثل هذه الاغنيات ، وما شائك حتى تستمع

المهد ؟ انها دعايات وضعها الهراطقة والمنشقون عن الكنيسة ــ وهم جماعة

ثم حملق في لحظة ، وأضاف وهو بتنهد:

_ تفو ! يا لهم من قوم !

كان يضع الهه عاليافي السماء ، يشرف من هنساك على سائر اعمال البشر ، ويشركه مع ذلك في سائر اعماله ، مع عدد لا يحصى من القديسين ، وكذلك كانت تفعل جدتي بالهها الخاص ، وان كانت تجهسل ، غيما يبدو ، القديسين جميعا ، اللهم الا نيقولاوس ، وجاورجيوس ، وفرولا ، ولعازر ، وهم جميعا لطفاء طيبون ، قضوا حياتهم في التنقل من قربة الى قرية ، ومن مدينة الى مدينة ، يساعدون الناس ويقاسمونهم مصائبهم فلا يختلفون عنهم مي شيء ، ولا ينميزون بأي عمل متفوق ، وبالمقابل ، كان سائر قديسي جدي من الشهداء الذين حطموا التماثيل ، وقاموا ضد القياصرة واباطرة روما ، من الشهداء الذين حطموا المازوق ، او سلخ جلدهم عنهم وهم احياء .

ــ لو يساعدني الله نابيع هذه الدار بربح خمسمائة روبلا ، اذن لاقمت قداسا احتفاليا للقديس نيتولاوس!

متضحك جدتى ، وتهمس في أذني:

_ يا لذلك الاحمق المعجوز! ايظن أن لا عمل لنيق ولاوس ألا أن يبيع المنازل له ويبتاعها ؟!

بقيت طويلا محتفظا بتقويسم جسدي الكنسي ، وقسد كتب في حواشيه ملاحظات متباينة بخط يده ، فغي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنة مثلا ، كتب بالحبر الاحمر : «لقد تخلصنا ، بفضلهما ، من بلية عظيمة » ، ، ، وأنا أذكر حقيقة تلك «البلية » . . فقد أخذ جدي يتعامل بالربسا خفية ليساعد ولديه اللذين أخذت أعمالهما تسوء يوما بعد يوم ، ويأخسذ لقاء ذلك بعض الحاجيات الثمينة رهنا وضمانة . . . فوشى به أحدهم إلى الشرطة التسي هاجمت الدار ، ذات مساء ، وقامت بتفتيشها . . . وكان هرج عظيم ، ولكن كل شيء انتهى على خير وجه من حسن الحظ ، وظل جدي يصلي حتى بزغ

النجر ، وفي الصباح ، قبل طعام الافطار ، كتب تلك الكلمات على النقود بحضورى .

* * * .

كنا نقرا معا ، قبل العشاء ، فصولا من الزامسير ، او متطوعات مر كتاب الصلوات ، او صفحات من مجلد ضخم من تأليف يفريم سيرين ، فاذا ، انتهينا من العشاء ، عاد يصلي ثانية ، فتغثال كلمات توبته المطردة النف زمنا طويلا ، في سكون المساء ، على وتيرة واحدة :

ــ الرب وحده اعطى ، الرب وحده اخذ . . . ايها الملك المبجد الذي يموت . . . لا تدخلنا في التجربة . . نجنا من الشرير . . ولتحلني دموعي مر خطيئتمي

وكانت جدتى تقاطعه في أغلب الاحيان بقولها :

ــ اوه ، كم أنا متعبة ! يبدو أني سأزحـف الى الفراش دون أن أتل حلاتي هذه الليلــة !

ومما لا ربب فيه انني لم احسن هنا التعبير عن ذلك التمييز الصبيانم الذي الممته بين الالهين ، بل اعطيت عنه بالاحرى صورة المرب الى السخة والعبث ، وعلى كل حال فان هذا التمييسز سبب لي ، فيما بعد ، اللسي الكثير من النزاع الروحي ، فأنا أخاف اله جدي واكرهه ، هذا الذي لا يحب أحدا ، بل يسلط عينا حادة على سائر البشر ، وينصرف اهتمامه ، قبل كل شيء ، الى اكتشاف الشر والخطيئة والرذيلسة في الانسان ، وكنت اشمع بوضوح انه لا يؤمن بالناس او يثق بهم ابدا ، بل هو ينتظر منهم دوما التوبة، ويبتهج كثيرا اذ ينزل عقابه المصارم بهسم ...

وفي تلك الايام ، كان التفكير في الله يؤلف غذاء نفسي الرئيسي ، فهسو المجمال الوحيد الذي لقيته في هذه الحياة ، بينا سائر الانطباعسات الاخرى تصدمني ، او تؤلمني بما فيها من رذيلة ووحشية ، ان الله سـ واعني به الما جدتي وصديق كل حي على الارضسلابهي وافضل من كل شيء اخر يحيط به .

والمغريب حقا ، وهذا ما كنت أعجز عن نهمه ، أن يمبى جدي عن هذا الاله الطيب القلب . . .

كان النزول الى الشارع محروضا علي لفرط ما كان يثيرني ، لا بسل يسكرنى ان صح هذا التعبير ، وقد كنت فيه محور الفضائح التي منشؤها حميتى ، وميلي الى القنال ، وعصياني الدائب ، ولذا لم ارب صداقات ابدا، بل كان سائر ابناء الجيران يناصبونني العداء ، وعندما لاحظوا اني اكره ان ادعى كاشرين ، اصبحوا يتلذذون باغاظتي فينادونني بذلك الاسم كلما لمحوني من بعبد او قريسه :

_ ها هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك البخيل العجوز ، آت الينا ! انظروا ! _ اروسوه ارضا !

وعندها تبدأ المعركة ٠٠٠

كنت قويا بالنسبة الى عمري ، ومقاتلا جريئا ، ، ، حتى اعدائي كانوا بسلمون بذلك ، فلا يهاجمونني الا مجتمعين ، فيتغلبون على على الدوام بكثرتهم ، وانال من لكماتهم الشيء الكثير ، واعود الى الدار بانف نازف ، وشفتين مجروحتين ، ووجه مكلوم ، وثباب معزقة ، ، ،

وفي البيت تستقبلني جدتي ، مرتجفة ، يغيض الحنان منها :

__ ماذا ؟ أحاربت ثانية ، أيها الجرد الصغير ؟ سأطعمك من الضرب ما لن تنساه ! غمن أين أبسدا ؟

وتغسل وجهي ، نم تضع قطعت من العملة النحاسية ، او بعض الاعشاب ، او الاملاح الخاصة ، على جروحي وهي تدمدم طوال الوقت :

ــ ما الذي يدفعك الى القتال هكـذا ؟ انت في الببت طفل هـادىء › ولكنك تنقلب عفريتا عندما تضع رجليك في الشارع . هلا تخجل ؟ سأخبر جدك فيحظر علبك بعد الان الخروج من البيت .

وكان جدي يلاحظ آثار الضرب والجروح غلا يغضب ، بـل يقول بكل بساطــة :

ــ هل ارتدیت اوسمتك مرة ثانیة ؟ یا للمحارب الشجاع! لكن ، ایاك ان تسمح لي بمفاجاتك في الشارع مرة أخرى ، اتسمع ؟

لمتكن لى رغبة في الخروج الى الشارع حسين يخيم الهدوء والسلام

عليه ، غاذا ما بلغتني صيحات الاطفال المرحة ترتفع فيه ، نسبت تهديد الجد ووعيده ، وافلت من ساحة الدار بأي ثمن كان ، ولم أكن أعني بآثار الضرب والمجروح أبدا ، بل اشمئز فقط واستاء من الوحشية التي تسيطر على العاب الاطفال ، وحثية أجدها تحت مختلف المظاهر ، فتثير غضبي ، ونقبتي ، وتعمني الى ما يشبه الجنون . . . كنت أثور كلما رأيتهم يدفعون الديسوك والكلاب الى قتال بعضها بعضها ، أو يؤذون القطط ويعذبونها ، أو يطاردون عطعان الماعز التي تخص اليهود ، أو يكايدون المتسولين الثملين ويسخرون منهم ، وخاصة ذاك التقي ايجوشها الملتب بسد «حامل الموت في جيبه » ،

كان ايجوشا هذا رجلا طويل القامة ، نحيل البنية ، عابس الوجه ، فالحيه خشنة تتمركز شمراتها خاصة في اسفل وجهه المتعظم ، يرتدي في جميع الاوقات ، سترة من جلد الماعز تتأرجح بشكل غريب ، ويجتاز الشارع محدودب الظهر ، مثبت المعينين في الارض بقوة وعناد ، فلا ينحني يمنة او يسرة قيد انملة . كان وجهه المظلم ، وهيئته المنكمشة ، وعيناه الحزينتان تبعث في الاحترام والهيبة نحوه ، فيخيل المي ان مشاغل خطيرة تقلق بالهذا الرجل حتى لا يجور أبدا ازعاجه وتأخيره عن تحقيق المهمات الملقاة علم عاتقه .

وكان الصبية يتراكضون خلفه يرمون ظهره الاحدُب بالحجارة . أما هم نبيطل فترة طويلة من الوقت لا يعيرهم أدنى انتباه ، فكأنه لا يحس ما يكيلوه له من ضربات ، حتى أذا نفد صبره أخيرا وقف ، على حسين غرة ، ورفه راسمه بقوة ، وتفحص قبعته الشعثاء في حركات مضطربة ، وتطلع حوله كمر نهض من النوم لتوه . ويصبح الاطفال بسه :

_ ایجوشا! یا حامل الموت فی جیبك! ایجوشا! المی این تدب ؟ انظ فی جیبك فقط _ واخبرنا هل الموت جاثم فیها ؟

فيهسك ايوشا بجيبه ، ويندني على الارض ليتناول حجرا او قبضه من النراب ، تم يلوح بذراعه الطويل في غير اتقان ولا خبرة ، وهو يتما بعض الشبائم ، وكانت جعبته من السباب ثلاث كلمات سافلة لا يعرف البردد سواها ــ اما قاموس الاطفال فكان اغنى من ذلك بشكل يفوق التصور وكان يركض وراءهم ، احيانا ، وهو يعرج ، فيعترض معطعه الطويل طرية ويرميه ارضا ، فيقع على ركبتيه معتمدا بنفسه على ذراعيه القذرتب

الشبيهة بن بعصاوين جافنين . وعند ذاك يغرقه الاطفال في سيل من الحجارة ، بينما يركض اليه اشتجعهم ويرمي بملء يده التسراب على راسه ، ثم يفسر هاربا .

يكن أشد مناظر الشيارع ابلاما ، بالنسبة الي ، كانت رؤيسة رئيس عمالنا السياق جريجوري ايفانوفيتش الذي أمسى فاقد البصر تماما ، يقضي أيامه متجولا خلال البلدة يستعطى أكف الناس ، كان فارع العود ، مغلق الوجه ، جميل الطلعة ، تقوده امراة عجوز صغيرة الجسم شيائيسة الشيعر تقف به تحت كل نافذة وتهتف في صوت يصرصر ، وهي تنظر أبدا الى جهسة اخسرى :

_ ساعدوا المستعطى الضرير ، محبة بالمسيح!

الها جريجوري فيظل بالدسمت معتصما ، نرنو نظارتاه السوداوان بثبات الى جدران المنازل ، او النوافذ ، او وجه اي انسان يصادفه ، قي طريقه ، وتروح يده الملوثة ببتايا الصباغ تداعب لحيته العربضة ، بينها تظل شفناه مطبقتين بأحكام .

كنت القاه كثيرا ، ولكننى لم اسمع قط كلمة واحدة تصدر عن هاتين الشنتين المغلقتين ابدا ، غاتالم واتضايق من ذلك الصمت الذي لا ينتهي اكتر من اي شميء اخر ، ولم اكن امضي اليه بل لا اكاد المحه حتى أعود الى البيت راكضا اخبر جدتى :

_ ان جريجوري في طريقه الينا!

فتقول ، وقد تملكها اضطراب مؤلم:

ــ آه ، حقا ! خذ ، اركض واعطه هذه !

غارفض بفظاظة ، وعندئذ تذهب جدتي بنفسها الى البوابة ، وتقسف هناك تتحدث اليه زمنا طويلا . كان يضحك ، ويحك لحيته ، ولكن لا بنبس ابدا ببنت شفة ، وكانت جدتي تدعوه ، في كثير من الاحايين ، الى المطبخ ، فتطعمه ثم تقدم اليه الشماى ، وسالها مرة عنى ، فنادتني ، ولكني هربت واختبات بين اكوام الاختساب ، لم اكن استطيع له لقاء ، بل اشعر بالخجل في حضوره ، واعلم علم اليتين ان جدتى تشعسر نفس شعورى أيضا ، وقد

تحدثنا عنه ، جدتي وانا ، مرة واحدة نقط ، بعد ان رانقته حتى البوابــة وعادت متمهلة الى الساحة ، محنية الراس ، تذرف الدمــوع ٠٠٠ فمضيت اليها ، وامسكت بيدها ، فسالتنى بهدوء :

سلم تهرب منه دائما ؟ انه يحبك كثيرا ، وهو رجل طيب ٠٠٠

لم لا يطعمه جسدی ؟

_ حدك ؟

توققت عن السير ، وضمتني اليها ، وهمست بنغمة تنبؤية :

_ تذكر هذه الكلمات : ان الله سيعاقبفها عقابا صارما من اجها تصرفنا مع هذا الرجل ! عقابا صارما جدا !

ولم تكن مخطئة غيما ذهبت اليه ، اذ لم تمض عشر سنوات على ذلك، وكانت جدتي قد رقدت الى الابد ، حتى كان جدي ، وقد اضحى شقيا مجنونا ـــ يستجدي في طرقات المدينة ، تحت النوافذ ، شيئا يسد به رمقه :

ــ ايتها العشيرة الطيبة ، اعطيني بعض اللحــم ــ قطعة صغـيرة محسب . تفو! يا لهم من قوم!

كانت كلماته القاسية الجافة: « تفو! يا لهم من قوم! ... » الشيء الوحيد الذي بقى له من ماضيه ...

وبالإضافة الى ايجوشا وجريجوري ايفانوفيتش ، كانست هناك امراة مستهترة تدعى فورونيكا ، تدفعني الى الفرار من الشارع كلما صادفتها فيه . كانت تظهر صباح كل أحد سخمة الجثة ، شعثاء الشعسر ، ثملة ، لهسا مشية غريبة كأنها لا تحرك قدميها أوتمس بهما الارض ، بل تطير كسحابسة من سحب العواصف تزمجر باغان فاسقة خليعة . وكسان القوم يهربون بسرعة من امامها في الشوارع ، ويختفون في الدكاكين أو في منعطفات الازقة حتى ليمكن أن بقال أنها تكنس الدرب من كسل ما فيها . . . وكان وجههسا أزرق اللون منتفخا كالبالون ، وعيناها المجاحظتان الرماديتان تدوران فسي محجريهما بشكل مرعب وساخر في آن واحد ، وكثيرا ما كانت تصيح ، دون ما سبب ظاهسر :

_ اين انتم ، يا اولادي ، يا اولادي !

نسألت جدني ماذا تعنى بذلك ، مُأجابت :

_ ذلك لا يجوز لك معرفته .

ولكنها اوضحت لي ذلك ، فيما بعد ، بكلمات قليلة ...

وخلاصة القصة ان تلك السيدة تزوجت قديما من موظف يدعى فورونوف . ولكنه باعها ، طمعا في الترقية الى رتبسة عالية ، لرئيسه الذي احتفظ بها ما يقارب السنتين ، عادت بعدهما الى زوجها الاول لتجد أن طفليها سوهما صبي وبنت سقد توفيا ! . . . وشرع زوجها بعد ذلك يقامر بأموال الحكومة المعامة حتى القي به في السجن . . . غاخذت المراة تشرب بنت العنب لتغرق غبها حزنها . ومنذ ذلك الحين وهي تعيش حياة العهر والفحش ، حتى ان الشرطة تلتقطها ، كل أحد ، من عرض الشوارع .

لم يكسن هناك مجال للشك في أن المنزل الخضل من الشوارع . وكنت اعشق خاصة تلك السوبعات التي تلي الغداء ، اذ يمضى جدي لزيارة الخال ياكون ، وتقعد جدتي الى النافذة تروي لي قصصا خرافية رائعة ، او تحدثنى عن والسدي

كانت قد قصت ، في كثير من الحذق ، جناح الزرزور الذي انقذته من القطة ، واستبدلت ساقه المقطوعة بعود خشبي صغير ، وعندما تماثل الطير للشفاء ، أخذت تعلمه الحديث ، فقتف ساعات كاملة بالقرب من القفص الموضوع على حافة النافذة ، وهي تردد الكلمات التي تود تعليمه اياها :

_ تعال الان ، قل : اعطيني قليلا من البرغل!

ويطرف الطير بعينه المدورة ناحيتها كما يفعل ماجن الاسطورة ، ثم بضرب بساقه الخشبية ارض القفص ، ويمد عنقه ، ويصغر مثل الارغن مقلدا طير أبو زريق والوقواق ، محاولا أن يموء كالقط ، أو ينبح كالكلب ، دون أن ينجح في تقليد الاصوات البشرية .

وتقول جدتي باهتمام ومرح:

__ كف عن هذه الخزعبلات! حاول ذلك الان ، قل : اعطيني قليلاً من البرغيسل!

وعندما كان ذلك القرد الزاهي الريش يصيح بشيء يشبه كلمات جدتي ، كانت تضحك مغتبطة ، ثم تقدم له على أصابعها كمية من البرغل ، وتؤنبه في كثير من السخرية بقولها :

ــ آه! أنا أمرنك جيدا ، أيها الماجن الصغير! أنك تستطيع أن تقول كل ما تثناء لو أردت ذلك نقط .

وهكذا علمته ان يتكلم ، غلم يمض طويل زمسن حتى راح يطلب البرغل بوضوح تام ، وكان يهتف ، اذا رأى جدتي ، بشيء ما يسدن شبيها بكلمسة «مرحبنا »!

كان تفصه معلقا بادىء الامر في غرفة جدي ، ولكنه سرعسان ما نفاه الى غرفتنا بعد أن أخذ يقلده ، وكان جدي يبتهل بصوت واضح ، فاذا ذلك الزرزور ، كلما سمعه يصلي ، يمد منقاره الاصفر كالشمع من خلال قضبان القفص ، ويصيسح :

ـــ تر ، ر، ر، و، تر، ر، ر

٠٠٠ او، او، او،

وكان هذا يضايق جدي كثيرا . . وفي ذات يوم قطع صلواته ، وضرب الارض بقدمه ، وصاح غاضبا حانقا :

- اخرجي هذا الشيطان من الغرفة قبل أن اقتله!

كان في منزلنا أمور كثيرة تثير الاهتمام ، وأشبياء أخرى عديدة يطرب لها المقلب ، لكن شعورا عنيفا بالحزن كان يطغى علي أحيانا لهكأنه حمل وازن يئيد علي ، فيصور لي أني أغوص في قاع حفرة سوداء مظلمة ، وقد زالت حواسي ، وفقدت البصر والسمع والشعور ، أهوي ، نصف حي نصف مبت ، في الهاوية التي لا قرار لها!

باع جدي منزلنا ، على غير انتظار ، المى صاحب الحان وابتاع منزلا اخر في شمارع كاناتنايا . . كان هذا الشارع، نظيفا ، هادئا، غير معبد ، مغطى بالعشب ، يفضي في نهايته المى الحقول ، تحف به من الجانبين منازل صغيرة زاهية الالوان .

كان المسكن الجديد اكثر بهجة وانسا من السابق ، مواجهته مدهونة باللون الاحمر القاتم ، تنفصل عنها بجلاء مصاريع نواف الطابق السفلي المثلاثة المزرق ، وشمعريات نوانمذ الطابق المعلوي التي تنتصب ببهاء وروعة. وعن اليسار ، كان السطح مزخرف باغصان الدردار والليمسون . أما الساحة والحديقة فعليئتان بعدد لا يحصى من الخلوات الريحة ، تبدو وكأنها جعلت خصيصا للعبة الطميمة . راقت لي الحديقسة بصورة خاصة ، فهي ليست عظيمة الاتساع ، ولكنها مغطاة بشجرات صغيرة ، فاتنة ، كثيفة ، متعانقة ، تقوم غرغة الغسيل في احدى زواياها ، صغيرة اشبه بصندوق للدمى . . . و قي زاوية أخرى ، حفرة قليلة الغور ، مغطاة بالعشب البرى ، تندفع منها كتل خشبية مسودة هي بقايا حريق لغرفة غسيل سابقة . . . أما عن اليمين ، غابنبة صغيرة تابعة لال بيتلينف ، وكانت الحديقة تنتهى الى اليسار باسطبلات تخص الكولونيل اونسيانيكوف ، بينما الجهة المقابلة للمنزل قد الحقت ببناء « صانعة الالبان بتروفنا » ، وهي مخلوقة سمينة ، حمراء الوجه ، مزعجة ، تشبه جرسا واسعا كبيرا . كان منزلها الصغير ، الاسود ، المتهدم ، يتربع براحة على الارض ، مغطى بالطحلب من كل جانب، تطل نافذتاه على الحقول الواسعة ، ممزقتين بأخاديد عميقة ، ناظرتين الى ضباب الغابة البعيدة الازرق وكان عدد عديد من الجنود يتمرنون ، طوال

النهار ، في تلك الحقول ، غتلمع حراب بنادقهم كالبسرق الابيض تحت اشعة شمس المخريف المحزنة .

كانت الدار تعج بجمع من الناس لم يقع عليهم بصري مسن قبل قط ، فالجناح الامامي يشعله ضابط تتري المولد ترافقه زوجه الصغيرة المدورة ، وكانت هذه المراة لا تنقطع عن الضحك والمسياح والمعزف على قيثارة مزخرفة بشمتي الالموان البهية المغريبة منذ الصباح حتى المساء . وكانت تغني بصوت حاد ، رنان ، ونردد بصورة خاصة اغنية ، هذه بعض كلماتها :

(اني) يا صاح) لاعجب لك اتعيش وزوجك لا تهواك ؟ فتعدال نفتش عن أخسرى) عن زوج تعدرف أن ترعاك »

وكان زوجها ، المدور كالكرة ، يجلس طويلا الى النافذة تتورد وجنتاه الزرقاوان كلما نفخ في غليونه ، يجيل عينيه البنبتين الضاحكتين الصغيرتين هنا وهناك ، ويسعل بنباح غريب :

- اح، ح، ح، م!، اح، م! ،

وكان يعيش ، في جناح صغير مبني غوق المخزن والاسطبال ، رجلان مهنتهما سوق المعربات . كان احدهما رجلا صغيرا ، اشبيب الشمعر ، ينادونه بالمعم بيوتر ، أما الاخر ، وهو ابسن أخيه ويدعى ستيبا ، فكسان أطرش أبكم ، لين الخلق ، هادىء الطبع ، ذا وجه يشبه صينية نحاسية حمراء اللون ، وكان يشاركهما المسكن تتري كالح الوجه ، مرتب الهندام ، يدعى فالي ، كان هذا المجمع كله غريبا على ، فبدا لي غنيا بالامانيات الجديدة التي سلفا ، وراحت تمنيني بمغامرات لا تعد ولا تحصى ،

بيد أن الشخص الذي اجتذبني وسحرني اكثر من سواه هو المستاجر المتطفل « هذا رائع ! » ، الذي يشعل غرفة تجاور المطبخ في اقصى الدار، كانت غرفته هذه واسعة طويلة ذات نافذتين تطل احداهما على الحديقة ، والثانية على المساحة .

كان ذلك المستأجر باسق الطول ، منحني الجسم ، ذا لحية متشعبسة تضاعف شحوب وجهه ، وعينين لطيفتين تحميهما نظارتان كبيرتسان ، هادئا على المعموم ، منطويا على نفسه ، سكوتا ، كلما دعمي الى العشاء أو .. الشاى أجاب بقولمة :

_ هذا رائے ا

وطفقت جدتي تدعو « هذا رائع! » ان يحضر للشباي!

او كانت تقول:

_ تناول شبيئا اخر ، يا « هذا رائع ! » مانت لم تأكل كتاية .

كانت غرفته مزدحمة بالصناديق والكتب الضخمة المطبوعة بأعرف لم النجح في حل طلاسمها المعضلة ، وكنت تجد ، في كل مكان ، زجاجات مليئه بسوائل مختلفة الالوان ، وقطعا صغيرة من النحاس ، والحديد ، ومساطر من الرصاص لا عد لها ، وكان صاحبنا يرتدي دائما معطفا بنيا من الجلد ، وتفازين رماديين ملطخين بالدهان ، تفسوح منهما رائحة كريهة ، ويقضي اليوم بطوله في غرفته ، منذ الصباح حتى المساء ، يصهر الرصاص ، ويلحم النحاس ، ويزن قطعا صغيرة من المعدن في ميزانه الذقيق ، وهو يزمجر من وقت لاخر اذ يحرق اصابعه ، فينفخ عليها ، ومن ثم يروح يحنو على بعض الاشكال الهندسية المعلقة على المحائط ، ويأخذ بعد أن يمسح نظارتيه بينحصها عن قرب بحيث يكاد يشمها بأنفه الناصع البياض الشبيه بالحوار ، وكان يتف ، احيانا ، ودون سابق انذار ، منقصبا في وسط الغرفة أو قرب النافذة ، ويظل هكذا زمنا طويلا جدا ، مغلق العينسين ، خافض الراس ، ساكنا ، لا حراك به

تسلقت مرة سطح المظلة المهتدة على طول الساحة ، ورحت أراقبه من خلال النافذة المفتوحة . كنت استطيع أن أرى الي اللهب الازرق المتصاعد من فتيل مصباح المكحول الذي يشبتعل فوق الطاولة ، وقد انحنت قامة الرجل فوقه ، أو أراه يكتب أشياء عديدة على دفتر ملاحظات مسزق ، ونظارتاه تلمعان ببرود في ضوء اللهب الازرق كأنهما قطعتان من الجليد .

كان العناء الذي يتحمله ذلك الرجل يسمرني على السطح طوال ساعات عديدة ، وقد تملكني فضول عنيف يعذبني بشكل غريب ، ، ، وكان يقل ، في أحيال أخرى ، مستندا إلى النافذة ، وقد وضع يديه خلف ظهره ، يشخص باستقامة إلى السطح دون إن يراني أو يعرفني ، الامر الذي كان

بعيماني جدا . نم يقفز فجأة في الجاه طاولته ، وبنحنى عليها وهو بنفت المهتمام بين الاوراق والملفات المراكمة فوقها .

ربما كنت اخامه لو كان أنكر ثراء ، وافضل الباسا ، ولكنه كان فقرا معدما فياقة قميصه المجعده الوسخسة تبرز من تحت معطفسه الدلدى ، وسرواله مرقع ملطخ ببقع كثيرة الالوان ، اما حذاؤه فاسوا من أن يلبس تبرز من خلاله اصابع قدميه المعاريتين . والفقراء لا يبعثون خوفا ولا يثيرون خطرا ، هذا ما اقنعتني به شيئا فشيئا شفقة جدتسي نحوهم ، وكراهيسه حدى لهسم .

كان جميع من في الدار يكرهون « هذا رائع ! » كتيرا ، ويتحدنون عنه بسخرية مائقة : متدعوه زوج الضابط المرحة بـ «صاحب الانف الطبثوري»، والعم بيوتر بـ « الكبمائي الساحر » ، وجدي بـ « المسيدلي بائع السحر الاسود » .

سألت جدتي مسرة:

_ ماذا يفعل « هذا رائع! » ؟

فلأجابت بفظاظـة:

ذلك ليس من شانك . اعرف متى تحتنظ بفمك مغلقا .

وجمعت ، ذات يوم ، كل ما الملك من شجاعت واسرعت السي نافذنسه ...

سألته ، وأنا أحاول بصعوبة اخفاء انفعالي :

_ ماذا تفعـل ؟

نبغت ، تم شخص الى طويلا من نوق نظارتيه ، ومد لي يده المحترقة المغروشية ندوبا وجروحا ، وقال :

ــ تعال ، تسلق الى هنا!

والواقع ان سماحه لي بزيارته من خلال الناهدة بسدلا من ان يدعوني الله عن طريق الباب ، قد رفعه كثيرا في عيني ، وزاد من تقديري له .

وجلس على احد الصناديق المبعثرة ، واجلسني تبالته وهو يؤرجحني يمنة ويسرة ، ثم سالني :

_ من أين جِئـت أ

كان السؤال غريبا جدا ، فأنا أجلس بالقرب منه الى المائدة في المطبع اربع مرات يوميا ، أجبت :

_ انى للحنيد هنا .

_ آه ک نعسم!

ثم غرق فيسكون عميق ، وهو يتأمل احدى أصابعه ...

رأيت من الضروري ان أوضح له الامر ، معلت :

__ ولكني لسبت من عائلة كاشرين _ أنا من آل بشكسوف . الكسي شكسوف .

غردد ، وهو يشد على النبرات :

ـ بشكوف! الكسى بشكوف ؟ هذا رائع!

ودمعني عنه ، ونهض ، ثم ركض الى الطاولة وهو يقول آمرا :

ــ حُسنا! اجلس ، اياك ان تحدث ضجة ما ،

جلست هناك طويلا ، طويلا جدا ، أراقبه يبرد قطعة من النحاس أمسك بها دين فكي كماشمة صغيرة ، وعندما انتهى من ذلك ، جمع التراب الذهبي المتساقط على لوحة من الورق المقوى وصبه في بوتقسة كثيفة ، ثسم أضاف اليها قليلا من مسحوق أبيض كالملح أخذه من احسدى الزجاجات ، وأخسرا سكب على الخليط شيئا من قنينة سوداء اللون ، فشرعست محتويات البوتقة تنح ، وتدخن ، وتغلي ، وتطلق رائحة حادة جعلتني اسعل قسرا ،

سأل الساحر بفخسر:

ــنعــم ا

ــ آها ، ، ، هذا حسن با اخي ، هذا حسن جدا !

حاولت أن أجد في ذلك مدعاة للفخر علم أغلح ٠٠٠

قلت بمنیف :

- ما دامت رائحته سيئة فيستحيل أن يكون حسنا اذن!

- فصاح ، وهو يفرك عينبسه :
- __ أحقا ماتقول ؟ حسنا ، ليس ما تقول صحيحا دوما ، يا أخي ! اتحب اللعب بالكعاب ؟
 - ــ نعــم !
 - اتريد أن اصنع لك كعيا من الرصاص ؟ أن احدا لن يغلبك به !
 - ـ بالطبع اريد !
 - _ اعطنی کعبك اذن!

وانجه نحوي نانية ، يحمل البوتقة الداخنة في يده ، ثم خاطبني وهو يرنو الى بعين واحدة :

ــ أتعدنى ، اذا ما صهرت الكعب لك ، الا تعود الى هنا مرف ثانية ؟ أتفتنـــا ؟

فساعني ذلك كثيرا ...

تلت :

- لست بحاجة لذلك كي لا اعود الى هذا !

نم مضيت الى الحديقة غضبان مكتئبا ...

وجدت جدي منهمكا في تسميد الارض حول جذوع اشعبار المتفاح ٠٠٠ كان الوقت خريفا ، واوراق الانسجار تتساقط منذ أمد بعيد ٠٠٠

ناولني المقص ، وقسال :

- خذ ، قص ادغال توت العليق . . .

فسألست :

ـ ما هذا الذي يفعله « هذا رائع! » ؟

فأجاب غاضبا:

- انه يخبص ، فهو يتلف الغرفة ، ويحرق الارض ، ويلطخ الجدران، حتى لقد مزق تسما كبيرا من الورق الملصق عليها . . . سانذره بضرورة اخلاء

. الغرمة نهائيا في أقرب وقــت ٠٠٠

غوافقته ، وأنا اشدنب أطراف توت العليق :

_ انك تفعل حسنا اذن !

ولكنني كنت متسرعا في قولي هذا ٠٠٠

. . .

كانت جدتي ، في الامسيات الماطرة ، عندما يخرج جسدي الى بعض اعماله ، تحيي في المطبخ حفلات رائعة . . . فتدعو جميع الجيرة ، دون استثناء ، بما فيهم السائتين ، والعسكري ، وزوجه المرحة ، وبتروفنا البدينة . اما « هذا رائع ! » فكنت تجده في زاوية قرب الموقد ، حيث يجلس صامتا لا يأتي بأدنى حركة ، بينما يلعب الابكم الاصم ستيبا بالورق مع التتري فالى الذي يلطمه ، بين الفينة والفينة ، على انفه العريض ويصيح :

_ أنت ، أيها الشيطان الهرم!

كان العم بيوتر يحمل معه رغيفا من الحنطة البيضاء ، وقطعة مليئة بمربى توت المعليق ، فيشرح الخبز ، ويصب عليه المربحي بكرم ، ثم يقدم تلك الشرائح على راحتيه المدودتين للضيوف قائلا ، وهو ينحني انحناءة خفيفة :

... هلا تفضلتم وتناولتم من هذا شبيئا ؟

وكلما تناول احدهم قطعة ، يفحص العم بيوتر راحته السوداء ، مان شاهد عليها قطرات من المربي اسرع غلعتها بلسانه ،

وكانت بتروننا الحلوة تجلب معها تليلا من السوائل الروحية ، والجارة المسغيرة المرحة بعض الجوز وسكر النبات ، وعندها تبدأ وليمسة حقيقيسة تشرف عليها جدتي والغبطة تغمر تلبها الغرح الضاحك ،

اقامت جدتي احدى هذه الحفلات بعد فترة قصيرة من محاولة « هذا رائع ! » رشوتي كي ابتعد عن غرفته . كانت أمطار المُريف الكليبة تنسح من أعالي المجو فتضرب الارض بعنف وقوة ، وريح عاتية تهسب ، والاشتجار

نلتطم وتضرب جدران المنزل باغصانها . وكان جو المطبخ دانهًا لطيفا ، والمقوي قد تجمهروا بعضهم قرب بعض هانئين مرحسين ، وجدتسي تشرف في سرد التاصيصها الرائعة أكثر من المعتاد .

كانت تجلس على حافة دكة الموقد ، وقدماها مستريحتان على احدى درجاته تنحني على القوم ، ووجهها يشرف بابتسامة خفهفة لطيفة في ضوء القنديل الملتهب ، كانت تختار ذلك المكان على المدوام كلما كانت منتعشة النفس ، متحمسة لرواية الاقاصيص ، وتقول :

_ أود أن اتحدث من هذا المكان المعالي ، ذلك اسمهل ، وهو يترك في المنفس اثرا أعمق أيضًا .

جلست عند قدميها على الدرجة الاخيرة ، تمامسا غوق رأس « هسذا رائع! » ، وهي تروي هذه المرة قصة « ايفان المحارب » و «الراهب ميران» الرائعة ، فقاتينا كلماتها متلاحقة موزونة متناسقة كأروع الشعر:

«كان يعيش في غابر الزمان قائد شرير يدعى جورديون ، روحه خبيئة آثمة ، وقلبه كالحجر الاصم ، يكره الصدق والصديقين ، ولا يعرف المحنان الى مؤاده سبيلا ، يعيش في الشر كالخلد في كهف عميق سحيق لا يرى النور ، وكان ابغض الناس الى جورديون هذا راهب متدين اسمه ميرون ، يعيش ناسكا في الصحراء ، قلبه ينبض بالسلام والمحبة ، ويتدمق دون وجل بالخير والمصدق ، وفي ذات يوم ، استدعى جورديون المحارب ايمانوشكا الشمجاع الى مجلسه ، وقال لس :

ــ اذهب الان الى العجوز ميرون ، واذبح ذلك الشيخ المتكبر ، دق عنقه ولا تخف ، ارضعه عاليا من لحيته الكثيفة ، وجئني به وليمسة ماخسرة لكلاب صيدي

غذهب ايفان ينفذ الاوامر بطاعة ، وقلبه يعتصره الالم ، يقول في نفسه: أنا لا أسير بنفسي ، وانما المحاجة تسيرني ، انها المسرورة تدفعني الى ذلك ، انه النصيب المقدر لي من قبل الله ، واخفى سيفلسه القاطع تحسبت ثوبه ، وجاء الى الراهب ، وانحنى المامه باحترام ، وحياه قائلا :

- سلاما ، أيها الشبيخ الجليل . . كيف حالك ؟ اما زال الله ينسبسغ

عليك نعمه ، ويصونك بحمايته المقدسة ؟

فابتسم ذلك الذي يعرف كل شيء ، ابتسم ميرون العجوز ، وسقطت من شمقيه الحكيمتين هذه الكلمات :

ــ لست ادري ، يا ايفان ، لماذا تكذب وتريد خداعي ! لكن الله الربب يعرف كل شيء ، والخير والشر ملكيده ، وهو ، من دون أدنى أرنياب ، على علم بغايتك الشريرة ،

هامتلاً قلب ايفانوشكا خجلا ، ولكنه خاف انتقام جورديسون ، فاسنل سيفه من غمده المجلدي ، ومر بشفرته الجارحة على ثيابه ، وقال :

_ لقد اردت ان اوغر عنك رؤية هذا السيف ، واقتلك وأنست في جهل مبارك من غايتي . اما الان ، وقدعرفت كل شيء ، فهيا اركم أيها الشيسخ المعجوز على ركبتيك وصل للمرة الاخيرة ، وصل لينبوع الحيساة ، صل من اجلى ، ومن أجلك ، ومن أجل سائر البشر أيضا ، وعندئذ أقطع رأسك . . .

فجثا الشيخ على ركبتيه ، جثا تحت شتلة سنديان مالت عليه بأغصانها الخضر حادبة ، نم توجه الى محدثه يخاطبه وهو يبتسم :

_ ايفان ، ايفان ! ان انتظارك سيطول كثــــــــــــــــــ الحن الصلاة مــــن اجل خلاص الجنس البشري لا نهاية لها ، فالافضل اذن ان تفهسم حبل حياتي دون تأخير من ان تتعب نفسك بالتردد . فهيا ، عجل بالخاتمة ، وعـــد من حيث جئت سريعــــا .

وهنا قطب ايفان وجهه بغضب ، وأجاب الشبيخ الجليل بحنق جم :

... ابدا ! ان ما قبل قد قبل ، وهكدذا بجب ان يكسون ! صل اذن ، وسانتظرك ولو قرنا كامسلا .

غشرع الراهب يصلي حتى خيم الظلام الدامس ، واستمسر يصلي من هبوط الليل حتى شروق الغبجر ، ومنذ الفجر حتى عودة الظلام ، ومنذ الصيق حتى قدوم الربيع . . . وتتالت الاعوام والراهب الطيب ما يسزال راكعا تحت السنديانة التي نمت الان وراحت تطاول السماء ، وانبثقت غابة من ثمراتها، ودعاؤه ما يزال يتصاعد دوما نحو العلاء .

وحنى هذا اليوم ، ما يزال الراهسب ميرون يصلبي ، دون كلل ، في تلب الفابة ، يسأل المعونة لكل البشر ، ويرجو العذراء أن تحنو على جميع المناس ، وبالترب منه يقف ايفان المحارب ، وقد بلي سيفه وغمده بفعسل المغبار ، وأكل الصدا دروعه وحديدها ، واهترات كل ثيابه وتفتت! على طول الشتاء يقف عريانا ، اهلكته الحرارة ، ومع ذلك لم يهلك ، التهمته المجائحات دون ان تجهز عليه ، تعرض الذئاب عنه ، والدببة تحيد عدن طريقه ، توفره الاعاصير ، ولا يقتله الزمهرير ، وهو عاجز عن أن يتحرك من مكانه ، أو أن يرفع بدا أو يلفظ كلمة . . . وذلك كان عقابه لانه انحط حتى المجلبل فما تزال ترتفع نحو الله من اجلنا نحن الخطاة ، متدفقة كالجدول يسيل نحو مياه المحيط . . . »

وقد لإحظت ، منذ بداية القصة ، ان « هذا رائسع ! » قد تملكسه ، لسبب ما ، اضطراب عظيم : غيداه ترتعشان بصوره غريبة ، وهو يضسع نظارتيه ثم يخلعهما ، ثم يعود غيهزهما بحركة موزونة متناسقة مع الكلمات الشادية ، يهز راسه ، ويضغط بأصابعسه على عينيسه ، ويمسح العسرق المتصبب على جبهته وخديه ، وكان ، كلما تحرك احدهم أو سعل أو ضرب الارض بقدمه ، يصبح بنزق :

ـــ هس ا٠٠٠

عندما انتها جدتي من قصتها ، ومسحت بكمها العرق المتلألىء على جبهتها ، قفل « هذا رائي ٤ » بصخب وضجيلج ، وراح يدور على ارض المطبخ بشكل حلزوني ، وقد بسط ذراعيه باضطراب ، وهو يهمهم :

-- هذا رائع ! رائع جدا ! يجب ان يدون بأي ثمن كان ! انه صحيح تماما . . وروسي بكل معنى الكلمة ! . . .

لاحظ الجميع بوضوح انه كان يبكي: تمتلىء عيناه بالدمسوع ثم تنهمر كسيل صغير نموق وجنتيه وكان من الغريب والمؤثر معا منظسر هذا الرجل الذي يركض في المطبخ بشكل مضحك ، يجرب ان يعلق نظارتيه خلف اذنيه دون ان ينجح في ذلك ، وكان العم بيوتر يضحك ، ولكن الباقسين اعتصموا بالصبت وقد تملكتهم الدهشة .

قالت جدتی بسرعــة:

_ حسنا ؛ امض ودونها أن شئت ؛ فلا خطيئة في ذلك ! وأنا أعرف من أمثالها كاسيرا !

فصاح المستأجر منهيجا

_ أوه ، كلا ! هذه فقط ! انها روسية _ روسية من الصميم !

وتوقف ، على حين نبجأة ، في وسط المطبخ ، وطفق يتكلم بصوت عالى النبرات ، وهو يلوح بذراعه الايمن ، ويحمل نظارتيه في الله اليسرى المرتجفة ظل يتحدث طويلا بحمية ، نصدر عنه ، من وقت لاخر ، آهة عميقة ، وهو بضرب الارض بقدمه ، ولاحظت انه ردد ، عدة مرات ، هذه الكلمات :

ــ كلا ! كلا ! انها لجريمــة لا تغتفــر ان يعيش المرء حسب ضمــير سواه !

وعلى حين غرة ، انقطع صوته ، والقى نظرة سريعة على المحتفين به، ثم دلف خارجا حانى الرأس ، فنظر الجميسع الى وجوه بعضهم البعض باستياء وقلق ، بينما انفردت جدتي في ظلمة الموقسد حيث سمعتها تتنهد بأسبى ...

سألت بترومنا ، وقد المسكات بيدها شفتها الحمراء الكثيفة :

_ كأنه غضب ؟

فاجاب العم بيوتسر:

ــ كلا ! بل تلك طريقته بكل بساطة !

وهبطت جدتي عن الموقد ، وشرعت تهبيء السماور ...

اضاف العم بيوتر بهدوء:

- ان المثقفين والنبلاء هكذا دوما - متقلبوا الاطوار!

وأضاف مالسي :

- كل هذه الحماقات سببها الحياة الفردية ، حياة العزوبية .

فضحك الجميسع ٠٠٠

وقال العم بيوتسر:

_ ارايتم اليه حين بكل ؟ لقد ابكته تصننا . . . يظهر أن العزف أصاب منه وترا حساسا !

لم يعد حو المطبخ يطاق ، وقد طغى على قلبي حزن موحش ، ادهشنى « هذا رائع ! » كثيرا ، فاشنفتست عليسه ، وحتسى الان ، ما تزال عينساه الدامعتان منحفرتين في ذاكرتي ،

قضى ذلك الليل بعيدا عن الدار ، ورجع بعد الغداء في اليوم التالي . كان يبدو خائر التوى ، مرتبك البال ، مكتئب الخاطر . . .

قال اجدتى بطربقة صبيانية خالصة :

_ لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، اغاضبة انت ؟

_ ولم أغضب ؟

ــ لانني محمت نفسي ميما لا يعنبني ، وقلت حماقات كثيرة .

_ انك لم تجرح شعور احد .

شبعرت أن جدتى تخاف منه ، فهي لا تنظر اليسه ، ولا تخاطبسه كما اعتادت أن تفعيل .

اقترب منها ، وقال ببساطة فائقة :

.. انت ترين انني اعيش لوحدي ، وليس من يؤنسني في العالم كله . . عندما بعيش الانسان طويلا ، وحيدا هكذا ، صامتا أبدا ، فلا بد مدن أن تحييء لحظة بأخذ فيها كل ما تراكم في نفسه بالغليان ، فيطفح وبنفجر انه ، في مثل تلك اللحظة ، بخاطب حتى الصخر ، والحجر ، والشجر . . .

سألت جدتي ، وهي تبتعد عنه:

ـــ لم لا تتزوج ؟

فصاح ، وهو يحرك يده :

- To 1 ...

نم مضى انبس الوجسه ٠٠٠

راةبته جدتي ، مقطبة الجبين ، وهو يغادر المكان ، ثم تنشبقت بعض السموط ، والتغتث الى وقالست :

. •

ــ لا تدر. حواليه كثيرا ، غالله وحده يدري ما يمكنن أن يفعل هــذا الانسان .

ولكن شيئا ما كان بجذبني اليه باستمرار ...

لاحظت التغير الذي طرأ على وجهه وهو يقول: انني اعيش لوحدي. نقد كان في تلك الكلمات شيء المهمه جيدا لمس مني شغاف القلب ، ممضيت للاقاته

تطلعت خلال نافذة غرفته لله كانت خالية منه ، مليئة باشياء غريبة عديمة النفع ، عديمة الترتيب ، مثل صاحبها تمامها . فقصدت الى الحديقة حيث وجدته مقتعدا خشية متفحمة في الحفرة حيث شب الحريق ، وقد الحدودب ظهره ، وارتكز مرفقاه على ركبتيه وتشابكت يداه خلف رقبته . . . كانت الخشية مغطاة بالاوساخ، تندفع احدى نهايتيها، في الهواء فوق الحشيش ونبات القريص والارقطبون ، لم يكن مرتاحا في جلسته هناك ، مما جملني اشعر بمزيد من الاسف والحزن ، اجتذبني اكثر فأكثر الى ذلك الرجل . . .

ظل وقتا طويلا يرنو الي بعينيه العمبةتيين الغائرتين ، لكين دون ان يراني نبيما يبدو ، ثم سأل نجأة في ضيق ومال :

- ــ اجئت تطلبنــي ؟
 - _ کــلا!
 - ــ ماذا ترید اذن ؟
- لا شيء على التعيين!

مَنزع نظارتيه ومسحهما بمنديله الملطخ ببقع سود وحمر . قال :

ـ تعالى الى هنــا .

ضمني اليه ، عندما اخذت مكاني بالقرب منه ، وقال :

_ اجلس هذا! اننا سنجلس مقط دون ان نتكلم • ما رأيك ؟ هكذا ... انك حقا لفتى عنيد!

- نعسم!

_ هذا رائسع!

وقبعنا هناك ، مدة طويلة ، دون ان نتفوه بكلمة واحدة . . . كانت الامسية لطيغة هادئة ، من تلك الامسيات الصيغية المضجرة الحزينة ، عندما تأخذ الزهور بالنبول والجفاف امام عينيك ، والارض المنهوكة مسن رائحة الخربف الرطبة ترشيح بالبرود والبلك ، والهسواء يشغ بشكل غريسب ، والمغربان تتواثب في السماء المحمرة تئير في الخواطر أغكار حائرة قاتمة . كان كل شميء ساكنا أبكم ، حتى أن الاصوات الخفيفة ، من حفيف اجنحة الطيور الى صدى سقوط الاوراق ، ترن بصورة تدفعك الى الانتصاب والتلفيت حوالبك قلقا مستفهما ، ثم يعود كل شيء غيغسرق مرة أخرى في السكسون العميق الذي يجلل الارض بأسرها .

كانت تلك اللحظات البهية تستدعي المكارا نقية صافيسة ، لكنها هشة شمغالفة كنسيج المعنكبوت ، تتحدى الرء إن يثبتها في كلمات ، انها تومض وتغيب كالنجوم المتساقطة ، تملا النفس حزنا ، أو تملؤها غبطة ، أو تقلقها، أو تجعلها تغلي لتتجمد في اشكال ثابتة لله في مشل تلك اللحظات نتكسون الشخصية وتأخذ القالب الذي ستحتفظ به مدى الحياة .

رنوبت وجليسي ، وقد ركنت الى جسده الدانسيء ، ناحية التكتسلات السود التي ترسمها غروع شهرة النفاح حبث راينا « زقيقية » تندفع نحسو السماء الواسعة ، وراينا الحساسين تنقر نبات اللفست الجاف تفتش عن حبوب مبتلة ، وراينا السحب الرمادية المتدانعة بتجمعاتها القاتمة نتراكض على طول الحقول ، وراينا جموع الغربان تتناكسب في اتجاه المقبرة حيسث اعشاشها ، كل ذلك كان جميلا ، وكأنه ارتدى حلة خاصة واضحة للابصار قريبة الى الانهسام .

كان رنيقي بصعد تنهداته ، بين وقت واخر ، ويسأل :

ــ هذا رائع ، اليس كذلك ؟ رائع ، يا اخي ! هم ، ولكن الطقس رطب، السبت مصيبا ، الا تشعر بالبسرد ؟

قال عندما اسودت السماء ، وغرق كل شيء في عتمة الليل :

ــ حسنا ، أعتقد أن ذلك يكفى ، هيا بنا ، ، ،

وتوقف ، عندما بلغنا بوابة المنزل ، وقال :

_ ان جدتك امراة رائعة . ٥٦ ، يا له من وجود!

ثم أغلق عينيه وابتسم ، وتابع، هدوء ووضوح :

 $_{--}$ « وذلك كان عقابه $_{+}$ لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر $_{+}$ والمضمع ارادته لارادة سواه، $_{+}$

ثم وجه حديثه الي ، وهو يدمعني داخل البوابة :

- تذكر ذلك ، يا أخى ! أتعرف الكتابة ؟

__كـــلا!

ــ تعلم . وعندما تتعلم اكتب قصص جدتك ؛ أن لذلك أهمية كبيرة .

اضحينا صديقين حميمين . . . ناعتدت ، منذ ذلك اليوم ، زيارة « هذا رائع ! » كلما رغبت في ذلك ، ناجلس على صندوق مليء بالقهاش أراقبه منشرح الصدر ، وهو يصهر الرصاص او يسخن النحاس ، ناذا بلسغ درجة الاحمرار راح يطرقه صفائح رقيقة ، على سندان صغسير ، بمطرقة خنينة ذات مقبض جميل ، وكان « هذا رائع ! » يستعمل أيضا مبردا ، ومناشر رنيعة بعضها رقيق كالشعرة ، ويزن كل شيء بميزان دقيق من النحاس ، ويمزج سوائل مختلفة في وعاء من الصيني الكثيسف ، نيعج جو الغرنسة برائحة خانقة ، ويكثر ، وهو ينظر في كتاب ضخم ، وبغمغم بشيء ما ، وهو يعض شفتيه الحمراوين ويتنهد بلطف ويدندن :

- ــ آه ا يا زهرة شارون ٠٠٠
 - ماذا تفعيل ؟
 - شيئا هاما ، يا اخسى ،
 - ساما هسو ؟

«\·» \{o

- سـ سترى ، غأنا لا أعرف كيف اشرح لك ذلك الان لانهمك أياه ...
 - _ جدى يقول انك تزور المملسة .
 - _ جدك ؟ هم ! ذلك هراء ! ان المال ، يا الحي ، لا يستأهل كل ذلك المناء .
 - ــ اذن ، ماذا تدميع ثمن خبسرك !
 - هذا صحيح ، فنحن لا نستطيع شراء الخبز بدون المال .
 - ــ ارايت ؟ واللحم كذلك ٠٠٠
 - _ واللحم كذلك!

وضحك بهدوء ضحكة لطيفة بعثت الغبطة في قلبي ، ثم قرك أذني مداعبا كما بفعل لقطة صغيرة ، وأضاف :

ساني لا اقدر على مناقشتك يا اخى ، مانت تمحمني دوما وتضيسق الخناق على ، ملنكف عن الحديث اذن ،

كان يمتنع أحيانا عن العمل ويجىء فيجلس الى النافذة قربي ، يراقب معي من خلالها أشبجار التفاح تتعرى من أوراقهسا ، أو المطسر ينهمر على السطح بعنف ويسيل في الساحة المغطاة بالعشب ، وكان « هذا رائع! » بخيلا في كلامه ، فاذا تحدث لم ينطق الا بالكلمات الضروربة التي تبدو لي ، دائما ، وكانها الحقيقة بعينها ، واذا أراد أن يلفت انتباهسي الى أمر ما ، لكزني بمرفقه وأشار إلى الشيء بغمرة من عينه .

لم اكن أرى في ساحتنا شيئا يبعث على الاهتمام . ولكن تلك اللكزات؛ وما يرافقها من كلات ، كانت تضفي على كل ما اراه معنى خاصا وتحفره عميقا في ذاكرتي . فهذه قطة تمرق في الساحة ، ثم تقلف أمام بركة من المياه المتجمعة تراقب فيها انعكاس صورتها ، وترفع مخالبها المرعبة كما لو كانت ستضرب بها الظل المنعكس ، فيقول « هذا رائع ا » بلطف :

ــ ان القطط المتكبرة متشككة!

ويطير الديك الاحمر الذهبي « ماماي » . ويحط على السور ، ثم يخفق بجناحبه ، وهو يكاد يفقد توازنه ، فيتضايق ، ويبدأ يصيح بغضب ، وهو يهد عنقه الى الامام . . . ويقول :

ـ انه يتغطرس ، هذا الجنرال ، ولكنه اخرق عديم الشعور .

ويشبق إلاعرج غالي طريقه وسط الساحة كحصان هرم ، وقد رفع راسه المربض المتورم يتطلع شزرا الى السماء ، فوقعت عليه خيوط شاحبة مسن اشبعة شبس الخرية جعلت أزرار معطفه النحاسية الكبرة تلتمع زاهية ، فتوقف التتري عن المسير ، ولمس تلك الازرار بأصابعه الملتوبة متأثرا ، فقال صاحبي :

_ انه يتأمل الازرار وكأنها مداليات علقت على صدره!

وسرعان ما اكتشفت ان تعلقي بد « هذا رائع ! » يزداد وثوقا وقوة . واصبحت لا استطيع له غراقا ، اتقاسم واياه جميع اغراحي واحزائي ، وبالرغم من مبله ، بطبيعته ، الى الصمت ، فهو لم يجسرب أبسدا ان يمنعنى عسن التحدث ، في اي وقت كان ، غن كل ما يجول في خاطري من أنكار ، أما جدي نعلى نقيض ذلك ، ينهرني كلما انغرجت شفتاي بقوله :

_ كف عن ثرثرتك ، يا طاحونة الشيطان!

لكن « هذا رائع ! » يصغي الى بانتبَّاه ، وغالبًا ما يقول وهو يبتسم :

سولكن هذا غير صحيح ، يا أخي ! انك تختلق ذلك من مخيلتك ... كانت ملاحظاته الوجيزة جديرة بالعناية ، تقع في حينها ... فيخيل الى انه بستطيع ان يستشف ما في قلبي وعقلي ، ويخمسن الاشياء المزورة المختلفة التي تجول في رأسي قبسل ان تمر على شفتي ، فيذبحها ، عندما براها ، ويخنق نقاشا لا فائدة منه قبل ان يولد باربع كلمسات لطيفة يقولهسا بشخة وولسع :

- ــ أنت تكذب ا
- ـــ وكيف عرفـــت أ
- _ اوه ، اننى اعرف ذلك تماما ؟

كانت جدتي تصحبني معها ، فيكثير من الاحايسين ، لنستتي الماء من مضخة ساحة سينايا ، فراينا ، فات يوم ، خمسة من اهل المدينة يضربون فلاحا مسكينا ، القوا به على الارض ثم هجموا عليسه كعصبة شرسة مسن الكلاب فتناولت جدتي الدلو مسن خشبتسه ، وهجمت على البورجوازيسين الخمسة ، وهي تصيح بسي :

ــ اهرب من هنا!

كنت خائفا ، فاسرعت وراءها ركضا . . . وشرعت أرمي الاعداء بالحجارة ، بينما انهالت الجدة عليهم بالعصا بشجاعة فائقة ، ننال منهم الراس والكتفين معا ، واشترك في المعركة بعض الناس ، ففر البورجوازيوت بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، وعندئذ التفتت جدتي الى الفريسة تغدل وجهه الذي اثخنته الجراح ، وما زلت ارتعد فرقاً ، حتى البوم ، كلما تخيلت كيف ضغط ذلك الفلاح شفتيه المرقتين بأصبعه المتسخة ، وسعل ، ونبح بصوت عال ، بينما الدماء تنصب غزيرة من بين أصابعه على وجه الجدة وصدرها ، وطفقت تنوح بدورها ، وترتجف من ام رأسها حتى الخمص قدميها .

وانطلقت ؛ عندما بلغت الدار ؛ الى غرفة المستأجسر اقصى علبه ما حدث . فتوقسف عن العمل ؛ ووقسف امامي ، وهو يحمل مبردا طويسلا كالسيف ؛ يصغي الى حديثى ، ثم نظر الى بجفاء ورسوخ من تحت نظارتيه كوقاطعنى فجأة قائلا : وهو يشدد على كلماته بصورة غير معتادة :

ــرائم! هذا ما حدث بالضبط!

کنت مضطربا بعد ، متأثراً بما رایت ، فتابعت الحدیث دون ان اعیر اتواله انتباها ، ولکنه احاطنی بذراعه ، وراح یذرع الفرفة جیئة وذهابا ، وهو بقاطعنی من جدید ، ویقول فی لهجة عتاب وتوبدخ :

ــ يكفى ، يكفى ! لقد قلت كل ما يجب ان يقال !

متوقفت عن سرد الحديث . . . آلمني ذلك بادىء الامر ، ولكنني ، الحمنت ميه جيدا ، ادركت في دهشة بالغة انه اوقفني في الوقت المناسب . . . كنت ، في الواقع ، قد رويت كل شيء . . .

قسال:

ـ الله ان تشمل مكرك بسخامات كهذه . حاول ان تنسى ذلك !

كان ينطق ، احيانا ، باشياء هادئة جدا بحيث اظلل لها ذاكرا طلول الحياة . وقد حدثته مرة عن عدوي اللدود كوشنيكوف ، احد ابطال شارع

نوغایا ، وهو صبی سمین ، کبیر الرأس ، لم اکن استطیع ان انال منه اکثر . مما کان ینال منی ، واصفی « هذا رائع ! » الی متاعبی ، ثم تال :

_ هراء! ان قوة بهذا الشكل لا تعد قوة على الاطلق . ان القوة المحتيتية تكون في الحركة السريعة ، فكلوسا كنست نشيط الحركة سريعها كلما كنت قويا _ أتفهم ؟

وفي نهار الاحد المتالي جربت ان تكون لكماتي اكثر سرعة ، فاستطعت بسهولة كبيرة ان اتفليب على كوشنيكسوف ، الامر السذي زاد مسن تقديرى لكلمات جارنا ونصائصه .

ــ يجب ان تعرف كيـف تمسك بالاشياء ، أتفهم ؟ أنــه عمل صعب ان تجيد مسك الاشياء .

فلم افهم ما عنى بكلامه ، ولكنني تذكرت ذلك ، واشيساء اخرى عديدة مماثلة ، تذكرت ذلك لان فيه سرا يكتنفه يثير في النفس ، بالرغم من بساطته، الحيرة والعجب .

كانت كراهية سكان دارنا لسه « هذا رائع ! » تزداد يوما بعد يوم ، حتى ان قطة السيد في الشابة التي تتسلق غرف الجميع دون تفريق ، امست تستثنيه من هذه الثقة ولم تعد تلبسي نداءه اللطيف ، واغاظني ذلك منها فعاقبتها عليه بشد الاذن ، ورحت اجرب سم باكيا مترجيا سان اقنعها بالا تخاف من صديقي ، لكن « هذا رائع ! » يجد لها الاعذار ، فيقول لي :

_ ان رائحة ثيابي تنفرها منسي .

اما انا فكنت على ثقة من ان لكل فرد من أهل البيت ، بما فيهم جدتي ، اسبابا خاصة تدفعه لان يضمر البغض للجار ، ويناصبه العداء الشديد . وكنت أرى في كل ذلك خطأ فادحا يثير في ألما لا يحتمل . . .

سألتني جدتي بغضب:

_ لم تحوم حوله دائما ؟ انتبه ! غالله وحده يعلم ما سيلقنك اياه ! اما جدي ؟ راس الشر فكانيجلدني بوحشية كلما بلغه انني زرت ذلك المستأجر ، وطبيعي انني لم اطلع « هذا رائع ! » على ما ينالني من عقاب " كلما عصيت أمر الامتناع عن زيارته ، غير انني أخبرته صراحة برايهم فيه :

ــ ان جدني تخالف ، وهي تقول انك تشتغل بالسحر الاسود ، وهذا هو رأي جدي ايضا ، نهو يقول انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس أن يتعاملوا معلك .

نهز رأسه وكأنه يطرد ذبابة تضايقه ، ولمع وجهه الشاحب بابتسامة ينتبض لها قلبي ،ويترنح منها رأسي ، وقال بهدوء :

ساني استطيع رؤية ذلك ، يا اخي ، هذا شيء محزن ، اليس كذلك؟ ولخيرا ، ابعدوه عن البيت . . .

وجدته) ذات حسباح بعد طعام الانطار ، متربعسا على الارض يحزم امنعته وكتبه في حقائبه وصناديقه ، وهو يترنم بلحن زهر فسارون . . .

-- حسنا ، الوداع يا صديقي ، اني ذاهب .

_ ولم ذلك ؟

فتأملني لحظة قبل ان يجيسب :

ــ الا تدري المسبب ؟ انهم في حاجة الى غرغتي من أجل والدتك .

ہے من قال ھے۔ ا

- جـدك ،

_ انــه یکذب!

قضمني « هذا رائع ! » الميه ، وقال بهدوء ، بينها كنت اتخذ مجلسي عليه الارض :

ــ لا تغضب ا ظننت انك على علم بتلك المكائد ، وانك تخفيها عني ، ولذلك احدثك بأمرها يا اخي ، وأنا لا أحب ذلك على أية حال ...

ثم تابيع هامسا :

ــ ادسغ ... الذكر منعى اياك من زيارتي ؟

فأومأت بالايجاب ٠٠٠

ـ لقد جرحت شعورك يعمذاك ، اليس كذلك ؟

سرنعسم ا

سه إنا لم اقصد ذلك) ولكنى عرفت انهم سيؤنبونك اذا ما اصبحنسا صديقين) فأردت أن أوفر عنك عناء ذلك

وطفق يحدثني كما لو كنا اصدقاء في سن واحدة ، وكانت كلماته تغمرني بالمرح والسعادة ، ويخيل المي انمي اعرف سمنذ أمد بعيد سمكل شميء يريد ان يطلعني عليه ، قلبت :

ــ لقد فهمت ذلك منذ مدة طويلة .

_ حسنا ! ذلك أغضل ، يا أخسى .

_ واحسست الما عنيمًا يعتصر قلبي ، مسألته :

_ لم لا يحبك احد ؟

ماحتضنني بلطف وتطلع بعيدا ، وهو يجيب:

ــ لاننى غريب ، أتفهـم ؟

غتملقت بكتفيه دون أن أعرف ماذا أتول أو أفعل ٠٠٠

واضاف:

ــ لا تغضب ا

وهمس بعد غارة في اذنسي :

_ ولا تبــك ايضـا .

ولكن الدموع انهمرت على خديه من تحت نظارتيسه الموسختين ٠٠٠ وجلسنا هكذا مدة طويلة صامتين ٥ كالعسادة ، شاردين ، نجمجسم بسين حين وحين بكلمات مقتضبسة .

وفي ذلك المساء ، وبعد أن ودع الجميع ، وعانتني بحرارة ، مضى في حال لحظة كومضة برق .

ركضت خارج البوابة ، اراقبه يبتعد وهو قابع على قمة العربة التي انطلقت تسحق بعجلاتها اكوام الاوساخ المتجمدة . . . ولم يكد يبرحنا حتى شرعت الجدة بتنظيف غرفته القذرة . فذهبت اليها ، ورحت أركض أمامها من زاوية لإخرى متعمدا مضايقتها . . . فصاحت بي :

ــ اخرج من هنا!

_ لم طردتموه ؟

.. هذا ليس من خصوصياتك .

_ انكم حمتى ، كل هذه المشيرة .

فأسرعت نلطمني بالمسحة المبلولة ، وهي تصيح :

_ هل جننت ، ام سادا ؟

فأحبت مصححا :

ـ لقد جن الجميع ، الاك . . .

وعلى طاولة العشباء ، مساء، قال جدي :

- حسنا ! شكرا لله على ذهابه ، لقد كسان كالمخنجر يحز في قلبسي كلما رايته ، ولذا تخلصت منه ،

مكسرت ملعتة لشدة حنتى ، نلت جزاء عليها عذابا صارما ...

وهكذا انتهت صداقتي مع أول انسان من تلك الجماعة التي لا تحصى من البشر - الغرباء في موطنهم الام - رغم كونهم افضل ابغائه.

استطيع أن أشبه نفسي طفلا بخلية نحليحمل اليها أناس منباينون عسمل معرفتهم وآرائهم في الحياة ، وكل منهم يشترك اشتراكسا واسعا ، حسب المكاناته الخاصة ، في اختلاف اطوار شخصيتي ، وغالبا ما كان العسل مرا ، ولكنه ، باعتباره معرفة ، كان عسلا على أية حال ،

تهكنت أو اصر الصداقة ، بعد رحيل « هذا رائع! » ، بيني وبين العم بيوتر ، وهو يشببه جدي في رقته ، واناقته ، ونظافته ، وأن كان أضعف جسما واقصر بقليل ، يثير مرآه في النفس صورة مراهق يرتدي للجرد التسلية نقط لله شيخ طاعن في السن ، وكان وجهه كثير التفضن ، تلتمع عليه عيناه الضاحكتان كطيرين صغيرين ، وكان شعره الرمسادي الاشيب اجعد الخصل ، ولحيته الطويلة تهتد بشكل دوائر عديده ، وفمه ينسادى بغليون يطلق دخانا يماثل لون شعره ، وكان يخيل السي انه يهازا بالناس دونما انقطاع ، وهو يروي سيرة حياته :

سني البدء قالت لي الكونتس التي تملكني ، وتسمى تاتيان ، وتكنى الكسييفا : سبتكون حدادا . ولكني لم اكد ابدا ذلك العمل حتى قالت : كن مساعدا للبستاني . فلم اعترض ، واصبحت بستانيا . ولكن ، كما يقول المثل « اعط المخبر للخبار ولو أكل نصفه » . وعندما لم انجح في عملي الجديد، قالت : جرب ان تصطاد ، يا بتروشكا . فقبلت ، لان الاصر سواء عندي ، وابتعت عدة الصيد . ولم أكد اتعود عملي الجديد حتى قلت للاسماك وداعا، اذ أرسلتني سيدتي الى البلدة لاخدم فيها سائقسا ، أو أي شيء أخر أرغب

نيه ﴿ وَمَنِلُ أَن تَسَنَعَ لَهَا الْفُرْصَةُ لَتَجَعَلُ مَنْسَيُ شَيِئًا أَخْرُ جَاءُ التَّمْرِيُ وَإِحْسَيْتَ طَلِيقًا لا أَمِلْكُ الا الحصان ، ومنذ ذلك اليوم أضحيت أتبع الد بدلا من الكونتس .

كان حصانه هرما ، يخيل المي انه كان حليها مضى من الزمن حللون ، لكان غنانا ثملا رماه بغرشاة وسخلة ، ولم يعلن بمسلح الدهان عنه ، كان حيوانا سقيما ، معوج الارجل ، يتدلى رأسه النابعينيه المتعكرتين في اسى بالغ من عنق يكساد الا يصلمه بالجسد الالاوردة المضخمة ، وقليل من الجلد الجاف المنكس .

ولكن العم بيوتر يعامله ، مع ذلك ، باحترام عظيم ، فيدعوه تانيا يضربه ابدا ،

ساله جدي سرة:

_ لم تطلق على حيوانك اسما مسيحيا ؟

_ ولكن لا ، يا غاسيلي غاسيليغيتش - لا أبددا ! ليس تأنيسا مسيحيا أبدا ، أن الاسم المسيحي تأتيانا ،

كان المعم بيوتر على قسط واغر من الثقافة ، وله بعض الالمام بالمقدس ، فيخوض وجدي على الدوام غمار نقاش لا ينتهي ، موضو اقدس الجميع بين المقديسين ؟ وكانا يدينان ، دون رافسة ، جميع الذ الواردة اسماؤهم في التوراة ، وابشالوم منهم بصورة خاصسة ، ونقاشمهما يتخذ احيانا شكا: حامي الوطيس ، فيصبح جدي ، بعد نقاش وعيناه الخضراوان تلمعان شروا :

_ اخرج من هنا ، يا الكسي !

كان العم بيوتر مولعا بالترتيب والنظافة الى حد بعيد ، واينها ما الساحة يلتقط التضبان الصغيرة ، والنشارة ، وهو يهمهم مزمجرا :

... انها لا تصلح الا لتعترض الطريــق !

كان ثرثارا ، تدل ملامحه على اللطف والانس ، وان كانت سحابة تغشى عينيه في بعض الاوتات ، غاذا هما السبه بعيني جثة ميتة ، و

ما كنت اراه جالسا في بعض الزوايا المطلمة ، صامعا ، مكتبًا ، كابن اخيه. ماركض اليه ، وأساله :

- مما بك 6 أيها العم بيوسر ١

فيجيب بأسى سديد وسوت قاس بكلمات لا افهم معها شيئا .

وكان بقطن احد منازل تسارعنا سيد في جبهته حدبه ضخهه ، ومسي راسمه هوس غريب لا يفارقه : فهو يجلس ، كل يوم احد ، الى الناءذ يطلق النار على الكلاب ، والقطط ، والغراح ، والعربان ، وحتى على المارد الدين لا ترون له رؤيتهم ، وقد فعل ذلك مرة مع « هذا رائع ! » ، لكن الرحاص لم يخترف معطفه الجلدي لحسن الحظ ، وان وقع بعض الخردق في جيبه . وأما أذكر كيف وقف صاحبي وقند ينفحص باهيمام ظك الحبات الرصاصية في راحة يده ، وعندما حته جدي على تقديم شكوى ضد المستدي ، رمى تلك الحبات في زاوية المطبخ ، وقال :

_ انها لا تسنأهل ذلك .

ــ وقد أرسل ذلك الاحمق ، مرة أخرى ، بعض الخردق في ساق جدي، الذي اهتاج كثيرا وشكاه الى حاكم البلدة ، وراح يجنسد الشهود صده . ولكن ذلك السيد اختفى ، فجأه ، وكأنما غيبته الأرض في جوفها .

كان العم بيوتر ، كلما ارتفع صدى طلقات المجنون في الشارع ، يسرع المى تبعنه الباهنة اللون ، العريضة الحافة ، التي لا يرتديها الا ايام الاحاد فيضعها على راسه نم يخرج من البوابة ، وقد نفخ بطنه ، ووضع يديه تحت مؤخرة معطفه ليجعله يربفع كذنب الطير ، تم يروح يتمشى بنؤدة وكبرياء بالمقرب من نافذة ذلك الاحمق ، ولا يمل، من ذلك أبدا ، ويتجمع سائر سكان منزلنا قرب البوابة يراقبون ما يجري في الشارع ، بينمايطل الضابط وزوجته الشقراء من النافذة ، وتغص ساحة بيتلينغ بالمستأجرين أيضا ، ولا يظل غير منسزل آل اوفزيافيكوف عديسم الحركة ، فكأنسسه قبسر لا يضم الالهسوات

كان تصرف العم بيوتر يظل دون جدوى في بعض الاحيان ـ مالعياد لا يحسبه صيدا يستاهل الرمي . . . وفي احيان اخرى ، كانت طلقتا البندةية تتتابعان بشكل يصم الآذان .

بالبسو البسو المده

فيقترب العم بيوتر منا ، دون ان يغير من سرعة خطواته ، ويتول برضى عظيسم :

_ لقد اصابني في ذيل معطفي .

لكن الطلقة اصابته ، ذات مرة ، في عنقه وكتفه . . .

سالته جدتي ، وهي تزيل بابرة خياطة ما اخترق جلده من رصاص :

_ لم تثيره هكذا لا ذلك المخلوق الشرس ! قد ينتهي بأن يقلع عينيك ! فيجيب باحتقار:

__ اوه ، لا ، يا اكولينا ايفانونها ! انه لن يفعل ذلك ابدا ! نهو لا يحسن الرماية على الاطلق !

ــ ولم تعطيه فرصة لارضاء غروره ؟

ــ لارضاء غروره ؟ ولكنى انما المعل ذلك لاغاظته مقط .

ويضيف ، وهو يتطلع الي مكان المجرح :

_ كلا ، بالتاكيد ليس هذا برام ابدا ! ان الكونتس تاتيان الكسييفنا قد ارتبطت ، مرة ، بعلاقات زواج موقتة ... فقد كانست تستبدل ازواجها كما تستبدل ثيابها ... مع ضعابط يدعى مامونت ايليتش . حسفا ، ذلك كان راميا فذا وربي ، أيتها الجدة ، يستطيع ببندقيته ان يفعل كل شيء . لقسد كان يوقف الأبله اجناشكا على بعد اربعين خطوة أو اكثر ، ويربط زجاجة الى حزامه الجلدي ، بحيث تتدلى بين ساقيه اللذين يفرج اجناشكا بينهما وهسو بضحك كالمجنون ، وعندها يصوب مامونت ايليتش البندقية ، ويطلق النار ، فأذا بالزجاجة تتطاير شطايا صغيرة ، . . وذات مسرة ، حرك اجناشكا اساقه .. لعل ذبابة عقصته .. وإذا الرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطم العظم ، وقد استدعي الطبيب غاسرع ، في مثل طرفة عين ، يقطع الساق دم مكذا ، من هنا . . واشار باصاب يده الى مكان القطع . . ولقد دفنوها . . .

- واجناشكا ؟ عل مات !

_ او ، كلقد استمر يعيش في احسن حال ، فالبلهاء لا يحتاجسون ابدا للايدي والارجل ، بل بعيشون في عالمهم الجنوني ، يعفذون من بلاهتهم ، وجميع الناس يحيونهم ويقدمون لهم المعونة . . انهم جماعة غير مؤذية ، كما يتول المثل : « من لا عقل له ، لا ضرر منه » .

لم تؤنر تلك القصة في جدتي ، نهي تعرف الكنبر من تلك القصص ، ولكنها جعلتني ارتجف ، نسالت صاحبي :

_ ايستطيع اى من النبلاء ان يقتل اي انسان كان ؟

_ ولم لا ؟ انه يستطيع ذلك ! بل ان النبلاء يتناون بعضهم بعضا احيانا . وقد حدث مرة ان جاء احد الفرسان لزبارة تاتيان الكسيفنا ، فاشتبك مع مامونت في معركة حامية الوطيس ، وقد شهر كل منهما مسدسه ، ومضيا معا الى الحديقة . وهنالك ، في المر ، بالقرب من البحيرة ، اطلق الخيال النيار على مامونت فاصابه في كبده . . . حسنا ! مضى مامونيت الني ملكوت السماوات ، ومضى الخيال الى بلاد القوقاز ، وكان ذلك نهاية كل شيء . . . أرايت ؟ انهم يتذابحون ! اما الفلاحون ومن كان على شاكلنهم كما اكثرهم ! وخاصة في هذه الايلم ، حيث لم يعودوا يملكونهم كما من قبل . لقد كانوا ، قبلا ، اكثر حذرا وعناية ، لان الموجيك . على اية حال ، كان ملكا لهمم !

فتالت جدتسي:

- انهم لم بعنوا بهم ، حتى في ذلك الحين ايضا .

موامق العم بيوتر بأشارة من راسه ثم تابع يقول:

- نعم ، ذلك صحيح ! ملكية خاصة بهم ، ولكنها ملكية رخبصة .

كان لطيفا معي الى حد بعبد ، ان تحدث الى غبرقة لم اعهدها عنده في معاملته للكبار ، ودون ان يغلق عينيه أيضا كلمادته التي لم تكن تروق لي . . . ولكن شيئا قيه لم يعجبنى . كان عندما يعزمنا على المربى المفضل ، يقتطع لم من الخبر قطعة تكبر حصة الاخرين ، واذا زار المدينة ، جلسب لي معه كمكا وحلسوى ، وجذور السوس ، وكثيرا ما كان يسالني بهدوء واهتمام :

_ حسنا ، ماذا ستفعل عندما تكبر ، أيها الشماب ، أتريد أن تكون جنديا ، أم موظفا ؟

_ بل جندی !

ـ ذلك يليق بك ، اذ لم تعد حرفة الجندية صعبة في هذه الايام ، وكذلك الامر بالنسبة الى الكهنة ـ ما عليك الا أن تسير في الشارع ، وتصيح : «يا رب ارحم! » فينتهي كل شيء . . . فحياة الكاهن أسهل بما لا تعهد ، من حياة الجندي . ولكن الافضل لك ان تحترف صيد السمك ، لان الصياد لا يحتاج الى أية معرفة على الاطلاق ـ ما عليه الا أن يعتاد ذلك فقط ، وهذا كل شيء

ويتوقف قليلا ليعود ، بعد فترة ، يهز رأسه بمرارة ويتول :

— انك تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ؟ انك مخطىء اذن يا حساح ، اذ ليس من سبب يدعوك الى الغضب في مثل هذه الحال . انهم لا يحلدونك الا لمصلحتك الخاصة . . . ولكن ، هناك سيدتي تاتيان الكسييفنا مثلا ، تلك امراة تعرف كيف تجلد الناس ، لا بل كانت تحتفظ بشخص خاص لمثل تلك الاعمال — ويدعى كريستوفور — وهو اختصاصي في فن الضرب ، طبقت شهرته الافاق حتى اصبح الملاكون المجاورون يطلبونه من الكونتس ، فبرسلون اليها يرجونها : تلطفي ، يا تاتيان الكسييفذ ا، واعيرينا كريستوفور لينزل المقاب بعبيدنا . فكانت ترسله اليهم وفي نفسها شيء من الاعتداد .

وراح يروي لي ببرود واطناب كيف كانت الكونتس تجلس على كرسي احمر اللون بالقرب من بوابة قصرها ، تتألق في ثوب ابيض من الحرير ، ووشاح ازرق يلتف حول كتفيها ، تتطلع الى الجلاد كريستوفور يجلد العبيد من ذكور واناث بشغف ولذة :

ــ لقد كان كريستوغور هذا ، بالرغم من قدومه مسن ريازان ، يشبه غجريا او اوكرانيا في مظهره : غشاربه يهتد من الاذن الواحدة حتى الاخرى ، ووجهه شديد التورم لانه كان يحلق لحيته دوما ، ولست أدري ان كسان مصف مجنون ، او انه يدعسي ذلك حتى تتيسر شؤون حياته ، وكثيرا ما كان يدخل الى المطبخ ، ويملأ أحد الاحواض ماء ، ثم مهصطاد ذبابة ، او حشرة ، او بعض الخنافس ، ويتسلى باغراقها في الحوض بان يدفعها

تحت الماء بطرف أحد القضبان ، ويقضي زمنا طويلا منهمكا في هذه المهسة أ المغريبة ، وكانت ياقة قميصه تقدم له ، في كثير من الاحاييين ، فرائس هو ايته ،

كنت اعرف كثيرا من تلك القصص ، فقد روى لي جداي عددا لا يحصى من امثالها . وهي ، بالرغم من اختلافها ظاهريا ، تتسابسه بصورة غريبسة جدا ، موضوعها دوما الالام البشريسة ، والسذل ، والهوان ، وفي كل منها انسان يتعذب ، او عبد يضطهد ، او فلاح بسخر منه . ومللت ، كل الملل ، تلك الاقاصيص وعزفت عن سماعها فقلت للسائق :

ــ حدثني عن شيء اخــر .

مجمع سائر خصل لحيته المجعدة موق ممه ، ثم رمعها حتى عينيه ، واردف موافقاً:

ــ حسنا ، أيها الجشع ! هاك شيئا آخر ... لقد كنا نملك ، مـرة ، طباخـا ...

_ من كان يملك الطباخ ؟

_ الكونتس تاتيان الكسييفنا .

ــ ولم تدعوها تاتيان ، كما لو كانت رجلا ، عوضا عن تاتياتا ؟ انها امراة ، الايس كذلك ؟

ــ بالطبع ، انها سيدة ! لكنها ، مع ذلك ، ذات شارب أسود اللون ، نهى جرماتية الاصل ، أهلها أشبه بالقدائــل السود . حسنا ، لقد كتا نملك طباخا ، هيه هيه ، هذه قصة مضحكة ، يا عزيزي . . .

كاتت تلك القصة المضحكة تتلخص في ان ذلك الطباخ أنسد ، مرة ، طائرا يطبخه ، نعوقب على ذلك بتناوله طعاما دنعة واحدة ، وكاتت نتيجة ذلك ان سقط مريضا ، ولازم الفرائس طويلا ، نقلت معتبا باشمئزاز :

- انها ليست بالقصة المضحكة على الاطلاق .

... ما هو المضحك اذن أ هيا ارو لي ٠٠٠

ــ لست ادري .

- اذن ، عليك بالمست .

ومرة اخرى، راح يلفق اقاصيصه الملسة ...

* *

كان يزورنا ، احيانا ، ايام الاحاد والاعياد ، ابنا خالي ، احدهما ، ابن ميخائيل ، حزينا كسولاكعادته ، والاخر ، ابن ياكوف ، نظيفا ، ذكيا ، ملما بكل الامور ، كعهدي به ابدا ، وفي ذات يوم ، بينها كنا على المسطح للاثتنا للمساهدنا سيدا معتعدا كومة من الاختساب في سماحة آل بيتلينغ ، يلاعب عددا من الكلاب الصغيرة ، كان يرتدي معطفا طويلا اخضر اللون ، يضع فوقه فراء ثمينا السودا ، اما راسه الصغيرة ون شعر الامن اللون ، فكان دون غطاء ، اعجبنا بالكلاب ، فاقترح ابن خالي ميخائيل ان نسرق احداها الامر الذي لقي منا تأييدا تاما دون ادنى تردد ، ، ، فرسمنا ، بسرعة خائقة ، خطة لذلك مؤداها ان يخسرج ابثا خالي الى الشارع ، وينتظران عند برابة آل بيتلينغ الكبيرة ، بينما اقوم انا باخاعة ذلك الرجال ، حتى اذا هرب انتهزا فرصة الفوضى التي ستنجم عدن ذلك ، ودافسا الى الساحة ليختطفا الجرو الصغيم ، سالت :

- وكيف اخيف ا

المالاترح احدهما:

- ابصق على راسه الاصلع .

غلم اجد في البصاق على راس اصلع خطيئة كبيرة ، غانا اعرف اساليب عديدة لانزال الاذى والضرر بالنائس تفوق هذه شرا بشكل عنيف . ولذا لم اتردد في تنفيذ تلك المهمة التي عهد بها الي . . .

لكن ذلك التصرف اثار ضجة كبيرة ، وسرعان مسا غزا ساحتنا جيش كامل من نساء آل بيتلينغ ورجالهسم جاؤوا ، يقودهسم ضابط لهتي انيسق ، وباعتبار ان زميلي كانا يلعبان بكل هدوء في الشارع اثناء ارتكاب الجريمة ،

قدر لمي ان اتحمل الجزاء وحدي من دونهما ، نقام الجدد الكريم بجلدي ، في احتفال كبير ، متملقا سكان الدار المجاورة مخففا من غضبهم ونقبتهم .

كنت اضطجم فى المطبخ محطم الاعصاب ، متألما ، عندما جاءني العم بيوتر ، وقد ارتدى أبهى ثيابه ، يبدو عليه انه في أحسن حالاته النسية وهمس فى أذنسى :

_ تلك مُعلة عظيمة تدل على الذكاء والغطنة ، يا صاح! ان ذلك المتيس الهرم البالي ليستحق ما ناله! ابصق على عشيرتهم كلها! كان المضل لورميت راسه الاصلع بقرميدة ضخمة . . .

فتذكرت ذلك السبد المرتدي معطفا اخضر ، المدور الجسم ، الاصلع الراس ، بوجهه الذي بشبه وجوه الجراء الصغيرة ، وقد طفق يزعق بهدوء والم كالكلسب الصغير ، وهسو يمسح راسه الاصغر بيديسه الصغيرة سين ، والم كالكلسب بخجل عظيم لا يوصف ، وبالكراهية لابني خالي في ذات الوقت ، ولكننى نسيت كل ذلك الان ، اذ رأيت وجه ذلك السائق الذي يشبه السلة المحفورة بالغضون العميقة ، والذي اكتسى مظهرا يبعث على الرعب والنغور الشديدين ، لا يدانيه في شناعته الا وجه جدى اثناء جلده اياي ،

صحت ، وانا ادمع ببوتر عنى بيدى وقدمى :

۔ اخرج ہن ھنے !

ومنذ ذلك الحين ، نقدت كل رغبة في المتحدث اليه ، ورحت اتجنبه ، واراقبه في الموقت ذاته ، نكانني اتوقع منه شيئا ما لا اعرق ماهيته على وجهه التحقيدة !



وتبع تلك المغامرة ، بعد غترة وجيزة ،حادث اخر . . . كسان منزل آل اوغزيانيكوف موضع اهتمامى وشعلي الشاغل منذ مدة طويلة ، يبدو لى أن جدرانه العتيقة الرمادية تنطوي على وجود شيء غرب لا مثيل له الا فسى القاميص الخرافيسة .

«\\»

وكان منزل آل او فزيانيكوف كثير الضوضاء والمرح ، تعيش فيه مجموعة فتانة من الفتيات يتودد اليهن عدد من الطلبة والمضاط الذين كنت تجدهم ابدا ايان جئتهم _ يضحكون ، ويصيحون ، ويغنون ، ويلعبون ، ويعزفون الالحان الموسيقية . وكان للمنزل نفسه مظهرا سارا ، ينبعث من نوافذه الملتمعة بريق النباتات الاخضر بزهوته النادرة ، ولكن جدي لم يحب ذلك ابدا ، فهو يدعو سكانه جمبعا بالكفرة والهراطقة ، بينها ينعت نساءه بكلمة بنيئة غريبة ، فسر لي معناها العم بيوتر مرة بطريقة جد واضحة . . .

لكن الجد كان متأسرا من العبوس والصحت المفيمين على دار اومزيانبكوف ، واللذين كانا يبعثان غيه الاحترام والتقديسر ، كان منسزلا عاليا ، وان كان يقتصر على طابق واحد غقط ، يشرف على ساحة مترامية الاطراف نظيفة مغروشة بالاعشاب ، ينتصب في وسطها بئر ماء عذب تحت سقق صغير قائم على دعامتين ، وكان يقوم ، عن يمين مدخل البوابة الكبرى، مخزن المحصولات يشبه المنزل الاصلي في كل شيء سوى ان نواغذه حصنت باطارات سمرت بالجدار ، وطليت شرائحها باللون الابيض ، وكان مظهر هذه النواغذ يبعث على النفور والقرف ، ويضاعف في غموض الدار الاساسية ، وتسترها عن الاعين ، وسعيها الى العيش حياة خاصة ، غبر منهومة . كان العقار بكامله ، بما فيه الاسطبسلات ، ومخازن المحصولات الفارغة ببواباتها الكبرة ، يبعث في النفس احساسا من الانتفاخ الصامت ، والكبرياء الهادئة .

كنت اشاهد ، احبانا ، شيخا باسق المقامة ، حليق اللحية ، ابيض الشاربين المنتصب شعرهما كالابرة الحادة ، بسدب في الساحة وهو يعرج على رجل واحدة ، ومن وقت لاخر ، كان شيخ اخر ذو سالفين طويلين ، وانق التنى ، يخرج من الاسطبل يقود حصانا رمسادى اللون ، ضبق الصدر ، طاعن السن ، ضامر القوائم ، فاذا بلغا الساحة مرة ، شرع الحصان يهز راسه في كل الاتجاهات مثل راهبة طيبة القلب تحيى جميع من تصادفهم في طريقها ، بيمنا يسروح الشيخ يضربه بقسوة على مؤخرته ورقبته ، وكان يتهنا ويصفر ، ويتنهد بعمق ، ثم يعود به ثانية الى الاسطل المظلم ، وكان يتهنا لى أن ذلك الشيخ بود الهرب والإنملات من تلك الدار فسلا بستطيع لانه كان مسحورا .

وفي كل بوم تقريبا ، منذ الظهرة حتى المساء ، كان ثلاثة اولاد بلعبون

في الساحة ويمرحون ، كانوا يرندون معاطف رمادية ، وقمصانسا وقبعات المتماثلة ، لا بل كانوا جميعا ، بوجوههم المستديرة ، وأعينهم العسلية ، يشبهون بعضهم بعضا كل الشبه حنى لم استطع التفريق بينهم الا باختلاف قاماتهم فقط .

كنت اراقبهم من خلال شق صغير في السور دون أن يلحظوا وجودي و الامر الذي كان يزعجني كثيرا وكنت ابتهج برؤية العابهم اللطيفة المسرة غير المالوغة لدي و واحبنت و بصورة خاصة و ثيابهم وطريقة عناية كل منهم بالاخرين و وخاصة كبيرهم بأصغرهم سنا و وهو فتى عنيمد و يبعث الغبطة في القلب و والانشراح في النفس و كانوا و اذا ما سقط على الارض بضحكون جميعا وقع امرؤ على الارض ولكن ضحكهم هذا كان بريئا من الخبث مجردا على الداءة وسرعان ما يساعده الاخران على الذهوض وكن شهرية وركبتيه بورقة من بعض الاشجار و ومنديليهما و وكان الاوسط بجمجم بصوت رقيق عذب :

ــ الحق عليك ايها الغشيم!

ولم ارهم يتخاصمون ، او يخدعون بعضهم بعضا أبدا ، ، ، بل كان الثلاثة الدوياء ، نشيطين ، ممتلئين حماسة .

تسلقت شهرة ذات يوم ، وصفيت لهم سعيا وراء استجلاب انتباههم الي . فتوقفوا عن الحركة ، ثم شخصوا بابصارهم الي ، وراهوا يتشاورون بصوت منخفض . . . فانتظرت ان يرموني بالحجارة . فأسرعت بالهبوط من مجثمي لاتسلق اليه ثانية ، بعد قليل ، وقد امتلا قميصي وجيوبي بالحصى ، ولكني وجدتهم يلعبون في زاوية بعيدة من المساحة ، وقد نسوا _ فيما يبدو _ كل شيء عني . كان ذليك امرا يؤسسف له ، ولكني م ارغب غي ان اكون البادىء باعلان الحرب . . . وما اسرع ان نادى احدهم من النافذة :

- الى البيت ، أيها الصغار! اسرعوا ...

هاستداروا طائعين ، وساروا كا لاوز ببطء وتثاقل ...

وكثرا ما تسلقت ؛ نيما بعد ؛ تلك الشجرة المنتصب فوق السور ، رجاء ان ادعى كى اشاركهم اللعب ؛ ولكنهم لم بدعونى . . . وكنت ، نسى تموراتى ، اشاركهم تلك الالعاب على اية حال ، واتحمس لها كثيرا حتى

لاهتف او أضحك عاليا من وقست لاخر ، وعندئذ ، كسان الثلاتة يرموننسي بنظرهم ، ثم يتهامسون فيما بينهم بما لا افقه منه ثيئا ، بينما اهبط انا عن تلك الشحرة حائرا مرتبكا .

وذات يوم ، شرعوا يلعبون « الغميضة » ، وكان على الاخ الاوسط ان يفتش عن الاخرين ، فوقف في زاوية قرب المخسرن ، وقسد وضع يديه على عينيه ، دون ان يختلس النظر ، بينما مضى الاخسران يفتشان عن مخبا . وأسرع الكبير ، وتسلق المعربة المجلدية التي كانت في الساحسة بحركسات سريعة محكمة ، ثم استتر بسطح المخزن البارز ، غبر ان الصغير ظلل بدور ويدور حول البئر ، دون ان يعرف أينيختبىء ،

صاح الاوسط سنا:

- واحد . . . اثنان . . .

نتسلق الصغير ، في شبه جنون ، حافلة البئر ، وتعلق بالحبل ، ثم قفر الى السطل الفارغ الذي اختفى على الفور ، مصطدما بعنف ووحشبة بجدران البئر المحبرية ، ، ، وامتلأت رهبة ، عندما رأيت ان الحبل يهوي باندغاع وسرعة ، غير أن ذعري لم يطل اكثر من ثانية واحدة ، بل سرعان ما تصورت هول ما سيحدث ، قفزت داخل الساحة المجاورة ، وأنا أصيح :

ـ لقد وقع في البئــر!

كان الاوسط قد بلغ البئر ، في اللحظة التي وصلت فيها اليه ، فتعلق بالحبل الذي رفعه عاليا ثم رماه على الارض وقد أحرق يديه . ونجحت في الامساك بالحبل بدوري ، وفي ذلك الحين ، وصل الكبر راكضا ، وساعدني في رفع الدلو ... قال :

ـ تمهل ، ارجوك !

أخرجنا ذلك الصغير الذي بدا عليه الرعب بوضوح ، والدم يتدمق من أصابع يده اليمنى ، وقد جرح أحد خديه بشكل ظاهر ، وابتل حتى خصره ، وشحب لونه كثيرا ، ولكنه ابتسم مع ذلك ، وقال وهو يرتجم :

- يا لله . . . لم أعرف كيف سق . . طب !

وتلعثم الاخ الاوسط:

ــ أنت مجنون ا

وراح يحتضنه ، ويمسح الدم عن وجهه ، بينها قطب الاكبر وجهه ، وقسال :

ــ تعال ، غنحــن لا نستطيع اخفاء هذا الجرح بـاي شكل . يحسن بنا أن نسرع الان .

فسألست :

_ هل ستحلدون ؟

فهز راسه ، ومد يده لي ، وقال :

ــ انك تركض بسرعة غريبة .

فتمايلت لمديحه ، وقبل أن أصافهده ، راح يقول للاوسط:

مد هيا بنا ، وإلا اصيب بالبرد ، سنقول ، بكل بساطة ، انه وقع على الارض ، ومن المخجل ان نقول عن البئر شيئا ،

نوانق الصغير :

ــ نعم ، سنقول انني وقعت في مستنقع .

ثم مضوا ٠٠٠

غاب الاخوة الثلاثة ، بعد ذلك ، طسوال اسبوع عن انظساري . . . وعندما ظهروا اخيرا كانوا اكثر ضوضاء منهم في أي وقت اخر . وسرعان ما صاح كبيرهم ، عندما بصر بي ، بلطف ونعومة :

ــ تعال تلعب سوية .

غضرجت اليهم ، وتسلقنا معا عربة عتيقة مهجورة حيث قضينا غترة من الزمن نتعارف . سالت :

_ هل ضربتــم ؟

فأجاب الكبسير:

```
_ لقد نلنا نصيبنا ، جميعـا!
```

كان يصعب على أن أصدق أن هؤلاء الصبية يجلدون مثلي ، واعتبرت ذلك خللم ، متألمت من أجلهم . . .

سأل الصغير بتردد:

_ لم تصطاد العصافير ؟

ــ لانها تغرد بصوت حلو رائسع .

- لا تفعل ذلك بعد الان ، دعها احرارا تطير اني تشاء .

سحسنا ، لن انعل ذلك ثانيسة .

- ولكن ، قبل ذلك ، اصطد واحدا الان واعطنيه .

ب أيها تفضل ؟

ــ لا فرق ، بل فليكن مغردا فاغسمه في قفص .

- ذلك يجب ان يكون بلبسلا .

فقال الاوسط:

ــ ستقتله القطة . ولن يتركفا والدي نحتفظ بـــه .

فوافق الكبير بايماءة من راسمه وقال:

_ هــذا صحيــح !

۔۔۔ هل عندكم أم ا

فأجاب البكسر:

كسلا، ولكسن ...

نقال الاوسط مصححا:

ــ نعم لنا . . ولكن واحدة الحرى ، وليست أمنا ، أمنا ماتت .

نتلت :

- هذا النوع من النساء يسمى خالة .

مأما البكر مقال:

_ هذا صحيح !

وغرق ، النلاتة ، في صبت عبيق ٠٠٠

كنت اعرف ، من اقاصيص جدتي ، ما هي الخالة ، غلم يعسر على الدراك معنى حزنهم العميق هذا ، وقد جلسوا الان متلاصقين متراكمين مثل مصيصان ثلاته ، صغيرة ، مذعورة ... وتذكرت قصة تلك الخالة الساحرة التي لجأت الى احط الوسائل غير المشروعة لتحل مكسان الام الحقيقيسة ، محاولت ان اعزي الصبية بقولي :

_ لا تغنبوا ! ان امكم الحقيقية ستعود تانية .

فهز البكر كتفيه ، وقسال :

_ وكيف تعود وهي ميتة ؟ ان ذلك لن يحدث !

هل صحيح ان الموت ، في مثل هذه الحالات ، لم يرسل من قبل الله ، بل من قبل المسعوذين والسحرة ، وبالتالي لم يكن حقيقيا !

وطفقت أروي لهم بعض حكايات جدتي بحماسة وحمية ، ولكن الولد البتسم باحتقار ، وقسال :

_ لقد سبعنا هذه الحكايات ، انها قصص خرانية ليس غير ١٠٠٠

واصغى اخواه باحترام وهدوء ، وقد قطسب الصغير وجهه ، وزم شنتيه ، ووضع الاوسط ذراعه على ركبته ، واحاط بساعده الاخر رقبة اخيه وهو يجذبه في اتجاهسي .

كان كل شيء ساكنا عند المساء ، وسحب رماديدة عديدة تحلق غوق المسطوح العالية ، عندما ظهر بيننا ذلك الشيخ الابيض السالفين ، وقد ارتدى معطفا بنيا طويلا يشبه جبة الكهنة ، وغطى راسه بقبعة كثيفة مسن الغرو . اقترب منا ، ثم سال وقد اشار الي بأصبعه :

ــ بن هــدا ۶

منهض كبيرهم ، والسار براسه الى دار جدي ، وقال :

_ هو من هنساك .

_ ومن طلب اليه المجيء ؟

غنزل المثلاثة حالا عن العربة ، ومضوا في اتجاه البيت . مرذ ناتية ، كالاوز المطيع . . .

رامسك الشيخ بي بخشونة من كتفسي ، وقادنسي عبر الساحة حتى البوابة . كنت اود ان اذرف الدموع من شدة خوفي ، ولكنه مشى بي مسرعا، وبخطوات كبيرة ، بحيث وجدتني في الشارع قبل ان اتمكن من البكاء ، ووقف بالقرب من البوابة ، وهيا اصبعه في وجهي مهددا ، وقال :

_ اياك ان تتجاسر وتحضر لرؤيتي ثانيـة !

المسحت غاضب

ــ انا لم احضر لاراك انت ، ايها العجوز!

فطالنني ذراعه الطويلة مرة اخرى ، وقادني أمامه على طول الطريق، وهو بكرر ذات السؤال ، فتنهال كلماته مثل ضربات مطرقة ضخمة هبطت على رأسى :

_ هل جدك ني الدار ؟

وشاء حظي العائر ان يكون جدي في السدار . . . وقف امام الرجل المتوعد ، وقد رمى راسه المي الخلف ، وبرزت لحيته المي الامام ، وقال متلعثما وهو يتطلع بعينين مدورتين كبيرتين كثيبتين :

_ ان والدته غائبــة ، وأنا مشنغول ، وليس من يعنى به ، أنسي استهيدك المعذر ، يا كولومين .

هزمجر الكولونيل بصوت تردد صداه في ارجاء البيت كله ، ثم دار على عتبيه ، وابتعد ٠٠٠

وبعد غترة وجيزة كنت مستلقيا في عربة العم بيوتر الخفسي دموعي ، بعد ان نلت نصيبي من الجلد كما لم اذق من قبل ، فسألني السائق ، وهو بقود العربسة :

ولما أخبرته بالامر هب واقفا على قدميه ، وكز باستانه ، وصاح غاضبا:

ــ لم اصادق جماعة مثل اولنك ؟ انهم من سلالة النبــلاء ، يعقصون كالانعى . . . ارايت ما نالك بسببهم ؟ ستردها لهم غيما بعد ، من دون ريب؟ اليس كذلــك ؟

واستمر يهذر على هذا الغرار مدة طويلة ، فاستمعت اليه سه بادىء الامر سه في كتير من الود ، نائرا بسبب ما لحقني من الضرب بسببهم ، ولكن وجهه الشبيه بالسلة طفق يرنجف بشكل يبعث على النفور ، فما أسرع ما نذكرت ان اولئك الصغار يجلدون أيضا ، وان ذلك قسد حدث لهم فعلا فيما مضى ، وانهم لم يتعمدوا مضايقتي أبدا ، فهم لا يستحقون اللوم أكثر مني في حال من الاحوال ، قلست :

_ ليس من سبب يجعلني ارد ذلك لهم ، مهم طيبون ، وان كمل ما تقول مجرد سخافات ليس غير ،

تطلع الى بحدة ٤ ثم صاح مجأة :

ــ اخرج من عربتــئ ا

نصرخت ، وأنا أقفز الى الارض:

سيالك من احمق ا

وانطلق يعدو خلفي في الساحة وهو يصيح ، دون ان يستطيع الى المساكي سبيسلا:

ــ الحمق أنا ؟ أسخيف أنا ؟ . . .

وظهرت جدتي على عتبة المطبخ ، غارتميت في احضائها ، بينما راح بيوتر يوضح لها ما جرى بيننا تائسلا :

ــ ينغص حياتي هذا الكلب الصغير . وهــو لا يفقه ما يقول ، فينعتني بسائر الاسماء البذيئة ، ويجرؤ على ان يدعوني كاذبا مع اني اكبره بخمس مـرات

كنت أفقد صوابي عندما أرى الناس يكذبون أمامي ، فتعقد الدهشة لساني وتجعلني أقرب الى البلاهة ، وهذا ما حدث لي عندنذ ، فوقفت أنظر اليه وقد نقدت القدرة على الكلام ، ، ، ولكن الجدة قالت بلهجة رصيغة :

ــ والان يا بيوتر ، انك أنت الذي يكذب ، اني واثقة من أنه لم يوجه اليك الفاظا بذيئة على الاطلاق .

اما جدي مكان يصدق ذلك السائق ٠٠٠

* *

ومنذ ذلك اليوم ، اعلنها السائق علي حربا صامتة شعسواء ، نهو ينتهز الفرص ليلكمني في ظهري ، او يصيبني باللجام السذي يلوحه بيده عابشا ، وكأن الامر يحدث صدفة دون قصد منه ، كما افلست طيوري من اقفاصها ، وسلط القط عليها في احد الايام ، ، ، وكان يشكوني ، في كل مناسبة ، الى جدي ، ويهمس في اذنه بأشياء كثيرة مغاليا ابدا في اظهار هغواتي وتعظيمها ، وهكذا كنت لا أرى فيه ، من جراء ذلك ، سوى صبي صغير في مثل سني ، يرتدي لباس الرجال الشيوخ ،

ورحت بدوري اتفنن فسي الانتقام منسه ، فاحل شرائسط صندليسه ، واقرض عصابات الاقهشة التي يستخدمها كجوارب لقدميسه ، بحيث تتقطع عندما يشدهنا ليربطها ، ورششت ، مرة ، بعض الفلفل في قبعتسه ، فظل يدور على عقبيه ويعطس طيلة ساعة كاملة . وعلى العموم ، فقد رحت أبذل ما في وسعي لارد له الكيل خيلين ، فاذا جاء يوم الاحد طفق يتجسس علسي النهار بطوله ، ويراقبني بعين ساهرة يقظة لا يغمض لها جفن ، ظان ضبطني في حالة من العصيان ، اتحدث مع النبلاء الصغار ، اسرع دون ابطاء يشي بي الى جسدى .

لكن اتصالاتي استمرت ، بالرغم من ذلك ، مسع اولئك الصبية ، وازدادت أواصرها توثقا يوما بعد يوم ، وهي تمدني بسرور لا يمكن وصفه . وكاتت تنهض ، بين حائط منزل جدي وسور آل اوفريانيكوف ، زاوية صغيرة مظللة بشبجر الليمون والسرو ، ومغطساة بادغال من شبجسر البلوط التسي حفر وراءها متسعا صغيرا في السور ياتيني الصبية منه ، كل بدوره او اثنين

اثنين ، منجلس القرمضاء نتحسادث في هدوء وسكينة ، بينمسا يخفر الثالث الكان كيلا يفاجئنا الكولونيل على حين غرة .

وسردوا على قصة الحياة الكئيبة المفجعة الرتيبة التسي يعيثتونها ، ماحزنني ذلك كل الحزن ، وحز كتيرا في قلبي . كنا نتحدث عن الطيور التي نصطادها ، وعن كتير من الامور التسي نملا حياه الصغار ، ولكنسي اذكر تماما انهم لم يأتوا ابدا على ذكر والدهم أو امرأة أبيههم ، وكثيرا ما كانسوا يسالونني ببساطة ان أحكي لهم قصة ، فاعيد على مسامعهم سربامانة نامة لسيت كل تلك القصص والحكايات التي سمعتها فيهسا مضى ، . ، فاذا نسيت بعض التفاصيل ، طلبت اليهم الانتظار بعض الوقت ، ومضيعت الى المطبخ بتورد من الجدة ما غاب عن ذاكرتي الامر الذي كانت تسر له سرورا عظيما .

كنت احدثهم ، في أغلب الاحيان ، عن جدتي ، ، ، وفي ذات مرة ، ندت عن البكر تنهدة عميقة ، ثم أعلن باكتئاب :

_ لا ريبة ان الجدات لطيفات جدا . لقد كانـت لنا جدة لطيفة نحن الاخرون وكنا نحبها كثيرا . . .

كثيرا ما تحدث بصيغية الماضي ، ويردد كثيرا ، وبحين ظاهر ، هذه التعابير : «كذا » و «كان لنا » و «ذات مرة » ، حتى ليخيل اليك انه عاش مئات السنين ، لا احد عشر عاما نقط . وأنا أذكر أن يديه كانتا نحيلتين ، قد طالت أصابعهما ورقت ، لا بسل كان — في مجمله — هزيسلا نحيسلا ، ذا عينين صافيتين هادئتين تثيران في الخاطر صورة لهب القناديسل المحترقة أبدا في الكنائس . ولقد أحببت أخويه أيضا ، فقد كسبا ودي وعطني منذ اللحظة الأولى ، بحيث يبعثان في قلبي الرغبة الاكيسدة في منحهما ما يحمسل السعادة الى مؤاديهما ، ولكن غرامي بالميكر كان أعظم على أية حال

كلت استغرق واياهم في الحوار حتى يقوتني ، غالبا ، اتتراب العم بيوتر منا . . . كان ، ابدا ، يفرق بيننا وهو يهتف بنا :

ــ هكذا ؟ معهم ثانية ؟

كنت الحظ انه يزداد عرضة لنوبات التقطيسب والعبوس . وتعلمست ايضا ان اخمن طبيعة مزاجه من مجرد طريقته في غنج البوابة عند عودته من

العمل . كان من عادته ان يفعل ذلك بتمهل وبتؤده ، بحيث تصفر المفصلات طويلا بين يديه ، فاذا كان سيء المزاج بعتت تلك المفصلات صوتا حادا يشبه زئير المسان يتألم ويشقى .

وقد غادرنا ابن اخيه الابكم الاصم الى الريف منذ زمن طويل ، سعيا وراء الزواج . . . وهكذا امسى بيونر يعيش وحيدا في غرفة واطئة السقف ، فوف بناء الاسطبل ، لها نافذة صغيرة . وكان قليل المعناية بتلسك الغرفة حتى غصت بروائح القطران ، والجلد المدبوغ ، والمعرق .

وقد طفق ينام ، في هذه الايام ، دون أن يطفىء القنديل ، الامر الذي أز عج جدى كثيرا .

كان يقول لسه دومسا:

ــ احترس! والا أحرقت المكان ، يا بيوتر .

فيجيب ، وهو يتطلع من طرف عينه متفاديا نظرات جدي :

_ كلا ، أطبئن ، خلا خطر من ذلك على الاطلاق ! اني أضع الشبهعة في الليل وسلط حوض من الماء .

اضحت نظراته الى الناس والإشياء مسترقة ، سريعة ، منحرفة . . . وامتنع عن حضور حفلات جدتي ، ولم يعد يدعونا الى المربشى ، في حين راح وجهه يجقى ، وازدادت فيه الغضون عبقا وعددا ، وطفق ينرنسح في مشيته ويسحب رجليه سحبا مثل رجل منهوك المقوى .

وذات يوم ، بينها كذت وجدي ننهيا المثلج السذي تساقط بغرارة اثناء الليل ، سمعنا مزلاج البوابة بلحن خاص وقع ، ودلف منه الى الساخة شرطي أغلق البوابة خلفه ، واتكأ بظهره عليها ، ثم اشار الى جدي بأصبعه السمينة الرمادية طالبا اليه الاقتراب منه ، وعندما حاذاه الجد المعق انفه الضخم في وجهه ، واسر اليه شيئا جعله يجمجم ، وهو يرتعس :

ــ هذا ؟ متى ؟ لو كنت أتذكر نمقط ...

ثم جفل بشكل مضحك ، وصاح :

- أيها الرب العلي ! اذلك ممكن ؟

نحذره الشرطى بموت خنيض:

ــ صه الاتصح هكذا ا

تطلع جدي حواليه ، فبصر بي ، فقال :

_ احمل المجارف واذهب الى الدار .

ماختبات في احدى الزوايا اراقبهما يدخلان جناح السائق في الاسطبل. وقد نزع الشرطى تفازيده اليمنى وهو يقول:

ــ لقد مهم ذلك تماما ، مهجرحصانه واختفى ...

انطلقت الى المطبخ بسرعة أطلع جدتي على ما رأيت وسمعت ، مالفيتها منكبة فوق وعاء العجين ، ورأسها المفمسور بالدقيسق يتأرجح مع حركسات بديهسيا . .

قالت بتمهل ، عندما انتهيت من سرد قصتي ، وبقسوة تعنفني : ـــ لربما سرق شيئا . . . اخرج الى الساحة والعصب ، نما دخلك نمى ذلك ؟

رجعت الى الساحة راكضا ، غبصرت بجدي بقف قدرب الموابة ، وقد نزع قبعته عن راسه ، وحلق بناظريه الى السماء وهو برسم اشارة الصيلب، مخشوش الشعر ، تعلو المارات الغضب وجهه ، وترتجف احدى ساتيه بعصبة

صاح ٤ وهو يضرب الارض بقدمه :

ــ الم اقل لك ان تذهب الى الدار ؟

ولحق بي الى المطبخ ، وما أن وقعت أنظاره على جدتي حتى هنف بها:

ــ تعالى ، يا أمـاه!

مضيا معا الى الغرفة المجاورة حيث قضيا فترة من الزمن يتهامسان وعندما رجعت البددة الى المطبخ ، ادركت ، من النظرة الاولى ، أن شيئا رهيبا قد حدث . . . سألت :

ــ انت مذعورة يا جدتى ، لماذا ؟

فأجابت بهدوء:

- اطبق ممك ، اتمهم ؟

واطبق على المنزل جو من الضيق والرهبة طيلة ذلك النهار ، وظل جدي وجدتي ، على مر الوقت ، إيتبادلان نظرات متسائلة قلقسة ، وكلمساب مبهمة غير مفهومة ضاعفت من أضطرابي وحيرتي ، ثم أحدر الجد أوامره ، بصوت مرتفع ، وهو يسعل :

ــ اضيئى القناديل كلها ، يا أماه ، امام سائر الايقونات .

تناول طعام الغداء بدون شهية وبسرعة غائقة ، غكانهما ينتظران احدا . وكان جدي يسعل ، ويهمهم :

ــ ان ابليس يفوق الانسان قوة . . . انظري ألى كُلْزا ، مثلا ــ رجل مين ، ورع ، تتى ، بكل معنى الكلمة ، ومع ذلك انظري ماذا فعل !

وأتانا ، عند المساء ، شرطي اخر ، كسان سمينا ، احمسر الرأس ، المتعد دكة في المطبخ ، ومضى يغنو عليها ، غيرتفع شخيره في ضجيج عنيف . سمالته جدتى :

_ وكيف اكتشفوا ذلك؟

فأجاب بفظاظة ، بعد لحظة من الصمت :

ـــ انهم يكتشىفون كل شيء عندنا بسرعة .

كنت أجلس الى الناغذة أسخن في غمسى قطعة قديمة مسن العملة كي أطبع بها صورة القدبس جاورجيوس ، حامل النشر ، على زجساج الناغذة المجمد . . وعلى غير انتظار ، علا ضجيج صاخب في المهر ، ثم فتح الباب ، وظهرت بتروفنا على العتبة ، وهي تصيح :

- تعالوا وانظروا ماذا يوجد على ارضكم في الخارج ...

ولم تكد انظارها تقع على الشرطي ، حتى استدارت نحو الباب تسعى وراء الغرار ، ولكن رجل الامن المسك بها من قميصها ، وصاح مذعورا :

- تمهلي لحظة! من أنت ؟ وماذا يوجد هناك ؟ ·

نركعت على ركبتيها ، وطفقت تبكي وهي تبتلع كلماتها ودموعها :

ــ لقد خرجت لاحلب البقرة ، ونجأة بصرت بشيء يشبه زوج أحنية في ساحة آل كاشرين

نصاح جدى عندئذ حانقا:

ــ هذا كذب ، ايتها الفاجرة! انت لا تستطيعين رؤية شيء في ساحتنا فالسور عال جدا عوليس من ثغرات فيه على الاطلاق ، انت تكذبين! ليس هناك شيء في ساحتنا.

فناحت بتروفنا ، وهي تمد اليه احدى يديها ، وتمسك رأسها باليسد الاخرى لتقول مترنحة :

ــ آه) يا الهي ، أنه على حق ، غانا اكسذب ! لقد انطلقت أحلب البقرة ، وهَجأة رأيت آثار اقدام تقود الى السور ، والثلج مبعثر في بقعة واحدة ، الامر الذي اثار فضولي ، فتسلقست السور وتطلعت من عليه ، فرأيته اجل رأيته

ــ رأيت ـ ٠٠٠ ن ا

جاءت هذه الصيحة عالية ، طويلة ، لا معنى لها ...

وعلى حين بغتة ، وكانهم فقدوا الشعور ، يركضون ويتدافعون خارج المطبخ في الدغرة السيخة ، وهنالك ، بين كتل الثلج ، في الدغرة التي خلفها احتراق غرفة الفسيل ، كان العم بيوتسر ممددا ، يستند ظهسره الى خشبة محترقة ، ويتدلى راسه فوق صدره ، وكانت فرجة واسعسة تستقر تحت أذنه اليمنى تماما ، اشبه ما تكون بثغر احمر اللسون ، ذى حواش مزرفسة تبرز كالاسنان ، اغلقت عيني في خوف ورهبة ، فشاهدت ، من خلال اهدابى، سكين العم بيوتر التي طالما رايته يقطع الجلود بها ، تتدلى من على ركبته ، وقد انشلت بالقرب منها اصابع بده اليمنى المحترقة الملتوبة ، اما اليد اليسرى فكانت مدفونة في الثلج الذي ذاب تحت الجسد الصغير ، الغارق عميقا نى المحيط الابيض النبر الناعم ، يبدو طفليا اكثر منه في اي وقست مضى ، وفد المطخ الثلج عن يمينه فرسم صورة حمراء غريبة اشبه بالطير ، بينما ظل عن يساره نقيا ، لامعا ، لا دنس فيه ، يمتد ناعسا براقا كعهدي به دوسا ،

وكان الراس المنحني يرتاحبما اوتي منقوة على المدر الذيظهر عليه ، منخلال اللحية المجعدة المسعثة ، صليب نحاسي احاطت به خيوط عديدة من الدم المتحسد .

واصابني الدوار لشدة اضطراب الاصوات حولي ، فبتروفنا تزعق دونما انقطاع ، والشرطي يصيح بغالي ان يذهب الى مكان ما ، وجدي مصرخ بكل ما أوتي من قوة :

_ أياكم أن تسيحوا أي أثر ،

ولكنه عبس مجأة ، وشخص الى الارض تحت قدميه ، وخاطب الشرطي في صوت عال يتضمن الامدر:

ــ لا مائدة من كل هذا الصياح ، ايها الضابط ! ذلك عمل الله ، دينونة الله ، وانت تأتينا بمهمتك الحمقاء هذه . تبا لــك !

نصمت الجميع ، وهم بتنهدون ويرسمون اشبارات الصليب ، ويحدقون طويلا في الرجل الميت .

وتفز الحرون من فوق السور ، قادمين من ناحية منزل بتروفنا . كانوا يقفون على الارض المغمغور شميء مبهم ، ثم يأتون عدوا عبر الساحة دون ان يثيروا ضجة تذكر ، حتى رمقهم جدي بحنق ، وصاح كمن فقد الامل :

ــ انكم تسحقون أدغال توت المعليق ، أيها الجيران ! الا تخجلون من انفسكـم ؟

والمسكت جدتي بيدي ، وقادتني حتى المنزل . . . حين سالتها :

۔ ماذا فعسل ؟

فأجابت همسا:

--- أما رأيت ؟

ظل اناس غرباء ، طبلة ذلك المساء ، وحتى ساعة متاخرة من اللبل ، يملأون المطبخ والغرضة المجاورة . وكان الشرطي يصدر أوالمسره ، وهناك اخر أشبه بأحد التسمامسة يسجل بعض الملاحظات في دغتر صغير ، وهو يكح داستمرار كالبطية :

ب ماذا ؟ مسادًا ؟

قدمت جدتي الشماي للجميع . ٠ ٠ كان يجلس الى طاولسة المطبخ رجل منفوخ الجسم ، طويل السمالفين ، ملأت البثور وجهه ، يقول في صوت متكسر :

__ ان احدا لا يعرف اسمه الحقيقي ، الشبيء الوحيد المعروف عنه انه جاء من ايلاتما ، اما ذلك الابكم الاصم غلم يعد أبكم او اصم اكثر منكم او مني ، لقد تكلم واعترف بكل شبيء ، وكذلك اعترف شخص اخر _ لانهم كانوا ثلاثة _ كانت مهمتهم أن يسرقوا الكنائس ، ذلك كان اختصاصهم منذ أمد يعيد جـدا

مهتفت بتروفنا ، محمرة الوجه ، وهي تتصيب عرقا :

_ يا الهسى !

اضطجعت في سقيفة المطبخ؛ انظر اليهم من على ، فبدوا لي ـ جميعا ـ قصارا ، غلاظا ، قبيحين . . .



alto

خرجت باكرا صباح بوم سبت الى حديقة الجارة بتروغنا لاصطاد بعض الطيور ، ولكسن وقتسا طويسلا انقضى وتلسك المخلوقات الطائسرة امسام عبني ، وكأنها تتعمد مضايقتي ، فتتمخطر بعذوبة وانطلاق فوق المثلج الفضى المتجمد ، او تطير بين الادغال ، وتتمايل على الاغصان المكسوة بالجلد الفزير اشبه بأزهار زاهية تتالق بين الاضواء السزرق المنعكسة على غبار الثلسج المتساقط . . . لقد كأن ذلك كله على نصيب وافر من الروعة والجمال حتى اني لم احس اسفا او خيبة امل من جراء محاولاتي الفائسلة للامساك بها ، في انى ، على العمسوم ، لست بالصياد الماهر ، بسل اسر بالطريقة التسي اصطاد بها أكثر منى بالنتيجة ، واحب أن اراقب الطيور ، واتامسل اسلوب حياتها أكثر من أن احوز عليها واملكها .

حقا! ما ابهى وأحلى ان تجلس وحيدا الى حانهة حقل يعج بالثليج ويموج ، ترهف السمع الى مناغاة المطيور في سكون أيام الشتاء البلورية ، في حين يرتمع ، في الانق البعيد ، رنيين اجراس « ترويكا » تعبر الطريق ركضا ، تلك هي قبرة الشتاء المحزن الكثيب تغنى

وجمعت شباكي واتفاصي ، عندما احسست بالتشعريرة تخترق العظم منى ، والصقيع يدب الى اذني ، وتسلقت السور المفضى الى حديقة جدي ، ومضبت مسرعا في اتجاه الدار ، كانت البوابة مفتوحة ، وموجيك ضخم يقود من خلالها ثلاثة خيول أسرجت الى مزلجة واسعة مغلقة ، وكانت سحب كثيفة من اللهاث تتصاعد من الاحصنة ، والفلاح يصفر مرحا ، ولكن قليسى

انتبض على حين بغتة دون سبب واضح . سألته :

_ بهن جنت الينا ؟

غاستدار ورمقني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده

_ لقد جئت بالكاهــن ،

فلم يثر ذلك اهتمامي - اذا جاء الكاهن فلا ريد ريارندا ، بل زيارة بعض المستأجرين سوائدا .

وصاح الفلاح ، وهو يهز عنان الجياد يحثها على الغضاء برنين أجراسها :

_ هيا ، اسرعى .

راقبتهم يبتعدون ، ثم أغلقت البوابة ، ودخلت الدار . . . ولم أكد أبلغ المطبخ ، حتى تناهى الى سمعي صوت أمي العميق يرتفع في الغرقة المجاورة:

ــ حسنا ، ماذا انت غاعل الان ؟ ربما ترغب في الاجهاز على ، اليس كذا له ؟ كذا ... ؟

مالقيت بالاقفاص ارضا ، واسرعت الى المر دون أن أخلع معطفي ، لكن جدي أمسك بي عند عتبة الباب ، وحملق في بعينين وحشيتين ، وبلع بصعوبة شيئا ما كان عالمقا في حلقه ، ثم صاح بصوت أجش :

ــ لقد رجعت الحك ٠٠٠ غاسرع اليها ا انتظر ١٠٠

وهزني بعنف بحيث لم اتمالك ننسي الا بجهد كبير ، ثم دنسع بي ناحية الناب ، وقال :

_ ادخل ، ادخـل !

أصطدمت بالباب ، ووقفت عنده لحظة مترددا حائرا ، ترتعش أصابعي انفعالا وبردا ، فأعجز عن الوصول الى مقبض الباب والامساك به ، وعندما فتحت الباب لخيرا ، وقفت على العتبة مذهولا ، منعقد اللسان ، فهتفت أمى:

- آه ، هـ هو ذا! يا للسماء االسم تعرفنسي ؟ ما هـ ذه الثيساب

التي برندبها ! . . . انظرى الى أذنيه المتجمدتسين بردا ! اعطيني شيئا مسن الدهن ـ اسرعى ، يا امساه !

وانتصبت في وسط الغرفة مندنية فوقي ، تخلع عني ثيابي تجعلني ادور امامها كالمحور ، كان جسدها الكبير متدثرا برداء احمر ، ناعم ، داغىء ، عربض كمعطف الرجال ، ذي صف من الازرار السود الكبيرة بمتد منحرفا من الكتف حتى طرفه ، . . انا لم اشاهد قط مثل ذلك الثوب من قبل !

بدا لي وجهها اصغر منه تبلا ، وانصع بياضا أيضا ، أما عيناها مقد السمعنا وازدادتا غورا ، وشعرها اضحى اكثر بربقا ذهبيا منه في اي وقت اخر . . كانت ترمى بالثياب التي تخلعها عنى ناحبة العتبة ، وشفاها الحمراوان تنقبضان ازدراء ، وهي تقول في نفهة عاتية :

- حسنا ، لم لا تقول شيئا ؟ السب مسرورا ؟ تفسو ، با للقميص الوسسخ !

وفركت أذنى بدهن الاوز ... آلمنى ذلك ، ولكن تلك المرائحة المنعشة اللطيفة التي كانت تفوح منها واستنى عن شدة المن وخففت منه . فالتصقت بها ، وتطلعت عملقا في عينيها ، دون أن أقسول شبئا الشدة اضطرابى وانفعالى .

وسممت جدتي تقول ، ردا على ملاحظات امي ، بصوت مهدد :

ــ لقد الهلت مسن كل رقالة ، ولسم بعد يخساف حتى مسن جده! ٥٦ ، فاريسا ، المريسا ، المري

- كفاك عويلا! ان كسل شيء سيسير على ما يرام .

كان كل ما يحبط بى ببدو ، اذا ما قييس بوالدتى ، صغيرا ، هرما ، بائسا ، لا بل خيل الى انى ، انا أيضا ، أداني جدتى العجوز سنا وهرما . وضمتنى امى بقوة بين ركستيها ، وطفقت تمسح على راسي بيدها الدافئة :

- أن شعرك لفي حاجة الى المقص ٠٠ وقد حان وقدت ذهابك الى المدرسة . أنريد أن تتعلم ؟

ـ لقد تعلمت كثبرا حتى الان .

. ـــ ما يزال هناك اشياء كثيرة يجب ان تتعلمها ، لكن ، يا لك من متى ذي باس وحيلسة ،

وضحكت ضحكة غنية توية ، وهي تلاعبني ...

ودخل الجد الى الغرفة ، غاضبا ، مشعث الشعدر ، محمر العينين . . ، مدمعتني أمي عنها بحركة بسيطة ، وسألت في صوت عميق :

- حسنا ! ماذا على أن أصنع ، يا أبت ، أأرحل ؟

فوقف قليلا الى النافذة يحك الجليد بالظافريده ، دون ان ينطق بحرف واحد . كان المجو خانقا ، متوترا ، فكانه يرهف السمع بكل ذراته ، وهو على استعداد للانفجار لدى أول صدمة ، وامتلاً جسدي بأسره ، كما هي الحال دوما في مثل هذه الحالات واللحظات ، عبونا وآذانا ، وتوسع صدري كثيرا ، واحسست رغبة لا تقاوم في المبكاء .

قال جدى ، في صوت يكاد يختنق :

ــ اخرج من هنا ، يا الكسى !

فمسألت امي ، وهي تجرني نحوها ثانية :

ــ ولم يخـرج ؟

ــ انك لن ترحلي . امنعك عن ذلسك !

فنهضت والدتي ، وأخذت تتمشى في الغرفة ، ثم قالت ، وقد وتفتت وراء ظهره:

- اصغ ، يا ابست ،

ــ اخرسي ا

معادت تقول بهدوم:

_ انني لا اسمح لك ان تصرخ في وجهي ا

فصاحت الجدة ، وهي تنهض عن الاريكة وتهز أصبعها محذرة :

ــ فارفـــارا!

وغرق جدي يضعف في أحد المقاعد ، يجمجم بينه وبين نفسه :

_ ما هذا ؟ من أنا ؟ مناذا تسمين ذلك ؟

وعلى غير انتظار ، طفق يزمجر كحيوان مثمن بالجراح :

_ لقد جلبت على العار ، هذا ما نعملته ، يا ماريسا!

نتالت جدتی تخاطبنی :

ــ اخرج من هنسا .

مضيت حزينا الى المطبخ ، وتسلقت الموقد حيث بقيست غترة طويلسة استمع الى ما يجري في الغرغة المجاورة سه كانوا يتحدثون بحدظ مرة ، شسم يخيم عليهم الصمت مرة اخرى ، كانوا يتحدثون عن طفل ولدته امي وتركته في رعامة بعض الناس ، ولكني لم المهم ما الذي يثير جدي الى هذا الحد ، اهو غاضب لان المسمى ولدت بدون اذنه ام لانها لم تحمل الرضيع اليه ؟

واخيرا ، دلف الى المطبخ ، احمر اللون ، اشعث الهنسدام ، مضطرب البال ، منهوكا ، تناثره جدتي وهي تمسيح الدموع المترقرقسة على وجنتيها بطرف قميصها ، وارتمى على كرسي ، معتمدا عليها بذراعيه ، منحني الظهر، يعض شنقيه المساحبتين ، وجثت الجدة على ركبتيها بالقرب منه ، وهسي تقول بصوت حار خفيض :

- اغفر لها ، يا ابتاه ! محبة بالمسيح ، اغفر لها ! ان لكل حصان كبوة، وهناك كثيرات غيرها زللن . او لا تحدث مثل هذه الامور بين النبلاء أيضا، وحتى بين التجار كذلك ؟ انظر الى المراة لهها واغفر لها ، له المدمنا معصوما عن الرذيلة . . .

غاستند الى الجدار ، يحملق في عينيها ، وهو يردد ناشجا :

ــ اوه ، نعم ، بالطبع ! لم لا ؟ انت على استعداد لان تسامحي كل انسان وكل شيء . تقو ! تبا لــك !

ثم انحنى نحوها ، وامسك بها من كتفها ، وراح ينهرها والكلام يسيل همسا من بين شفتيسه :

- ولكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء ، اليس كذلك ؟ ها نحن الزلاء على حافة القبر ، وهو ينزل العقساب بنا ، لقد بلغنا ايامنا الاخيره فلاذا بها فارغة من السلام ، والفرح ، ومن كل ما كنا نطمح اليه ، ، ، سنموت شحاذين ، تذكري كلهاتي ، شحاذين معدمين ا

فأخذت جدتى يده في يدها ، وجلست بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

_ وما اهمية ذلك ؟ ولم كل هذا الخوف من أن تكون شحادًا ؟ أذن ، سنصير شحادين ، وتستطيع أنت أن تبقى في البيست ، بينما أخسرج أنا لاستجدي ولسن نعيش جائعين عريانسين ، فكفاك تعذب نفسك بمثل هذه الاوهسام !

ونفخ بمنخريه فجأة ، ونطح الهواء براسه كالتيس ، ولف ذراعه حسول عنق جدتى ، والتصق بها ، صغيرا ، رثا ، باليا ، وقال متأوها :

- ايتها الحمقاء ، ايتها الحمقاء اللعينة ! انت الانسان الوحيسد الذي بقي لي على الارض ، انت لا تأسفين على شيء ايتها البلهاء ، لانك لا تفهمين شيئا تذكري نقط ما عملنا من اجل اولادنا ! الملم ارتكب المعاصي في سبيلهم ؟ والان ، في النهاية ، ماذا معلوا لنا ، لو انهسم يردون لنا شيئاً يسيرا مهسا عملته من أجلهسم ! . . .

وهنا لم اعد احتمل مزيدا ، فقفزت عن الموقد وأنا أتصبب عرقا ودمعا، وركضت اليهما ، وأنا أبكي فرحا لان أمي قد عادت ، ولانهما تبادلا هدة الكلمات اللطيفة الجميلة ، أسفا لانهما سمحا لي بمشاركتهما أحزانهما عانقاني ودللاني ، وأغرقاني في دموعهما ، وهمس جدي في أذني كمن يعتذر :

ــ هانذا هنا ايضا ، ايها الوغد الصغير ! انــك ان تحتاج الي بعــد الان ، بعد عودة الله ، النا ، جدك ، الشيطان الهرم ، اليس كذلك ؟ حتى ولا جدتك ، تلك المعجوز التي لا تعرف شيئا سوى تدليلك والهسادك . الا تبا لك!

وأبعدنا عنه باشمارة من يده ، ثم نهض واتفا وقد تمالك نفسه ٠٠٠

مساح غاضبا :

_ الجريع ينركوننا ! وكل بذهب في الطربق الذي يريد ، لا يعرف الا حملحته المخامة . . حسنا ، نادوها ، اسرعوا !

فغادرت جدس المطبخ مسرعة ، بينما انتدى جدي ناحية الايتونات ، وهو يهمهم منحني الرأس :

_ ايها الرب الغفور _ هل نرى ماذا أنعل ؟ هل ترى ؟

وضرب صدره مقبضة يده بعزم ، فكان لذلك زنين قوي لم احبه ، فكنت ، على المعموم ، ابغض تلك المطريقة التي يخاطب الله بها ، . كان ابدا يتباهى ومفخر بشيء ما ، . ، وجاءت امى ، فملات الغرفة بوجودها الذي كنت اثناقه وجلست الى الطاولة على الدكة بين جدتي وجدي ، وكان ثوبها العريض ينحدر عن كتفيها ، وراحت تروي لهما بهدوء ووقار قصة ما ، وهما يصغيان اليها في صمت وسكون ، كانا يبدوان بالنسبة اليها ، ، فكانها هي الام وهما ولداهيا ،

كنت مضطجعا في السقيفة ، فسرعان ما استسلمت ، منهوك القوى من حوادت النهار ، للنوم الذي طغى على بسرعة . . .

ارندى الشيخان ، ذلك المساء ، ثيابهما الفاخسرة ، ومضيا لحضسور ملاة الغروب ، غمزتنا جدتي جذلانة لتلفت اننباهنا الى جسدي الذي كان بنالق في بزة رئيس نقابة الصياغين المؤلفة من سروال مخملي ومعطف مسن جلد السنور ، تم همست في اذن امى كمن يكشف سرا :

ــ انظري الى ولدك ، يا له من تيس صغير :

فضحكت اس في غبطــة ...

وعندما خلوت واياها في غرنتنا ، جلست على الاريكة وقد ثنت احدى ساقيها تحت جسدها ، ونادتنى ، وهي تنقر باصعها على الاريكة المجاورة لها:

ــ تعال ، تعال واجلس الى جنبي ، حدثني كيف عثمت حياتك ؟ حياة رديئة ، اليس كذلك ؟

ترى ، كيف كانت الحياة ؟ لست ادرى !...

- _ ایجلدك جــدك ؟
- ـ لم يعد يجلدني كثيرا .
- صحيح إ حسنا ، حدثني عن كل ما نشاء ، هيا . . .

لم احسى شوقا الى الحديث عن جدي ، فرحت أروي لها أن رجلا لطيفا جدا سكن الفرفة التي نحن فيها الان ، وكيف لم يحبه أحد من سكان الدار ، وكيف طرده جدي أخر الامر ، وبدأ لمي أن تلك القصة لم ترق لوالدتي الني قالت :

ــ حدثنى عن أمور اخرى .

فحدثتها عن الصبية الثلاتة ، وكيف طردني الكولونيل من ساحته .

قالت ، وهي تحتضنني :

_ يا له من رجل خسيس!

واستكانت نفسها ، فراحت تتأمل الارض بنظرات من عينين ضيقتين ، وهي تحك راسها . . . سالتها :

- ــ لماذا ينتم جدي عليك ؟
 - ــ أنا مذنبة في نظـره .
- _ كان يجب ان تحملي الطفل اليه . . .

فجفلت ، وقطبت جبينها ، وعضت شفتها ، ثم اطلقت ضحكة عالبة... قالت ، وهي تحتضنني ثانيسة :

_ ايها الطفل الصغير! اياك ان تتفوه بأية كلمة عنه مرة اخرى ، السمع ؟ ولا كلمة _ بل اياك ان تفكر في ذلك على الاطلاق .

وظلت ، بعض الوقت ، تتفوه بكلمات هادئسة ، جاغة ، مبهمسة ، لم اع منها شيئًا ، ثم نهضت تذرع الغرغة ذهابا وجيئة ، وهي تنقر بأصابعهسا على ثغرها ، وتحرك حاجبيها الغليظين . كانت شمعة تحتسرق على الطاولة ونذوب ، غتنعكس خيالاتها نحسي المرآة ، بينما خلال وسخة ترنجف على الارض ، والقنديل الازلي يلتهب نحسي . زاوية الايتونات ، والمنافذة المغطاة بالجليد تضيء في ضوء المقبر بلمعان غضي براق . واجالت والدتي ناظريها حولها ، كما لو كانست تفتش عن شيء نمي المجدران الفارغة والسقف العالى ، ثم سألت :

- ــ متى تذهب الى مراشك ؟
 - _ بعد تليـل .

فأجابت ، وهي تتنهد :

- هذا صحيح ، لقد غفوت تليلا بعد ظهر اليوم ،

سألتها بعد قليل :

_ اترغبين مى الرحيل ؟

ناجابت می دهشة:

ــ الى ايسن ؟

ثم رضعت راسي ، وحملقت طويلا في عيني بحيث لم استطع لدموعي احتباسا ...

سما بالسك ؟

ــ ان رقبتي تؤلمنــي .

ولكن قلبي كان إكثر ايلاما ، نقد أدركت انها لن تستطيع العيش في ذلك البيت طويلا ، بل ستغادره حتما مرة أخرى .

قالت ، وهي تلعب بطرف السجادة بقدمها :

ــ انك ستغدو شبيها بوالدك في يوم ما . هل حدثتك جدتك عنه :

سنعسم ، .

أن لقد كانت تحب مكسيم كنيرا . كانت مغرمه به ، وكان ، هو الاخر، ، مولمسا بهسا .

- انا اعلم ذلك .

والقت نظرة على الشمعة ، وعبست ، مم نفخت على المتمعلة الضئيلة فأطفأنها . . . وما عنمت ان قالت :

_ هذا افضل .

كان ذلك المضل من دون ريب ، متد بدت الغرفة اكثر وداعسة ونطافة عندما خمد المنور . وحلت شمعاعات ضوء القمر الزرق محل الاخيلة الوسخة على الارض - بينما طفقت شرارات ذهبية تتمايل على زجاج النالفذة وتتراقص كريشسة في يد فنسان .

ــ این کنت تعیشین قبل مجینك الى هنا ؟

مذكرت اسماء بلدان عديدة ، وكانها تستعيد في ذاكرتها ماضيا سحيقا غابت حوادته عن بالها منذ زمن بعيد ، وهي تدور طوال الوقست في الغرفة كطائر حبيس ليس يدري الملاتا ، ثم سألت :

ــ من اين حصلت على هذا الرداء ؟

- صنعته بنفسي . اني اصنع كل شيء بنفسي .

كنت اسر للغاية حين اراها تختلف عن الجميع كسل الاختلاف ، مسلا يؤسفني منها الا قلة حديثها ، فهي لا تتكلم الا كي تجيب على اسئلتي ،

وجلست ، مرة ثانية على الاريكة قربي ، وبقينا هكذا طويلا صامتين ، ملتصقين ببعضنا بشدة حتى رجع الشيخان من المصلاة تغوج منهما رائحة الشمع والبخور ، وتعلو وجهيهما سيماء الرغق ، واللطف ، والاكبار . . .

وكان العثماء احتفاليا ، يليق بحدث عظيم الاهمية ، لم نتحدث خلاله الا نادرا بتحفظ شديد ، مكاننا نخاف ايقاظ شخص عزيز مسن نومه الحفيف الذي استسلم لسه ...

ولم تمض أيام قليلة حتى اخسذت والدنسي على عاتقها مهمة ثقافتسي

الدنيوية » غابناعت لي بعض الكتب ، كان احدها «هبادىء القراءة الروسية» الذي تعلمت غيه ، خلال بضعة ايام ، حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية ، لكن أمي كانت نريدني حفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك بدء عذاب مشترك لنا نحن الاثنين ،

وهذه هي اول المقطوعات الشموية التي كان على أن احفظها :

« طريق تهب عليها الريساح ، تجسوز الحقول ودور البشر ! وما كسر الفأس الحجارة فيهسا ولكسن حوافسر خيسل تمسر »،

كنت ، كلما تلوتها ، اقول « النباح » عوضا عن «الرياح» ، و «الكأس» عوضا عن « الفأس » و « فبرافر » عوضا عن « حوافر » فتحتج والدتي بقولها:

ــ ولكن مكر قليلا ، كيف يمكن ان يهــب « النباح » ، أيهـا الغبي ؟ قل « الرياح » ، هذا ما يجب ان تقول !

نهمت ذلك ، ولكنني ظللت القول «النباح» اثناء تلاوة الدروس ، فتغضب والدتي غضبا شديدا ، وتلقبني بالعنيد الغبي ، فأجد هذه الكلمات تاسية جارحة ، واروح احاول جهدي الا اخطىء اللفظ مسرة اخرى . . . وكنات ، كلما رددتها في قلبي ، لا الفطىء فيها ابدا ، ولكن لا ابدا بتلاوتها بصوت عال حتى اخلط بين الكلمات من جديد ، وابتدات اخيرا اكره ذلك الشعر المتيات فشرعت السوهه عهدا ، بأن اجمع عددا من الكلمات التي لها نفس النغمة الى بعضها البعض ، واغتبط عندما تفقد تلك الاشعار بذلك كل معنى لها .

ولكن تلك التسلية كلفتني غاليا ، فقد سألتني والدتي ، ذات مرة ، في نهاية احد الدروس ، ان السمعها تلك الابيات ، فرحست اغمغم عاليا دون تصد أو وعي منسى :

« على الطريق الطويلة ، السهيلة ، الهزيلة ، لا كاس ، ولا طاس ، ولا ناس ، ولا راسي ! . . . »

وما ادركت ما أنا فاعل ألا بعد فوات الوقت : فقد نهضت أمي ، وهي تعنمد يديها على الطاولة . . . سألت وهي تلفظ كل كلمة على حدة :

_ من این جلبت کل هــذا ؟

فأجبت ، وقد سيطر على رعب سُديد :

ــ لست ادري صدقيني : لست ادري .

_ اوه ، بل انت تدري ، اخبرني ا

_ لقد قلت ذلك عرضا .

-- لماذا ؟

- لجرد النسلية ،

_ امض الى الزاوية!

_ اية زاوي___ة ؟

ــ لست ادرى ما تريدين منى أن افعل!

مغاصت في أحد المقاعد وهي تحك ، جفنيها وخديها :

- الم يأمرك جدك ابدا بالوقوف في الزاوية ؟

۔ متبی ؟

فضربت الطاولة بقبضة يدها مرتين ، وصاحت :

- في يوم من الايام!

- كلا! لا اذكر ذلك مطلقا
- الا تعلم أن الموقوق في الزاوية عقاب ؟
 - کلا ! ولماذا یکون عقایسا ؟

فصاحت بصوت أشد ارتفاعا:

- تعال المني ا

فسالتها بعد ان مضيت اليهسا:

ــ لماذا تصيمين في وجهسى ؟

ولماذا تتعمد تشويه الاشمعار التي احفظك اياها ؟

أرحت أشرح لها ، بكل ما أوتيت من قوة ، أنني أتذكر القصيدة كما مكتوبة عندما أغلق عينى ، حتى أذا جربت القاءها بصوت عسال ، صد منى كلمات أخرى دون أرادتى ، فسألت بهدوء نسبى :

ــ الست تسخر منى الان ؟

فاقسمت انني صادق . . . ثم رحت ، على الفسور ، اتساءل ان صادقا ام لا ! . . وعلى غير انتظسار ، اخذت اتلو الابيات بتؤدة ، فاذ لا اخطىء نيها ابدا ، الامر الذي ادهشني وسحقني في وقت واحد . احس بوجهي يتورد ، وبأذني تلتهبان وتمتلئسان دما ، وبطنسين مزعج يدوي ا دماغي ، ووقفت هكذا تجاه أمى وقد أهلكني المخجل الشديسد ، ارى سخلال دموعي سوجهها يسود أسفا وكمدا ، وحاجبيها ينخفضسان وشعطيقسان . . .

سالت ، في صوت عال مرة الحرى :

- ما معنى ذلك ؟ يبدو انك كنت تتعمد ذلك معلا !

ــ لست أدري ٠٠٠ لم أكن اقصده ٠٠٠

نقالت ، وهي تهز راسها:

ــ ما أصعبك ! اخرج من هنا !

وراحت تطلب منسى ان احفظ كل يوم قطعسة جديدة من الشعسر ، نتزداد ذاكرتى تمردا ، بينما تتضاعف الرغبسة في تحريسف تلك الاسطسر الموزونة ، وينمو الشوق الشرير لاستبدال بعض الكلمات بغيرها وتشويهها . وكنت اتوصل الى ذلك دون صعوبسة ، فتهجسم الكلمات الغريبة الى نلاري اسراما ، تأخذ سد دون كلفة لله مكان الكلمات الاصلية ، وكانت حافظتي احيانا نرغض استبعاب أبيات كاملة مهما بذلت من الجهد العنيد في سبيل ذلك لله مثلا:

« منذ الصبح وحتى هبسوط الفسق ، يمر _ على الدرب _ جمع طريح! يستعطون شيئا باسم المسيح!...

مكنت انسى الشمطر النالث منها على الدوام واستبدله بد:

« ويودون خبرا يسد الرمق » .

وتفتاظ أمي لهذا الانكفاء في ذاكرتي متلجأ الى جدي تحدثه بالامسر ، مينوجه البها هذا قائلا في غضب :

ــ خبيث ، شيطان ، يفعل ذلك عمدا . انه بعــرف جميع الصلــوات احسن مني ، وله ذاكرة كالحجر ، اذا انحفر فيها شيء لم يقتلع منها أبدا . بجب أن تجلديــه !

رجاءت جدتى تثنى على رأيسه :

ــ انه يتذكر القصص والخرافات جيدا ، وكذلك الاغنبات والاغانسي الشعرية ، اليس كذلك ؟

كان كل ذلك صحيحا لا مراء فيه . . . شعرت اني الملهوم ، ومع ذلك كنت كلما ابدا في حفظ قصيدة جديدة تأخذ مفردات أخرى تدب كأسراب مهن المراصير ، وتصطف من ذاتها الواحدة تلو الاخرى في أبيهات أكثر أو إقل تناسقها :

« يأتي الى بيتنا في الصباح! اناس كثيرون بنتظرون . . . بصلون . . . ويبتهلون ويبكون مثل زئسير الريساح! وكنت اعيد على جدتى ، عندما ارقد الى جانبها ليسلا نهي السقيفة ، كل ما علق بذهنى من دروس ذلك النهار ، وكل ما نفتقست عنه مخيلتي من ابداع خاص ، فتضحك احياتا ، وتزجرني احيانا اخرى بقولها :

- ارأيت ، انك تستطيع ان تفعل ما تريد حين تريد ! ولكسن ، يجب عليك الا تهزأ بالمفتراء لان الله معهسم . . . ان المسيح نفسه كان فقيرا ، وكذلك بقية القديسين .

فأجيب متمتما :

- « انسى أبغض الفقسراء ،

وابغض ايضا جسدى !

ماغمسر لسى يا ربسى ا...

الطبيسير نسي المسسواء ،

لافسر من عنسف جدى ،

ام انسزوي في جسب ؟! . . »

تالست بحدة:

- لبت لسانك يقلع من جذوره ، ايها الوقح الشرير ! ماذا يحدث او سمع جدك هـذا ؟

- فليسمسع ٠٠٠

فراحت ترجوني بلطسف :

ــ لماذا تظل نضايق امك المسكبنة هكذا ؟ يكليها ما تعانيه الان حتى تزيد الطين بلة بخبشك . . .

- وما نوع هيومهما ؟

- اخرس ! انك لا تستطيعان تفهم مثل هذه الامور !

- أنا أعرف أن جدى ٠٠٠

_ لقد أمرتك أن تخرس!

كنت تعيسا يطفح قلبي بشعور أقرب ما يكسون الى اليأس ، فأريد لسبب اجهله حكتمان ذلك الشعور وعدم اظهاره ، فصلا أزداد الا جرأة ووقاحة وتمرد!! وتكاثرت دروس والدتي واشتدت صعوبة على مر الايام ، لم يكن يعسر علي فهم الحساب ، وان كنت بالقابل لا أطيق الإملاء ولا أفقه معنى لقواعد اللفة ، والدي كان يغيظني اكثر من كل شيء آخر هو الشعور بشقاء والدتي وادراك بؤسها في دار أبيها ، كانت تزداد تجهما يوما بعد يوم ، فتهيم عيناها وراء شيء غربب ، بعيد ، غير منظور ، أو تجلس الى النافذة ساعات طويلة تحملق الى الخارج في صمت وسكون ، تتراءى لى حين اشخص الها أنها نذبل شيئًا فشيئًا وتتلاشى ، لقد كانت ، في الإبام الاولى بعد وصولها ، سريعة الحركة ، تطفح نشاطا واندناعا ، أما الان بنتد تربعت دائرتان سوداوان تحت عينيها ، وأصبحت تقتصر من ظهورها بيننا ، فتقضى النهار بطوله في قميص طوبل أشعث غير مبكل الازرار ، دون أن سرح شعرها أو تصففه ، ، ، وكان يحز في قلبي أن أراها على هذه الحال من الإهمال ، هي التي كانت بالنسبة لى دوما حسنة جميلة ، بل كفت اشعر أنها أنها أنسان في الوجود كله .

وفي اوقات الدروس كانت لا تنظر الى ، بل تنبت نظرها في الجدار ، او تبعث به من خلال الناغذة ، وتطرح على الاسئلة في صوت متعب منهوك بدون مبرر ، الامر الذي كان يحزنني ويجرح مشاعري ، فتصيح في وجهى دون انقطاع ، الا مر الذي كان يؤلني وبجرح مشاعرى ، أن من واجب الام ان تكون عادله ، اعدل من بقية الناس ، مثل الامهات في قصص جدتي الخرافية وكلت ، في فجرات متاليات ، أسالها :

_ الست سعيدة بيننا ؟

نتجيب بحدة :

_ هذا لبس من خصوصياتك . اهتم بشؤونك الخاصة .

وكنت أرى ايضا أن جدى يهسىء أمرا تخافه جدتى وأمى ، وكشيرا ما كان يقفل الباب على أمي وعلى نفسه في غرفتها ، حيث بتناهى ألى سمعي زعيقه أشبه بصفرات آلة الراعي نيكاتور الخشبية المخوفة . . . وقد صاحت أمي ، في أحدى هذه المناسبات ، بصوت عال جدا سمعه جميع من في البيت:

«14»

ــ هذا لن يكون ابدا ، ابــدا !

واغلقت الباب بشدة ، نشرع جدى يعوى ٠٠٠

كان الوقت مساء ، وجدتي جالسة في المطبخ تخيسط لجدي قميصا ، وهي تغمغم بينها وبين نفسها بكلمات مبهمسة غير مفهومة ، وعندمسا اغلق الباب بشدة ، ارهفت سمعها وهي تصيح :

_ ٢٥ ، يا الهي ! ماذا حدث ؟

وغجاة ، اندنع جدي داخل المطبخ ، وتوجه مباشرة الى زوجه يلطمها على راسها ، ويكز باسنانه ، ويزعق وهو يحمل يده المجروحة :

_ متى تتعلمين مببط لسانك ، ايتها الساهرة المجوز ؟

مأجابت بهدوء ، وهي تعيد ترتيب شعرها :

ـ يا لك من احمق! اتعتقد انك ستعلمني ضبط لساني عسن الكلام ؟ تاكد اننى سأطلعها على كل شيء اعرفه من مشاريعك وخططك . . .

نرمى بنفسه عليها ، وأنهال على رأسها ضربا مبرحا وهي ساكنة ، لا تقاوم أبدا ، ولا تجرب أن تدفعه عنها ، بل تردد بعناد :

- هيا اضربني ، ايها الاحمق ! اضرب ، اضرب . . .

ورحت أنا أرميه ، من على السقيفة ، بالوسادات والأحرمة والاحذية ، وكل ما طالته يداي . . . ولكنه ، وقد أعماه الغضب ، لم ينتبسه الشيء من ذلك مطلقا ، وسقطت جدتي على الارض ، فاستمر يرفسها على راسها حتى تعثر وسقط على الارض ، راميا معه سطلا من المساء ، وسرعان ما نهض وهو يبصق ، ويتلفت يمنة ويسرة قبل أن يندفع خسارج المطبخ مسرعا الى غرفته في الطابق العلسوي ، ونهضت جدتي بدورها وهي تتسأوه وتئن ، وجلست على الدكة ، وراحت تعلق الدبابيس في شعرها المشعث . . . أما أنا فقفزت عن السقيفة إلى الارض ، وما كادت تراني حتى صاحت في غضب:

- اجمع هذه الوسادات والاشياء الاخرى ، وارجعها الى مكانها نوق. . جميل والله ان ترمينا بكل هذه الاشياء هكذا! قلت لك الف مرة لا تهنم بما

لا يعنبك ... وذلك الشيطان الهرم ، ما باله قد مقد عقله على هذه الصورة الوحشية ؟

وعلى هين غرة ، ندت عنها صرخة خاننة ، وتغضن وجهها ، ونادتنى وقد احنت رأسها ودلتنى باصبعها :

_ انظر هنا ، ما الذي يؤلني بكل هذه الشدة ؟

غرفعت شعرها الثقيل اغنش فيه حتى عنرت على دبوس غارز في غروة رأسها . سحبته ، فوجدت دبوسا اخر . . . وهنا شعرت بالضعف يجتاح جسدى بكامله ، فقلت :

_ يحسن ان انادې امي ، انا خائسف !

نصاحت ، وهي تلوح ببدها:

- ماذا تقسول ؟ تنادى الهه ؟! اشكر الله لانها لهم تر ذلك او تسمعه ، وانت تريد ان تناديها ! اخرج من هنا !

وراحت نبحث ناصابع مطرزه ماهرة ، عن الدبابيس المدمونة في شعرها الكثيف الرائع ، وجمعت شجاعتي وتسواي ، واعتنها في سحب دبوسين اخرين من جلدة رأسها .

_ ايؤلك ذلك ؟

_ قليلا ! ساستحم غدا واغسل الالم كله .

نم راحت تملقنی بحنان:

ــ لكن ، اباك ان تخبر امك بما حدث لى ، ابها العصفور الصنغير ٠٠٠ يكفى ما هي نميه . انت أن تخبرها ، اليس كذلك ؟

_ كــلا!

حذار ان تنسى وعدك ! والان ؛ غلنرتب كل شىء معا . اتسطيع ان ترى شيئا ما على وجهى ؟ كلا ؟ هذا حسن ! ان ما حدث سيظل سرا بننا .

وبدأت تمسيح الارض ، فقلت من صميم قلبي :

- انت قديسة - يعذبونك ويضربونك ولا نلقين البهم بالا .

ــ ما هذا الهراء ؟ قديسة يا له مـن مكان جميـل للبحث فيه عـن قديسة !

ظلت تغمغم طويلا وهي تزحف على يديها وركبتيها ، بينما تبعت انا على عتبة الباب ابحث عن طريقة انتقم بها من جدى على تصرفه ذلك المساء . . . كانت هذه هي المرة الاولى التي يقسو فيها جدي علي جدتي حتى تلك المدرجة ، في حضوري على الاقل . . . فرحست أتصور ، في ظلمسة الليل ، وجهه الملفوح المتأجج ، وشعره الاحمر يتموج حواليه . كسان قلبي يحترق فيظا وأنا أتالم لعجزي عن تصور الانتقام الملائق .

وبعد يومين ، دخلت غرفته في الطابق العلوي لسبسب ما ، خوجدته متربعا على الارض ، مكبا على صندوق مفتوح يعبث غيه ببعض الاوراق ، وقد وضع على كرسي بالقرب منه تقويمه الكنائسي الذي يحبه كثيرا ، وهو مؤلف من اثني عشرة ورقة من اللون الباهست السميك قسمت الى مربعات بعدد أيام الشهر ، وفي كل مربع منها صورة لوجه القديس الذي يوافق عيده ذلك النهار ، كان جدي يقدر ذلك التقويم ويحرص عليه كثيرا ، فلا يسمح لمي بالقاء نظرة عليه الا في حالات استثنائية نادرة ، عندما يكون راضيا عن عملي او سلوكي ، وكنت أمعن النظر في تلك الملامع الصغيرة الباهتة الجذابة ، وعاطفة غريبة تتأجع في صدري ، كنت أعرف سيرة حياة بعضهم : كريك واليتا ، والشهيدة فارفارا ، وبندلامون ، وغيرهم ايضا ، . وكنت أحب ، واوليتا ، والشهيدة فارفارا ، وبندلامون ، وغيرهم ايضا ، . وكنت أحب ، بصورة خاصة ، قصة القديس الكسي ، رجل الله ، وكذلك تلك الاشعار الرائعة التي غالبا ما كانست جدتي تتلوها وتلحنها على مسمعي بنغمة الرائعة التي غالبا ما كانست جدتي تتلوها وتلحنها على مسمعي بنغمة خاصة تهز مشاعري ، كنت انظر الى هؤلاء الشهداء أحيانسا ، فاتعزى حبن خاصة تهز مشاعري ، كنت انظر الى هؤلاء الشهداء أحيانسا ، فاتعزى حبن أهكر ان بعض الناس ، في كل عصر ، قد اضطهدوا من أجل ايمائهم . . .

غير انني قررت ، في تلك اللحظة بالذات ، ان أمزق ذلسك التقويم ، موهنهت أترقب الفرصة ، حتى اذا مضى جدي الى النافسذة يقرا في ورقسة زرقاء مزينة برسوم مختلفة ، أسرعت فالمتطفست ثلاث وريقات من ذلك التقويم ، ثم وليت الادبار حتى المطبخ حيث تناولت المقص مسن على طاولة جدتي ، وتسلقت السقيفة وشرعت اقص رؤوس القديسين ، ولم أكد أطبح بأول صف منهم حنى حز في قلبي اتلافهم على هذه الصورة ، فاشرعت اقص الورق على مستوى الخيوط التسي تفصلها الى مربعات ، ولم أكد انتهسي من قص السطر الثاني حتى ظهر الجد على عتبة الباب ، وقال :

_ من سمح لك ان تسرق التقويم ؟

وعلى غير انتظار ، لمح المربعات الصغيرة مبعثارة على الارض ، الختطفها ورمقها طويلا ، ثم رماها والتقط سواها ، حتى اذا ادرك ما حدث ارتعش نمكه ، وارتجنت لحيته ، واشتد تنفسه بحيات اطاح بالاوراق تطير في الهاواء ،

ــ ماذا نعلت ايها الشقى ؟

وقف اخيرا ، واخذ يجذبني من قدمي عن الموقسد . . . ولكني أغلست منه ، وقفزت في المهواء ، مالتقطتني جدتي بين ذراعيها . . .

صرخ ، وهو يكيل الضربات لجدتي ولي ايضا:

ــ سأقتل . . . !

وظهرت والدتي هجأة ، هوجدت نفسي في الزاويسة وهي تقف أمامسي تحمينسي ٠٠٠

صاحت ، وهي تجرب ان تصد سيل اللكمات التي تنهال من قيضتي جسدي :

_ ماذا تفسعل ؟ عد الى صوابك !

نتهالك جدي على دكلة قرب النافذة يقول ، وهو ينتحب :

_ لقد قتلتموني ، جميعكم ضدي _ كلكم!

فجاء صوت المي الخافت الضعيسف:

_ الا تخجل من نفسك ؟ انت ابدا تسخر من الجميع بتمثيلك هذا!

مابتدا يصرخ ، ويرمس الدكة بقدميسه ، وقد أغلسق عينيسه بشدة ، وارتفع رأس لحيته نحو السقف بشكل يبعث على المدرية ، وبدا لمي انه خجل حقا من ذلك الدور الذي مثله بحضور أمي ، وان هذا ما جعله يغلق عينيه قالت امي تهدىء من روعه ، وهي تلتقط الاوراق المبعثرة :

مسلمق لك هذه القطع الى بعضها على قطعة مسن القماش ٠٠٠ الموسيح المتقويم احسن مما كان عليه واكثر مثانة . انظر اليه ، لقسد اهترأ

ونرزق هذا التقويم ، ولم يعد ينفع مطلفا .

كانت تحدثه بنفس اللهجة التي ننوجه بها التي عندما كا زيعمى علي نهسم شرحها ، لكن الجد نهض فجاه ، واصلح من وضمع تميمسه وصدرينه بترو زائد واحنيال عظيم ، نم سعل ، وقال :

ــ عليك بالصاف هذه الانسياء اليوم بالذات ، سأجيئك ببنية الاوراق الباقية عندي ،

وانجه الى الباب ، ولكنه اسندار على المتبة وقال ، وهو يهز اصبعه المعوج مشيرا السي :

_ أما هو فيسنأهل الجلد !

موانقت أمى بهزه من راسها وقالت :

_ نعم ، لا ريب في ذلك .

ثم سالننی ، بتمهل:

_ لاذا معلت ذلك ؟

ــ فعلت ذلك عهدا . واذا هو ضرب جدتي ثانية لاقطعن له لحبنه

مهزت جدتى رأسها ، وهي تخلع قميصها المزق ٠٠٠

مالت ، وهي تبصق باشمئزاز :

ــ كان يجب ان تمنع لسانك عن الكلام كما وعدتني . ليت هذا اللسان ينقطع حتى يكف عن النرثرة بكلام بذيء ا

مرنت أمي اليها ، ثم استدارت الي ، وسألت :

-- متى ضربها ا

فيقاطعها جدتي ممانعية :

- الا تخجلين ، يا غارفارا ، اذ تطرحين على طفل صغير مثل هذه الاسئا_ة ؟ ذلك ليس من شائك !

نساحت امي ، وهي معانقها بحرارة :

ــ ٦٠ ، اماه ، ايتها الحبيبــة ا

ــ هم ، يا لها من أم ممتازة بالنسبة اليك ! هيا ، دعيني اذهب . . . ونظرت كلتاهما الى الاخرى لحظة في صمــت ، ثم مضت كل منهما في سبيلها . . . وكنت استطيع أن اسمع الى جدي يروح ويجيء في المر ويتمشى معدم استقرار .

• • •

نصاحبت أمي ، منذ اليوم الاول لوصولها ، مع زوجة الضابط المطيفة ، وامست نزورها كل مساء تقريبا ، وهناك كانت تلتقي ببعض آل بيتلينغ رزمرة من السيدات الجميلات ، وفريق من الضباط الشجعان ، ولكن ذلك لم يرق لجدي ، فكان يلوح بملعقته دوما في اتجاههم ، وهو مكب على الاكل في المطبخ ، ويقول معلقا بتأفف :

_ انهم يحيون حفلة اخرى الليلة ، لعنة الله عليهم ! هذه ليلة ثانية لن احد النسوم سبيلا فيها .

وما اسرع ما طلب الى الجيران اخلاء الشبقة ، ثم جلب بعد رحيلهم ، من مكان لا يدري به احد ، شحنتين من الاثاث البالي العتيق ، ووزعه في الجناح المفارغ ، و احكم قفل الباب ، وهو يقول :

_ اننا لن نحتاج الى اولئك المستأجرين بعد اليوم ، بل أنا الدي ساستقبل الضيوف من الان نصاعدا .

ولم يكد يوم الاحد يطل حتى شرع الزوار يتوافدون علينا . وكانت من بينهم أخت جدتي ، ماتريونا ايفانوفنا ، وهي غسالة عريضة الانــق ، كثيرة الحلبة ، ذات شعر ذهبي ، تلبس رداء مــن الحرير مخططا . . . وكبان يصحبها ولداها : فاسيلي ، وهــو رسام شاب ، لطيــف المعشر ، طيــب القلب ، طويل الشعر ، يلبس رداء ركاديا ، وفيكتــور ، وهو فتى ذو رأس كرأس الحصان ، ووجهه صغير تفطيه بقع كبيرة من النمش ، لم يكد يبلغ المشى ــ حيث شرع ينزع عنه معطفه ــ حتى وصل الى اذني صفــيره وترنمه بهذه . الكلــات :

_ اندریه _ بابا . . . اندریه _ . . .

فادهشني منه ذلك وارعبني في الوقست ذانه دون أن ادري سببسا ٠٠٠٠

وجاء الخال ياكوت ايضا يحمل قيارت ، يصحبه ساعاتي الرأس ، اعور ، يرتدي معطفا طويلا اسود اللون يجعله على هيئة الرهبان . وكان يقبع في احدى الزوايا يبتسم ، وقد أمال راسه واستند المحليقة المتسققة الى أصبع واحده ، يستطلسع بعينه الوحيك كل ثدىء حوله بحدة خاصة ، قليل الكلام ، يردد على الدوام هذه الجما

_ ارجوك ، لا تتعب نفسك ، فكل شمىء سيان ٠٠٠

عندما تطلعت غبه ، للمرة الاولى ، تذكسرت بغتة ذلسك الزمن (وكنا ما نزال نعيش في شارع نوغايا) عندما سمعت الطبسول تقرع بالشر والويل في الطريق المعام ، ورايت عربة سوداء عالية ، يحيط بها والناس ، تتحرك منحدرة من السجن حتى الساحة العامسة ، وقسد غيها ، على دكة صغيرة ، رجل يغطي راسه بقبعة مستديرة ويداه ، بسلسلة من الحديد تصعد اصواتا غريبة كلما مشى . . . وكانت لوحة سودا من عنقه ، وقد كتب عليها شيء ما بأحرف بيضاء كبيرة ، انحنى راس عليها مكانه يقرا المكتوب غيها

_ هوذا ولسدى !

قالت أمي ذلك ، وهي نقدمني الى الساعاتي ، ولكني نفوت الى مذعورا ، وقد شبكت يدي خلف ظهري . . مقال هذا ، وقدد انسحاحتى اذنه اليمنى بطريقة مرعبة :

- أرجوك ، لا تتعبى نفسك ...

وامسك بي من حزامي ، وجرني اليه ، وادارني امامه بحركة سم ماهرة ، ثم قال ، وقد أغلتنسى .

ـ انه في صحة جيدة ، انه قوى !

واتخذت مجلسي على مقعد من الجلد يتسم للرقاد نيه ـ وكان

يفتخر دوما بأن ذلك المقعد قد خص الامير روزينسكي فيما مضى من الايام ورحت اراقب من نلك الزاوية كيف يجرب الكبار عبنا أن يمرحوا ، وكيسف تتبدل تعابير وجه الساعاتي دون انقطاع ، الامسر الذي أثسار استغرابسي وارتيابي . . . كان يبدو أن وجهه النحيل ، المكسو بالشحم ، يلين كالشمع الاصفر ويذوب ، فأذا أبتسم الرجل أنحرفت شفناه الغليظتان إلى اليمين ، وانتقل أنفه المسفير مثل قطعة صغيرة من اللحم المقدد في قاع صحن وسخ وكانت أذناه الكبيرتان المنفرجتان تتحركان بدورهما بشكل مشير للضحك ، فترتفعان تارة مع حاجب العين السليمسة ، وترتميسان تارة على الخديسن المعظمين فيخال لى أنه يستطيع أو أراد أن يغطى بهما أنفسه .

وفي بعض الاحايين كان يخرج من نبيه ، بعد ان يصعد زفرة عميقة ، لسانا أسود ، صغيرا ، مدورا كالقرص ، نيرسم به عدة دوائر وهو يرطب شختيه الغليظتين المبللتين . . وجدت ذاك مدهشا اكثر منه مضحكا ، نام استطع ان ارنع عينى عنه أبدا .

تناول الضيوف الشاي ممزوجا بالسروم الذي كانت تفوح منه رائحة البصل المحروق ، واحتسوا ، فيما احتسوا ، الاشربة التي تهيؤها جدتي والتي كانت ذهبية اللون ، او خضراء ، او سوداء معتمة كالحة كالزفت . . . واكلوا من معجناتها المشوية المغطاة بالقشطة ، كذلك بعض الكمك الممزوج بالعسل حتى انتفخوا ، وتصببوا عرقا ، وراحوا يزفرون بشدة وهم يشكرون جدتي على كرمها . وبعدما شبعوا ، جلسوا بتراخ في مقاعدهم ، وقد توردت وجوهم وزهت الوانها ، وراحوا يسالون الخال ياكوف في تكاسل ان يعزت شيئا على قيثارته ، فانحنى هذا عليها ، وشد من اوتارها ، شم شرع يغنى بصوت بشبه عويل الثكلى :

« لقد لهونسا هنسا لنبسلا الارض غناء . . وجاءت مسن « كازان » يسا لها مسن حسناء جساءت تفتش عسس صماحي لهو وهناء! »

وجدتها أغنية حزينة جدا ، وكذلك وجدتها جدتي من دون ريب ، اذ قاليت :

- غن شيئا اخر ، يا ياكوف - أغنية حقيقية لطيفة . اتذكرين تلك الاغاني التي كان الناس يغنونها في الماضي ، يا موتريا ؟

ألاجابت المسالة في لهجة طروب ، وهي تمسك طرف توبها :

- ان اسلوبا جديدا طرا على الاغاني في هذه الايام ، يا عزيزتي .

فحدج خالى جدتي بعينين نصف مغلقتين وكأنها بعيدة عنسه جدا ، تم نابع الانشاد بنغمته الحزينة وكلهاته البشتعة . . .

كان جدي منهمكا في مناقشة سرية مع الساعاتي ، وهو يبرهن شيئا ما على أصابعه ، وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحيسة والدتي ، ويهز راسه ، بينما تأخذ قسمات وجهه المائع بالارتجاف في خبث كتير ، ، أما أمي فكانت جالسة بين الاخوين سيرجييق كالعادة ، تتحدث بهدوء وتؤده ووقار الى فاسيلى الذى كان يننهد ، ويقول :

ــ هه ا يجب ان أنكر في ذلك ا

فيبتسم فيكتور ابتسامة ماكرة ، ويسحب قدميه على ارض الغرفة ، ثم يروح ينشد فجأة في صوت حاد رفيع :

- اندریه - بابا ۰۰۰ اندریه - ۰۰۰

ميتوقف الجميع عن الحديث ٠٠٠ ويرمون بأبصارهم اليه ٠٠

مالت والدته بانفسة:

ــ لقد أخذ ذلك عن المسرح ، انهم يغنــون هكذا هناك ،

تضينا أمسيتين أو ثلاثا فقط من هذه الامسيات . . . الشد ما ارهتني فيها ـ وانا اذكر جيدا ـ ملل لا يطاق . ثم جاءنا ذلك الساعاتي ، ذات يوم احد ، عند الظهيرة ، بعد خدمة القداس الاخيرة مباشرة . وكلت جالسا في غرفة والدتي اساعدها في استخراج اللاليءمن ثوب مطرز عتيق ، حين فتح الباب بفتة على مصراعيه ، وظهر وجه جدتي المذعور لحظهة تصيرة كانت كانية لان تتبتم فيها :

- غارفارا ، لقد جـاء 1

غلم تجعل والدتي ، ولم يتقلص في جسدها طرف واحد . . . ثم غتح

الباب نانيه ، بعد اقل من دقيعة واحدة ، وظهر وجه جدي على المعتبة وهو يقول في وقار عظيم :

__ ارتدى نيابك ونعالى ، يا مارمارا !

فهالته والدني ، دون أن تقف أو بدير نظرها الميه :

_ ولكن الى اين ا

_ تعالى يباركك الله ، وكفاك نقاتما ، انه رجمل مستقيم ، ينفسن عملمه ، وسيكون إبا طيبا لالكسى . .

كان جدي يتحدث باهنهام غير معهود ، وهو يضرب وركيه بيديه دون انفطاع ... بينها طفق مرفقاه يرتعشان وگان يديه نرغبان في الامنداد الى الامام ، وهو يجاهد ليمنعهها من ذلك ... قالت امي بهدوء:

ــ لقد سبق وقلت لك ان ما تخطط له لن يكون .

فاسرع جدي اليها ، وقد مد ذراعيه الى الامام منه كرجسل ضرير ، وصباح بصوت جاف ، وهو يرتعش من ام راسه حتى اخمص قدميه :

ــ تعالى ، والا جررتك جرا ــ من شعرك ا

__ ستجرنــى ؟

سالت والدني وهي تنهض ، مربدة الوجه ، وقد ضاقت فتحة عينيها وشع فيهما تهديد مرعب . . . واسرعت تنضو عنها معطفها ، ثم تنورتها .

قالت حين اضحت عارية وليس ما يستر جسدها سوى قميصها :

_حسنا ، جرنـي ا

مكشر عن أسنانه ، وهز قبضتيه ، وصاح :

ــ ارتدی ثیابك ، یا مارمارا!

ندنمعته والدتي ، ومضت الى الباب ، وزعتت :

ــ حسنا ، هيا بنا ١٠٠٠

همس من أطراف شفتيسه:

_ سألعنسك !

_ لا اخانك ولا اخاف لعنتك

وغتحت الباب ، ولكن جدي المسك بها من طرف تميصها وسقط على ركبتيه . . . وانخرط باكيا ، وهو يقول بصوت لا يكاد يسمع :

-- ستهلكين ، يا غارغارا ! أيتها الشيطانة الماكرة ! لا تجلبي العار علينا . .

وارسل انينا مفجعًا ، مكأن الما مرهقا يعتصر مؤاده :

ــ الماه ! تعالى وانظرى !

كانت جدتي ، في ذلك الحين ، قد سدت الطريسق على أمي وراحست ثدفعها الى الغرفة بحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة ، وهي تهمس من بين اسنائها:

ـ ايتها الحمقاء غاريا! ارجعي ، يا قليلة الحياء!

عندما أصبحت أمي في وسط الغرفة ، اسرعت جدتي تفلق الباب بالمزلاج ، ثم استدارت نحو جدي ورفعته عن الارض بيدها الواحدة ، بينما هزت اليد الاخرى في وجهه متوعدة :

- انه منك ، اند ، ايها الابليس العجوز ، ايها المخلوق الغبي ؟
وأجلسته على الاريكة كلفته من الخرق ، منحني الراس ، غاغر الغم ،
وهي تهتف بوالدتي :

- البسي ثيابك ، انست ا

نقالت والدتي ، وهي تلتقط ثيابها عن الارض :

ــ انى لن اذهب اليه ، هل تسمعان ؟

ودنمتني جدتي عن الدكـة:

ــ أسرع وهات وعاء من الماء . . . هيا ، انطلق !

كانت تتحدث همسا ، لكن بهدوء وبلهجة الامر ، اسرعت عبر المهر لانفذ طلبها ، ومن هناك استطعت ان اسمع خطوات تسير جيئة ورواحها ببطء وخطوات ثقيلة في الغرغة المواجهة ، بينما بلغني صوت امي تصيح غي غرنتها:

_ سارحل غدا!

مضيت الى المطبخ ، وجلست الى النافذة كالمسدوه ، كان جدي يئن ويتأوه ، وجدتي تغمغم بشىء ما في سرها ، واصطفق احد الابواب في عنف ، ثم خيم المسكون والرهبة على كل شىء من جدبد ، . . و فجأة ، تذكرت الغاية التي جئت من أجلها ، فملأت طاسة بالماء وخرجات الى المرحيث التقيلت بالساعاتي يسمر متدلى الرأس وهو بدعك قبعته المصنوعة من الغرو ، ويطلق امواتا جافة فارغة ، . . . وكانت جدتى تتبعه ، وقد صلبت ذراعبها على صدرها ، وهي تنحني له دون ان يراها ، وتقول في صوت خفيض :

__ انت تعرف ذلك جيدا __ فالحب ليس بالامر الذي يجبر الانسان علبه جبرا

وتعثر الساعاتى على عتبة الباب ، ثم دلف منه الى الساحة ، ببنها رسمت جدتى اشارة الصليب ، ووقفت هنالك لحظات يسيرة ترتجف فبها كل ذرة ... ترى ، هل كانت رجفتها ناشئة عن الضحك أم البكاء ؟ . . لست ادرى ! لانى لم استطع ، في ذلك الحين ، ان اسبر غور نفسها . . .

ركضت اليها اسألها:

_ ما بالــك ؟

ماختطفت الطاسة من بين يسدى بعنف حتى اراقت بعض الماء على جوربي ٤ وقالست :

- من أين رحت تستقى هذا الماء ؟ اتفل الباب!

واستدارت راجعة الى غرفة والدتى ، بينما دلفت أنا الى المطبخ ورحت استمع ، من هناك ، الى تاوهاتهما وتنهداتهما المستمرة فكأنهما تدفعان ، من مكان الى أخر ، حملا ثقيلا بفوق تواهما . . .

كان النهار بديعا رائعا ، واشعة شمس الشتاء الماثلة تختسرق زجاج

النافذنين المتجلد ، وكانت المائدة مهيأة للغداء ، تلتهسع علبها الصحسون النحاسية ، وزجاجتان تحتوي احداهما شراب الكفاس الذهبسي ، والثانية فودكا جدي المخضرة من كثرة الجعة غير المختبرة فيها ، ومن زهسر الربيع المخساف اليها لتعطير رائحتها ، وكانت كوة صغيرة تبعث وميضا من الثلج يبهر النظر من خلال مساحات ضيتسة من الجليسد الذائب على زجاج احسدى النافذتين ، . ، كان ذلك الوميض يتلألا على الاسطحة ، ويتألق على القبعات الفضية البرآقة التي تكال عواميد السيساج واعتساش العصافير ، وكانست طيوري الاسيرة تمرح في اقفاصها الفياضة بأشعة الشمس ، والمعلقة علسي اطسراف المنافسذة : فالبلبسل الاليف يزقسزق جذلان مرحسا ، يصفهس ، بينما شرع المسون يردد أغنية من أغانيه الجميلة . . لكن هدفه الموسيقي الحلوة ، وذلك التألق الذي يبعثه النهار الفضي ، لم يحمسلا الي شيئا مسن الغبطة على الاطلاق ، كان الغم يمال نفسي فأرغب عن التمتع بجمسال ذلك النهار الرائع وعن كل شيء اخر في الوجود . . . واردت أن اطلسق سراح الطيور للنمتع بالحرية والسلام ، ولم اكد اتثاول الاقفاص حتى ظهرت جدتي الطيور للنمتع بالحرية والسلام ، ولم اكد اتثاول الاقفاص حتى ظهرت جدتي في الطبخ تزمجر ، وتلطم خديها ، وتصيح وهي تركض الى الموقد :

- لعنكم الله جمعا ، واخذتكم العناريت ! آه ، يا ليك من عجيوز حمقاء ، يا اكولينا !

وأخرجت من المفرن مطيرة كبيرة ، وضربت بأصابعها على تشرتها المحترقة ، ثم بصقت على الارض :

- لقد احترقت حتى صارت رمادا! وانا التي اردت ان اسخنها مقط! تفو ، يا اينها الشياطين ، هلا تحطمتم جميعا وذهبتم هباء! وانت أيها الموم، لماذا تقعد محملقا بعينين كبيرتين ؟ اود لو اهشمكم قطعا كآنيه المفار . .

وشرعت تبكي وهي تقلب الفطيرة من جهة الى جهـة ، وتلمس القشر المجاف ، وتستيه بدموعها الغزيرة ...

ودخل جدي وامي الى المطبخ ، مرمت جدتي ذلك التلف على الطاولة

بشدة متراقصت الصحون وصدر عنها ضجيج صاخب ..

... انظرا ما حدث ، وكل ذلك بسببكما ، حملكما الشيطان!

مارتمت والدتي عليها ، وقسد استردت هدوءها ومرحها ، تعانتها وتواسيها وترجوها ان تنسى كل ما حدث ، . . بينما راح جدي يرنو حواليه، تعبا ، متغضن الوجه ، وهو يأخذ مجلسه الى المائدة ، ويعتد حول عنته ، وينظر شمزرا بعينيه المنتفختين ، ويغمغم :

_ حسنا ، غلننس ذلك ! لقد اكلنا غطائر لذيذة مـن قبل . ان اللـه بخيل بعض الشمىء ، يأخذ منك مقابل دقائق من السعادة سنوات من الشقاء، وهو لا يؤمن بالفائدة . . أجلس ، يا فاريا. . . وانسى ما حدث !

كان يبدو وكأن مسا من الجنون أصابه . . . ظل يتحدث ، طبوال الغداء ، عن الله ، وعن « آهاب » الملحد ، وعن البلايا والشدائد التي تقع على عاتق رب الببت ، فقاطعته جدتي بشدة تقول :

_ هيا تناول غداءك ، ولا تتحدث كثـرا!

وضحكت أمي ، وبرقت عيناها الصانيتان . . .

سالتني ، وهي تربت على كتفي :

- حسنا ، هل جزعت كثيرا مما حدث ؟

كلا ! لم الحف كثيرا ! ولكنني اشمعر الان بالقلق والمضبق ، ولا استطيع ان الههم ماذا حـــدث . . .

ظلوا باكلون طويلا وكثيرا ، كما هى العادة ايام الاحاد والاعداد ، حتى ابتدا المال ينال منى ، . وصعب على أن أصدق أن هؤلاء هم انفسهم الذبن كانوا ، لنصف ساعة مضت ، يصدون في وجوه بعضهم ، يهيجون نقمة ، ويغلون غضبا ، وهم على أهدة التتال في كل لحظة ، . وكذلك لم استطع أن أمدق أنهم كانوا جادين فيها ذهبوا البه ، وأن ذلك كلفهم بعض العناء . . لقد اعتدت صراخهم ، ودكاءهم ، وذلك النزاع الذي لا ينتأ يتكرر ، كي يعود فيخمد بسرعة غربية ، حتى لم أعد التي الاهتمام كما كنت المعل من تبل .

ولكني أدركت ، بعد زمن طويل ، أن الروسيين المجبريت على حيا ختيرة فارغة كانوا يفتشون عن نسلية لهم حتى في الحزن نفسه ، فيلعبون بـ كالاطفال ، ولا يحسون الخجل من مصائبهم الا في التليل النادر . . .

وعندما تكون الحياة رتيبة ، يمسي الحزن نفسه عيدا وحدثسا مرحب بهما - وحتى الحريق يصير تسلية لذيذة . . . وكذلك الجرح البسيط ، في وج خال من كل معنى ، يمسى زينة جميلة رائعة . .

. . .



اضحت والدتي ، بعد ذلك الحادث ، قوبة ، منتصبة ، وراسا للبيت كله ، بينما استنسلم الجد الى الصحت ، والتواضع ، نكانه لم يعد هو هو ، ونقد شيئا مهما من نفسه ...

ولم يعد يبرح البنت ابدا ، بل يجلس في الطابق العلوي بقرا في كتاب غريب مبهم يدعى «مذكرات والدي » . . كان يدغظ ذلك الكتاب في صندوقه الضخم تحت « القفل والمفناح » ، وكتيرا ما لاحظت انه يغسل بديه قبل ان يأخذه من مكانه . . كان الكتاب صغبر الحجم ، جلدي الغلانه اصغره ، قد كتب على صفحه الاولى الزرقاء هذه المعبارة بعبر باهت اللون : « الى النبيل فاسيلي كاشرين ، مع أخلص التحيات واجزل الثمكر . . . » . وكانت هذه الكلمات مذيلة باسم غريب بنتهى بصورة منهقة حلوة تمثل عصفورا يطر . . . وكان جدي بفنح الغلاف الجلدي الثقسل بعناية فائقة ، ويضع نظارتب الفضيتين وبرنو طويلا الى تلك العبارة وهو بتلمس أنفه ليصلح من وضع نظارته ، ولقد سألته ، اكثر من مرة ، عن ماهبة ذلك الكتاب ، فكان يجيب نصورة مشرة وقد قطب ما دين حاجيه :

ــ انس لك من حاجة الى معرفته الان . تربث قليلا ــ وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطفى السنورى أيضا .

أصبح بقتصد من كلامه مع والدتى ، واذا خاطبها فنصوت حلو لطبف، اما أن تحدثت هى ، فهو بصفى البها بانتباه ، وبتمتم بصوت غسير مفهوم ، ربومىء ببد ه، وبطرف بعينه كما كان يقعل الخال بدوتر تماما . . .

كانت الصناديق تعج بكثير من الثياب الغريبة الملونة ، قمصان حريرية

«\{\}

مزركشة ، وصدار من الساتان والفرو ، وأثواب من البروكار طويلة لا أكما، لها ، مطرزة بالفضة ، وتبعات مزينة باللؤلؤ ، ومناديل ، واريطة عنق براتد الالوان ، وعقود من أحجار مختلفة الالوان ، وكان يحمل ذلك كله الى غرف والدتي ، ويرمي به على الطاولة والمقاعد ويقول ، عندما يرى الى والدتم تعجب بالحلى وتدهش :

ــ في ايام صباي كانت الثياب اثمن منها اليوم واجمل ! كانست الثياب اثمن ، اما الناس مكانوا يعيشون ببساطة ومحبة وود اكثر منهم في هذ الايام . ولكنى اعتقد أن ذلك الزمن لن يرجع ثانية ، مجربي هذه الاشياء واختاري ما يعجبك منها . . .

وذات يوم ، نزلت أمي عند رغبته ، ومضحت الى الغرفة المجاور وارتدت ثوبا طويلا يضحرب الى السواد ، مزخرفا بخيوط من الذهب ووضعت على راسها تبعة جميلة مزركشة . . . قالت ، وهي تنحني لجدي

ــ ابروقك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فلهث جدي ، واشرق وجهه ، وراح يدور حولها وهو يحرك ذراعيه كمن مشي سكرانا ويهمهم:

ــ آه ، غارفارا ! آه لو كنت ثرية فقط ، وكان هنلك اناس وجهاء ميه حولناً!

وقد شعفات والدتي غرفنين اماميتين في المنزل ، حيث كانست تستقبا كثيرا من المضيوف ، وكان الاخوان مكسيموف اكثر الزوار ترددا علينا ، كار احدهما يدعى بيوتر ، وهو ضابط طويل القامة ، جميل الطلعة ، ذو احيس عريضة شقراء ، وعينين زرقاوين ، جلدني جدي في حضوره يوم بصقت علم راس ذلك الشريف الاصلع ، وكان الاخر يدعى يفجيني ، شاب مديد الجسايضا ، ولكنه نساهب الوجه ، ذو ساقين طويلتين ، ولحية سوداء مدببة وعينين كبيرتبن تشمهان الخوخ البري ، يرتسدي دوما برزة خضراء ذهبيس الازرار ويضع شارات مذهبة على كتابيه الضيقتين . وكان من عادته ان يدلم بشمره الطويل المتموج من نموق جبهته العاليسة الى الخلق ، وهو يبتس بتواضع ظاهر ، ثم يروح يروي في صوت ابح حديثها ما ينتتجه ابدا بهسذ العبارة الني لا تتغير :

_ انت ترین ، یخیل الی ان ٠٠٠

نتهبه والدتي كل سمعها ، وعيناها نصف مغلقتين ، وتقاطعه في اغلب الاحيان ضاحكة :

__ انت ما تزال طفلا ، يا يهجيني فاسيليفيتش ! واني أرجــو أن تغفر لى قولى هذا . . .

نيوانف الضابط الكبير ، وهو بضرب براحة يده على ركبتــه زيادة في التاكيــد:

_ نعم ! طفل ! انه لكذلك تماما !

مرت عطلة عيد المبلاد في حبور صاخب ، مكان الضيوف يجتمعون عندنا كل مساء وقد ارتدوا نيابا زاهية جميلة ، كانت ثياب أمسي دائما ازهاهسا وابهاها ، ثم يخرجون جميعا من الدار ليقوموا ببعض الزيارات . . .

كان الببت ، في كسل مرة يخرج فيها ذلك الجمع المرح مسن الباب - بدو وكانه بغوص في الارض ، ويغرق في اجسة من الكآبة والسآمة ، ويسبح في صمت خانق ثقيل . . . وعندئذ كانت جدتي تجوس خسلال الغرف كسأوزة هرمة ترتب كل شيء ، وتعيد النظام الى نصابه ، بينما يتف جدي وظهره الى قرمبد الموقد يتدفأ ، وهو يهمهم بينه وبين نفسه :

ــ حسنا ، حسنا ، سترى الى اين ستقيدها هذه الطريق التي تسيو عليها الان بدون وعي ٠٠

ولم تكد غترة عيد الميلاد تنقضى حتى اخذتنسي امي مع ساشا ، ابسن المخاليل ، المى المدرسة . . . وكان هذا الاخير قد تزوج المرة الثانية ، فلم يكد يمضي على زواجه بضعة ايسام حتى اخسد ساشا ينال مر المسذاب والضرب من خالته التي ابغضته بسرعة عجيبة ، فاتترح جدي سنزولا عند المحاح جدتى سان يتكفل به . وواظبنا على المدرسة مدة شنهر واحد فقط ، والست اذكر ، من كل ماتعلمته طوال تلك المدة ، الا شبئا واحدا ، وهسو انه لا يكفي عندما اسال عن اسمي ان أجيب : « بشكوف » بل يجب ان اتول : « اسمى بشكوف » وكذلك غاني لا اتمكن من ان اخاطب المعلم اتول : « اسمى بشكوف » وكذلك غاني لا اتمكن من ان اخاطب المعلم

هكددا : « لا يصرخ في وجهي على هذا الشكل - يا استساذ ، ملست اخاف منسك !... » .

وسرعان ما حقدت على المدرسة . . . بينها هام بها ابن خالي شغفا و و و عددا من الطلاب لا باس به . . ولكنه غفا ، ذات يوم ، انناء المدرس وانطلق يصيح في نومه : « كلا ! لا أر . . . يد ! » . . وعندما اسنيقظ ، استأذن في مفادرة الصف ، ولكن الطلاب سخروا منه بقسوة . . وفي حساح اليوم النالي توقف عن المسبر ونحن في طربقنا الى المدرسة ، بعد ان سجاوزنا خندق ساحة سينابنا ، وقال لى كمن يفشى سرا :

ـ سنتابع الطريق من دونى ، فأنا لن أذهب الى المدرسة هذا النهار. أنى أنضل الانطلاق في نزهة ...

وجلس القرنصاء ، ودنن كتبه في الثلبج ، ومضى . . . كنا في كانون الثانى والنهار منبرق ، والارض تلنمع بما اسبغت عليها اشعة الشمس من نور وضباء . . وداخلنى احساس بالغبرة من ابن خالى ولكني صررت على اسنانى وتابعت الطربق في اتجاه المدرسة محبة بأمى . . . وطبيعى ان كتب ساشا المدفنة في الثلج سرقت ، فاصبحت له بذلك ذريعة حقيقيسة للامتناع عن الذهاب الى المدرسة في النوم التالى . . . وفي البوم الثالبث ، اكتشف جدى تصرفات ساشا وسلوكه الغرب .

وقدم كلانا للمحاكمة : حلس جدي وجدتى واسمى وراء الطاولة نمسى المطبخ ، بقومون بالتحقبق . وانى لاذكر ، حتى الان ، احوبة سائما السخيفة على اسئلة جدي .

- ــ لماذا لم تذهب الى المدرسة ؟
 - ــ لقد نسبت موقعها .
 - ـــ نسست ۴
- أعم ، وقد فتشت عنها طويلا ...
- كان يجب ان تتبع الكسي ، فهو يعرف الطريق .
 - ـ لقد اضعت الكسى

- _ اضعت الكسى ا
 - ــ نعـم ،
- _ وكيف يمكن ذلك ؟
- فكر ساشيا لحظة ، ثم قال متنهدا :
- _ كانت هناك عاصفة ثلجية فلم استطع رؤبة اى شيء على الاطلاق .
- مضحك الجميع . . . لان الطقس كان رائعا صافيا مثمما ذلك النهار . .

ولم يستطع سائما نفسه ان يمتنع عن الابتسام قليلا ، ولكن جدي كشر عن اسنانه ، وقال في خبث كمن يوقع بعدو :

- _ الم تستطع ان تمسك بيده او بحزامه ؟
- _ لقد معلت ، ولكن الريح عصنفت بي وابعدتني عنه . . .

كان يتحدث ببطء بلهجة من فقد الامل كله ، فاثقلت على تلك الاقوال المخرقاء وذلك الكذب الذي لا فائدة ترجى منه ، ولم أستطع أن أفهم لعناده معنى أو سببا ...

نانا نصيبنا من الجلد ، ثم استأجروا لنا احد عمال المطافسىء ، وهو شيخ متقاعد ذو ساعدين ملتويتين ، ليصحبنا الى المدرسة ، كانت مهمته ان يحتاط كيلا يضل ساشا المطريق الى المدرسة او يحيد عنه . ولكن عبثا غام نكد نحاذي الخندق في اليوم النالي حتى خلع ابن خالي احد حذائيه ورمى به عن يساره ، ثم خلع الحذاء الثاني ورمى به عن يمينه ، وشرع يدب في الساحة بجوربيه . . . واسرع الشيخ يسعى وراء الحذائين وهو يزمجر . . وعندما التقطهما ، عاد بى الى الدار مرتجف الاوصال ، بادي الرعب . . .

ظلت أمي وجدتي ، طوال ذلك اليوم ، تغتشان في البلدة عسن الهارب حتى وجدتاه ، عند المساء ، في حانة شيركسوف بالقسرب من الدير يسلسي المجمهور برقصاته . . . عادتا به الى البيت ، ولكنهما لم تنزلا به عقابا لشدة الاضطراب والقلق اللذين الثارهما غيهما صمته العنيد . واستلقى بجانبي في السقفية ، يضرب الفضاء بقدمه ، ويتول بهدوء وانسجام :

- ان امرأة ابي لا تحبني ، وجدي لا يخبني ، غلم ابقى بينهم ؟ ساءرف من جدتي أبن يعيش اللصوص ، وأهرب اليهم . . . وعندئسذ ستعلمون كل شيء . . . غلنفر معا ، ما رايك ؟

كان المهرب مستحيلا بالنسبة الي ، غقد كنت اهدف ، في ذلك الحين ، المى غاية اخرى في الحياة ، وهي أن أصير ضابطا ذا لحية كبيرة شقراء ، الامر الذي يضطرني الى متابعة التحصيسل ، والمواظبسة على المدرسة . وعندما أوضحت لابن خالي مشروعي ، غرق في المتفكير برهة ، ثم أجاب وقد استصوب رأيى قائسلا :

سه هذا حسن أيضًا! معندما تصبح ضابطا اكون أنا زعيما للصوص ، فيجب عليك أذن أن تقبض علي ٠٠٠ وسيقتل أحدنا الآخر ، أو يأخذه أسيرا ، وأنا لن أقتلك مهما كلف الأمر ٠٠٠

ــ ولا أنا أيضا .

وقد تم قرارنسا على ذلك ...

دخلت جدتي ، وتربعت على الموقد ، وطنبقت تحدثنا :

--- حسنا ، أيها الغاران الصغيران! آه ، يا يتيمي المسغيرين ، يا غرخي اللطيفيين!

وراحت تكيل الانهام ، في عطفها المعبيق علينا ، لامسراة اب سائسا ، والمعمة ناديجدا السمينة ، ابنة صاحب الخان ، . وادى بها ذلك الى نضح جميع الخالات ، سائر ازواج الامهات دون تفريق ، ومن ثم روت لنا قصة المراهب الحكيم ايون الذي قاد خالته امام كرسي دينونة الله ، وهو لم يزل صبيا بعد ، قالت :

- « لقد كان ابوه صياد اسماك في البحيرة البيضاء ، ومرتما لفساد امرأته المخبيثة الشعلبة التي أغوته بشرب الخبرة حتى سكر ، وسبقته المخدر حتى استغرق في النوم ، ثم القت به وهو نائم في قارب من خشب السنديان ، قارب ضيق جدا حتى ليماثل تابوت الميت ، وبعد ذلك تناولت بيديها المجافية المصنوعة من خشب الحور ، وجنفلت به في عرض البحيرة حيث كانت الامواج تتلاحق هادئة باهتة ، تنتظر ضعل تلك المرأة الماهرة . . . وهناك مالت عن المقارب ، وهزته بعنف ، وقلبته دون من يشهد على ما تقترغه يداها ، فغرق

زوجها كالحجر عميقا في الماء ، بيئها سبحت زوجته سريعا حتى شاطسىء المفابة ، وهناك ارتبت على الارض تعول وتنوح بمرارة ، وتتظاهر بالحازن على فقدانه ، هو الذى قتلته بكل تلك الوحشية .

« وسمعها اناس ، وأشفتوا عليها ، وبكوا محنتها ونصيب الارملسة الذي حل بديارها ، وقالوا لها : « وأأسفاه ! انت صبية بعد حتى تترملي ، وشقاؤك سيكون مريرا مضنيا ، ولكن يد الله تسير حياتنسا جميعا ، وهو الذي يامر بموتنا او حياتنسا »

« كان ابن زوجها اينوشكا الشخص الوحيد السذي لم يصدق دمسوع خالته ، فراح يشتمها هامسا بموت منخفض ، وقد وضع يده على تلبها : «ايه» انت يا امرأة المخبث والمكر والدهاء ! يا طائر الليل الطافح احتيالا وخديعة ، لمست اؤمن ، أنا ،بدموعك هذه التي تسبكينها باسراف ، ظالقلسب في صدرك ينبض بفرح عظيم ، فلنتجه اذن نحو مقعد الدينونة السماوي ، نحسو الرب الله ، وقوى السمساء ، وليأخسذ احدنا سكينا معنونة يلقي بها ، بقسوة وعزم ، في اتجاه السماء ، فان كلت انا ملوما فلاذبح بها ، وان كنت انت ملومة فلتذبحي بها » .

« خلاستدارت اليه خالته ببطء ، وتفرست فيه بعينسين تلممان حقدا وكراهبة ثم هبت واقفة باعتزاز وشموخ ، وردت عليه في لهجة انتقام وتشف: « يا لك من مجنون ، قد ولدت قبل ان يحين اوانك ا انت يا من قاطك بطسن الانسانية المفترسة ، ما هذا الكلام الذي تقول : والذي يسطره عليك خيالك المريض ؟ ما هذه الاكاذيب التي يثرثر بها لسانك وينشرها ؟! » .

« وسبع الناس الذين تجمهروا هناك كل تلك الاقسوال ، وادركوا أن وراء الاكمة ما وراءها ، فراحسوا ينطلعسون في صمت ، مثقلي القلسوب ، ويأتمرون بصوت خانت حول ذلك الحسادث الغريب ، ثم تقسدم منهم صياد عجوز وانحنى الى كل الجهات احتراما للبشر اصدقائه واقربائسه ، ومن ثم تقوه بهذه الكلمات المثقلة جميعا بالتعظيم والتكبسير : « آتونسي أيها الناسر الطيبون بالشفرة الحادة . . وانظروا الي هنا ، أمسك بها بكلتا يدي ، والراسماء التذف بها ، وسوف تقتل ذلك الذي تصرف شرا ا » .

« وحملوا المسكين الى الرجل الطاعن ، فلوح بالنصل فوق رأسه المكيف

الشعر ، غاذا بها تنطلق في القبسة الزرقاء الصافيسة كالعصفور الطائسر ، وتختفي ، وانتظر القوم طويلا عودتها ، انتظروا وشخصوا الى المرتفعات البلورية ، رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وقد تزاحموا بعضهم فسوق بعض ، ووقفوا هناك في صمت وسكون . . . كذلك كان الليل ساكنا هادئا . . وما لبث احمرار الفجر المشرق ان سيطر على البحيرة ، وكذلك احمسرت الخالة وهي تمد بصرها في الفضاء ما استطاعت . . . ولكن السكين ، على حين غرة ، انزلقت من العلاء في مثل سرعة السنونو واندفعت في قلبها عميقا . . عندئذ ، سقط الناس الاتقياء على ركبهم جاثين يصلون الى الله في تواضع وانسحاق: « فليكن المرب مباركا من أجل عدالته ! » . . . ثم اقترب الصياد من أيون ، واقتاده بعيدا الى أحد الاديرة ، بعيدا جدا على ضفاف نهر يدعى كيرجنت ، قرب مدينة كيتيج العظيمة .

. . .

استيقظت في الصباح وقد امتلاً جسدي بقعًا حمراء صغيرة ... انه الجدرى !..

نقلوني الى غرفة خلفية في الطابق العلوي ، حيث بقيت زمنا طويلا مستلقيا في سرير قيدوا لي ذراعاي وساقاي بعصابات عريضة ، عاميا عن كل ما يحيط بسي ، احلاما مزعجسة ، كلاد يقضي علي في نهايسة احدها ، وكانت جدتي الشخص الوحيد الذي يزورني ، تطعمني بالملعقسة غكاني طفل صغير ، وتقص علي خرافات واساطير لا تنتهي . . . وذات مساء سبعد ان تحسنت حالي قليلا وسرت في طريق الابلال ، بحيث فكت اللفائف والرباطات عن سعاقي وذراعي ، وان ظلت اكمام سترتي مربوطة بحيث تمنعني من حك عن سعاقي وذراعي ، وان ظلت اكمام سترتي مربوطة بحيث المفائف والرباطات وجهي بأصابعي سر تأخرت جدتي عن زيارتي كما تفعل دوما ، فازعجني ذلك وانذرني بالويل والثبور . . . وعلى حين بفتة ، خيل الي انني اراها مستلقية على ارض الفرفة المفبرة ، ووجهها الى التراب ، وقد تباعد ذراعاها ، وذبح عنقها من الوريد الى الوريد مثل عنسق الخسال بيوتر تماما بينما دلفست من بين الظلال المعتمة قطة كبيرة راحت تزحسف في اتجاهها ، وعيناها من بين الظلال المعتمة قطة كبيرة راحت تزحسف في اتجاهها ، وعيناها الشرهتان الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريهما دون انقطاع .

قفزت من السرير ، وحطمت النافذة المزدوجة بقدومي وكتفي ، والمقيت بنفسي على تلة من الثلج تحت النافذة . . . كانت والدسي تستقبسل بعض

الزوار ذلك المساء ، بحيث لم يسمع اي انسان موت الزجاج وهو يتحطم . . . وبقبت هنره طويلة مضطجعا على المثلج دون ان يدري احد بي • سليم العظام وان آلمني كتفيي بشدة ، في حين جرحنى الزجاج في مواضع عددة من جسدي كما فقدت القدرة على استعمال ساقي ، وبقيت ثلاثة السهر مضطجعا في غرفتي عاجزا عن الحركة ، اصغى الى الفوضى التي شملست حياة الدار . والى صوت صفق الابواب غر المنقطع ، ومجىء الناس ورواحهم الدائمين .

كانت عواصف النلج تهب خارج المنزل عنيفة عاتية ، والريح تثور خلف باب الطابق العلوي وتسفر ، ثم تخترق المدخنة وهي تولول باكتشاب ، او تلطم مصاريع النوافذ وهي تزمجر بقسوة . كنت ارهف السمع في النهار الى نعيب الغربان ، أما في الليالي الساكنة فالى عواء الذئاب الرعب يصلنا مسن المحقول البعيدة ، ونفسي ننضج مع تلك الموسيقي المتوحشة وننمو . . . ومن ثم هل الربيع ، خجولا هادئا ، يلح بالموصول يوما بعد يسوم ، واطل مسن النافذة بعينيه المتالقتين الفرحتين ، فبدات القطط تموء على السور وتلعب ، واصوات هادئة حلوة تخترف الجدران وتبلغني : من قرقعة قطع الجليد ، وحدرجة الثلج عن الاسطحة ، الى رنين أجراس العربات التي كان طنينها بتخذ تلك الصلابة التي اعوزته في الشتاء . . .

ولم تنقطع جدتي عن زيارتي لحظة واحدة . . . أمست تشرب بكثرة في المدة الاخيرة ، تشتم من كلماتها رائحة المودكا اكثر فأكثر . لا بل شرعست تحمل معها ابريقا كبيرا من الشاي ، ابيض اللون ، تخفيه تحست سريري محسذرة اياى وهي تطرف بعينها :

- ــ اياك ان تخبر جدك العفريت بهذا ، ايها العصفور الصغير!
 - ــ لم تشربين الخمـرة ؟
 - ــ اصمت ا ستعرف ذلك عندما تكبر ٠٠٠٠

وعندها تأخذ جرعة من نم الابريق ، وتمسح فمها بكم تميصها ، تستدير نحوى وهي تبتسم بغيطسة :

- حسنا ، ايها الصبى اللطيف ، عمن كثبت أحدثك بالامس ؟
 - ــ عن والدي .
 - وأين توقفت عن الحديث أ

فأذا اخبرتها ، شرع الحديث الموزون يتدفق طوال سناعات عديدة . . . كانت هي المتي بداتني ، دون سؤال مني ، الحديث عن والدي ، ذامت يوم كانت فيه منهوكة القوى ، رزينة ، تعيسة :

لطيفا . وهو يخب وسط الحقول ، حاملا في يده عصا من سبر الجوز ، يعدو وراءه كلب منقط الجسم تدلى لسائه الاحمسر حتى بلسغ الارض . . . ، وكسيم سافاتيفيتش ما مرح يزورني كتيرا في احلامي في هذه الايام الاخيرة وانا اجهل سبب ذلك يبدو ان روحه تهيم متالمة . .

ظلت طوال أسابيع منتالية تحدثنى عن والدي فتروي لي عنسه قصص تضاهي ، في أهبيتها ، سائر قصصها الآخرى ، كان والدي أبنا لاحد الجنو الذين رتوا الى رتبة ضابط بعد خدمة طويلة ، ولكنسه نفي بعسد ذلك الم سيبريا لتعسفه في معاملة مرؤوسيه ، وهنساك ، في بعض اصقساع سيبر المجهولة ، ولد والدي ، فعاش حياة شاقة عسيرة . . . وطفق ، وهو لما يز طفلا بعد ، يدبر المحاولة تلو المحاولة كي يدشر من المنزل . . . وقد أخذ والمد ذات يوم ، كلبا من كلاب الصيد ، عدا يفتش عنه في الغابسات فكأنه أرتع بري هارب . . . وقد ضربه ، مرة أخرى ، بعد ما عثر عليه ، ضربسا مبرح حتى انقذه الجيران منه وخبأوه في دارهم . . . سألت :

_ ايضربون الصغمار دوما 1

غاجابت بهسدوء ا

_ اجل ، دوما ا

توفت والدة ابي وهو طفل صغير بعد ، ولم يكد يتجاوز التاسعة حا لحق بها ابوه ايضا ، فتبناه عرابه الذي كان نجارا ، وضهه الى معمله فسمدينة « برم » وطفق بعلمه مهنة النجاره ، ولكن والدي سرعان مسا و الادبار هاريا ، أخذ ، في أول أمره ، يتود العميان في الاسواق ، حتى قا خيرا الى نيجني نوفجورود ، عندما جاوز السادسة عشرة من العمر ، واخيرا الى نيجني نوفجورود ، عندما جاوز السادسة عشرة من العمر ، ومشمهورا في صنع المغرف المشبيسة وتنجيسد المفروشات ، ، ، وكلسان الدكي يعمل فيه يجاور منزل جدي في شارع كوفاليكا ، ، ،

ضحكت جدتى ، وقالست :

جسم نحيف ، وساقان رشيقتان . . وهكذا نقد كنا ، ناريسا وانا ، نانقط توت المليق في الحديقة . . و فهجأة تطلعت الى السور ، يا لطيف ! هذا والدك يقنر من نوقه فبكاد ان يفقدني صوابي ، وجاء يعدو في اتجاهنا بين شجر التفاح ، ماردا فتيا يرتدي قبيصا أبيض اللبون ، وسروالا مخططا ، عاري القدمين والرأس ، يحزم شعره الطويل الى الخلف بقطعة من الجلد . وماذا تظنه جاء يفعل ؟ لقد جاء يطلب يد أمك ! وكنت قد شاهدته عدة مرات من قبل يتجول تحت النائذة ، فأشرع الحكر في نفسي كل مسرة أراه فيها : « ما اروعه هذا المفتى ؟ » . وهكذا قد اتجهت الميه ، عندما أتاني ، وقلست : « لم اخطأت الصراط المستقيم ، يا قلبي ؟ » فيقول ، وقد ركع على ركبتيه : « اكولبنا ايفانوفنا ، هاانذا ، وها هي ذي روحي بكليتها ترتمي عند قدميك . وها هي ذي فاريا ، فساعدينا على الزواج ، حبا بيسوع ! » ، حقا ، ان هذا ليس بالامر البسيط ! بهت ، ولم اعد استطيع للكلام سبيلا .

« تطلعت ، مرايت أمك المخبيثة مختفهة وراء شنجــرة تفاح ، محمــرة الوجه كالتوتة ، وهي تشمير له بيديها ، وعينًاها طانحتان بالدسوع . قلت : الموجه كثمرة التوت، وهي تشير له بيديها، وما هذا الذي اخترعتماه ؟ هل معدت شبعورك ، يا غارفارا ؟ وأنت ، أنت أيها الشباب ، هسلا فكرت فيما تفعسل ؟ الماست تتطلع الى اكثر مما تستطيع ان تبلغ ؟ » . كان جدك عظيم الثراء في تلك الايام ـــ ولم يكن قد تسم شبيئًا من التركلة بين اولاده بعد ــ يملك أربيعة منازل ، وما لا يحصى من المال ، واتباعه يحترمونه كل الاحتسرام بالاضانسة الى ذلك . وقد منحوه ،منذعهد قريب ، بدلة وقبعة مزخرفتين بالقصب احتفالا بالعام التاسيع لتراسيه المعمل . ٥٦ ، ولكنسه كسان متعجرها عظيهم الكبرياء في تلك الفترة ! وهكذا ، نقد قلت ما يجب أن أقول ، وأوصالي ترتعش طوال الموقت خومًا وفرقا ، وقلبي يتمزق حسرة عليهما ، أذ كان الميأس باديا على منحياهما ، يكاد أن يقتلهما . وعندئذ نهض والدك ، وقال : « أنا أعرف من ان ماسيلي ماسيليميتش لن يعطيني ماريا بمحض ارادته، ولذلك ملا بد لي من أن أخطفها أذن ، وههنا نحن في أمس الحاجــة ألى مساعدتك » ٠٠٠ مساعدتي ، تصور ذلك ! طردته ، ورفعت يدي أهم بضربه ، ولكنه لم يتحرك قيد انهلة . قال : « تستطيعين رجمي بالحجارة اذا شئت ، ولكن يجب ان تساعديني! اني لن ارجع عن رايي! » . وهنا تقدمست غارغارا نصوه ،

وربتت بيدها على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجين منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار . . . و عندئذ تهالكات على الارض فكأنى تلقيت منهما ضربة قاضية ! آه ، يا الهي ا . . .

واهتز جسد جدتي بالضحك . . . ثم تنشقت قبصة من السعوط . مسحت الدموع من عينيها ، وتابعت وهي تتنهد :

_ ما زلمت صغيرا بعد لتدرك بين العشرة البسيطة بين رجل وامراة ، وبين المزواج . انما غاعلم نقط انه امر فظيع ان تلد الفتاة بدون زواج . بجب ان تتذكر ذلك عندما تشب فلا تلقى بالفتيات في مثل هذه المتاعب . تلك خطيئة عظيمة تسال عنها ، لانك ستجعل الفتاة تعيسة شقية ، والطفل دون اب شرعي . يجب الا تنسى ذلك ابدا ! يجب ان تشفق على تلك المراة ، وان تحبها بكل جوارح قلبك ، وليس لمجرد المتعة فقط . وهذا درس عظيم اعلمك اياه وعليك الا تنسأه .

وغرقت في التامل لحظة قبل ان تتمالك نفسها ، وتتابع قصتها من جديد:

— اذن ، ماذا عليك ان تفعل في مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسيم على واسه ، وجررت فاريا من جدائلها ، ولكن والدك قال لي عندئد شيئا على جانب عظيم من الحس السليم : « ان الضرب لا يصلح المسالة ! » . واخافت امك : « يحسن ان تجدي لنا مخرجا من هذا المأزق ، تم تضربيننا » . وهنا قلت له : « الديك شيء من المال ؟ » . فأجاب : « لدي منه القليل ، ولكني ابتعت به خاتما لفاريا » . فسالته : « أيساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فأجاب : « كلا ، بل مائة من الروبلات تقريبا » . . . وقد كانت الاشياء ، في تلك الايام رخيصة جدا ، والمال يكلف كثيرا . نظرت الى والدك ووالدتك وهما يقفان هناك المامي انهما صبيان صغيران لا اكثر ا وأحمقان ايضا ! قالست والدتك : « لقد اخفيت الخاتم تحت احد السواح الارض حتى لا يقع نظسرك عليه . نستطيع ان نبيعه » . انهما لطغلان حقا ، اليس كذلك ؟ حسنا ، لقد قلك . لكن أواه ، لكم بكيت آنذاك ، وارتعش قلبي واقشعر خونا من جدك، ذلك . لكن أواه ، لكم بكيت آنذاك ، وارتعش قلبي واقشعر خونا من جدك، ذلك كان يحب فاريا وبحنو عليها . . . حسنا ، اقد رتبنا اذن كل شيء . .

« غیر انه کان هناك عدو لابیك ـ وهـو رجل حقود شریر من رؤسماء

العمال؛ خلل مدة طويلة يراقبهما غاستطاعان يعرف عنهما كل شيء . حسنا؛ لقد البست ابنتي الوحيدة اجمل ما عندي من تياب وابهاها ، وخرجت بها مسن البوابة . . . وهناك ؛ خلف احد المنعطفات ؛ كانت ترويكا تننظر ؛ نركبتها ، وارسل مكسيم صفيرا خافيا من بين نفتيه . وها هما يعضيان . . . عدت ادراجي الى الدار ؛ ودموعي تسمح على خدي . . . واذا ذلك الوغد اللئيسم يقترب مني بمكر وخبث ؛ قائلا : « انني رجسل طيب القلب ، ولست اريد تحطيم سمعادتهما . انما سماسالك ان تعطيني خمسين روبلا فقط ، يا اكولينا ايفانوفنا ! » كنت لا املك شيئا ؛ غانا أبغض المال ولا اوفر منه شيئا قط ، ايفانوفنا ! » كنت لا املك شيئا ، غانا أبغض المال ولا اوفر منه شيئا ! » . فاجلب : « اعدك ؟ ومن أيسن فاجلب : « اعدك ؟ ومن أيسن اجيء بالمال ان وعدتك ؟ » ، فاجاب : « ايعسر عليك ان تسرقيه من زوج شري مملؤ به ؟ » ، يا لي من بلهاء ! كان على ان أجره الى نقائس طويل ؛ واحنال عليه ، واكنني بدلا من ذلك بصقت في وجهه ؛ ومضمت في سميلى ، فنبعنسي عليه ، واكنني بدلا من ذلك بصقت في وجهه ؛ ومضمت في سميلى ، فنبعنسي حتى الساحة ، ويا للفضيحة الني الأرها !

واغلقت عيناها ، بينما ارتسمت على شفتها ابتسامة جومًا ء:

انني ، حتى هذا اليوم ، ارتجف غَرَقه كلما تذكرت ما تلا ذلك من اؤم وحماقة . لقد راح جدك يزمجر مشل وحش مفترس كاسر . الله عفقة شديدة محزنة بالنسبة اليه . كان من عادته ان بشخص الى غارغارا وبتاهى بائه سيزوجها من نبيل ، من سيد عظيم ، والبك النبيل . اليك السيد الذي اختارته ! ولكن مريم العذراء تعرف اكتسر منا من هسم الاشخاص الذبسن بلائمون بعضهم بعضا . . . وراح جدك بعدو عبر الساحة وكان النسران علتهم جسده ، ينادي ياكوف ، وميخائيل ، والمسائس كليم ، ورئيس العمال صاحب الوجه الذي يعج بالنمش ، ورئيته دحل هراوة ضخمة ورباطا من الجاد ، في حين تناول ميخائيل بندةبته . . . كانت خولنا توية طويلة النفس ، اما عربتنا فكانت خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من دون ربيب ! » .

« ولكن ملاك غارغارا الحارس الهمنى في الوقست نفسه ، فتناولست سكينا وقطعت بها الحبل عند العريش ، وفي اعتقادي انه سينقطع في الطريق. وهكذا كان . . . فقد انهارت مقاومة الحبل ، وكاد يقضى على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا الى الوقوف بعض الوقت ، كي يصلصوا الحال ، حتى

771

اذا بلغوا الكنيسة اخيرا كانت غاريا ومكسيم وأقفين أمام بابها ، وقد تسم زواجهما . . . شكرا للسه ا

«حسنا ، عندئذ رمى رجالنا باننسهم على مكسيم ، ولكنه كان شجاعا متين المبنية ، وقليلون هم الذين يتمتعون بالقوة التي كان يتمتع بها مكسيم . . وهكذا نهد طوح بميخائيل والقى به أرضا مرضوض السنراع ، واتبعه بكليم سريعا ، بحيث ارتجف جدك وياكوف ورئيس العمسال ، ولسم يجسروا على الاقتراب منه . . . ولم يفقد مكسيم زمام اعصابه ، بالرغم من غضبه الشديد . وهكذا ، نقد توجه المي جدك قائلا : « ارم هذه الهراوم هناك ! نأنا فتى محب للسلام ، ومااخذته صار لمي بنعمة من الله ، وليس لاي انسلن الحق في ان يسترده مني . وهذا هو كل مالسالكم ايساه ! »

« وعاد رجالنا ادراجهم . . . جلس جدك علمى العريش، وصلح . « وداعا ، يا غارغارا ! غانت لست ابنتى بعد الان ، ولست ارغب في رؤيتك مرة اخرى ، وسواء عندي ان اراك حية او مبتة من الجوع!» ورجع الى الدار حيث انهال على سبابا وضربا ، ولكنني لذت بالصمت ولم اتفوه بكلمة البتة .

« كنت أعرف أن ذلك سيمر سريعا ، وأن ما يجب أن يكون سيكون . قال لمي : « أنظري ينا أكولينا ، أياك أن تنسى أن أبنتك قد ذهبت ألى الابد وهكذا لم يعد لك أبنة على الاطلاق ، لا هنا ولا في أي مكان أخر ، أتفهمين أ » . أما أنا فكنت أفكر في نفسي دونما أنقطاع : « أستمر في الكنب والمهراء ، أيها الاحمر أرأس ! لا بأسل عليك ! أن غضبك الان يغلي ، ولكن ذلك أن يطول . . . فالفضب كالجليد ، لا تبسمه الشمس الا ويذوب ! . . . »

كنت استمع اليها ضيق الانفاس . . كان ، في تصتها امور عديدة تدهشنى ... فقد روى لي جدي زواج اسي بصورة تختلف كل الاختلاف عن روابة جدتي له . . لقد عارض في المزواج حقا حسب ادعائه ، ولم يسمح لامي أن تدخل منزله بعد ذلك ، ولكن الزواج ... كما بقول ... لم يكنن سريا ابدا ، بل كان هو نفسه حاضرا لهيه ، وترددت في الاستفسار من جدتي عن المقيقة لانني فضلت ان استمع الى روايتها التي كانت اكثر خيالا وبهجة . . .

وراحت تتأرجح الى الامام والخلف في متعدها ، وهي تتكلم ، وتبالغ في حركانها كلما بلغت مقطعا مؤلما او مخيفا من تصنها ، وترفع احدى دراعيها

غكانها تتقي صفحة من يد خفية ، وكثيرا ما كانت تفلق عينها مغيرتجف حاجباها المغليظان ، بينما تلعب ابتسامة دافئة فوق غضون وجنتيها ، وكنت احيانا ، اتاثر من تلك الطريقة العمياء التي تسامح بها كل شيء ، ولكنني كنت اتوق، في احيان اخرى ، الى ان استمع اليها تصيح بكلمات احتجاج بذيئة قاسية .

_ حسنا ، لقد بقيت طوال اسبوعين او اكثر اجهل كل شروء عن مكان غاريا ومكسيم ، ومن ثم ارسلا المي طفسلا يخبرني عنسه ، ، ، وفسي يوم السبب التالي خرجت من الدار وكأنني في طريقي الى الكنيسة لحضور صلاةً الغروب ، ولكنني لم أمض اليها ، بل أسرعت اليهما . . . كاتا يعيشان بعيدا جدا في جناح صغير في أحد منازل ناحبة سيوتيسكلي ، وكان يعيش في باحسة الدار عدد كبير من المعمال . . . كانت الدار قذرة ، لا تنقطع الضوضاء فيها ابدا ، ولكنهما لم يأبها لذلك ، بل كانا يلعبان ويمرحان مثل قطتين سعيدتين: وقد حملت اليهما بعض الهدايا - شبئا من الشباي ، والسكسر ، والتمع ، والمربي ، والطحين ، والفواكه المجففة ، وقليلا من المال أيضا ـــ ولست أذكر مقداره ... كل ما استطعت أن اسرق من جدك ... ولا جندة في السرقة أن كانت في سبيل الغير! ولكن والدك رفض أن يأخذه ، بل قال متأثرا: « وهل نصن سُماذان ؟ » . بينما راحت ماريا تضرب على الوترة نفسها: « لماذا حملت كل هذه الاشياء ، يا أماه ؟ » . أعطبتهما كل ذلك ، وقلت موبحة حانقة : « انتي أم أرسلها الله البك) أيها الغيي ! أما أنت) أيتها المجنونة الصغيرة؛ فان المك المقبقية ، اين كلب إن الرء يستطيع أهانة أمه ؟ فاذا ما أهان أمه مرة ههنا ، على الارض ، جعل المعذراء تبكي هناك في السماء . . . » . وعندئذ حملتي مكسيم بين ذراعيه وشرع يدور بي في الغرفسة سحتي راح يقفز مي وبركض - فقد كان كالدب قوة ! وراحت فاريا تتبخت في الفرفة منتفضة كالطاووس معجبة بزوجها مزهوة بقوته . . . وطنقت تتحدث في اعتزاز عن « بيتهما » ، وكانها مرببة عجوز . لقد كدت انفجر ضحكا ! اما الفطائر التي قدمتها مع الشماي ؟ ان ذئبا يحطهم اسنانه دون أن يستطيم قضمها ٠٠٠ والجين البيتي أ انه اشبه بالحصى ٠٠٠

« وهكذا سارت الامور زمنا طويلا . . . وكنت انت على وشك ان تطل على الوجود ، ومع ذلك مجدك ما يزال بالصمحت معتصما حدالله مخلوق شرس ، ذلك المارد العجوز ! ولم انقطع عن زبارتهما ، الامر الذي لم يخف عنه ، وان كان يتظاهر بانه لم يلحظ شيئًا . . . وكان اسم مارمارا ممنوعاً في

الدار ؛ فلم يأت أحد قط على ذكرها ، حتى ولا أنا أيضا ٠٠٠ ولكنس كنعت اعرف تمامنا ان قلب الاب لن يظل قاسيا . . وسرعان ما جاء الوقع المناسعي . . . كان ذلك في أمسية عاصفة ، والريح تجلد النواهذ بوحشية وهي تعوى مثل قطيع من الذئاب ، والمدخنة تتأجج ، وجميع شياطين الجحيم قد الهلت عن من محابسها ، وقد اضطجعت وجدك جنبا الى جنب لا نستطيم الى النوم سبيلا ... نهضت ، على حين غرة ، وقلت له : « ما أتعس المقراء في مثل هذه الليالي ! لكن اولئك الذين تثقل الخطيئة وجدانهم لاكثر تعاسمة ايضا! » -فقال جدك على غير انتظار: «كيف حالهما؟» . فقلت: لا بأس بها ، ليسمت سيئة ابدا! » . فسأل: « عمن تظنني اسأل ؟ » . قلت: « عن ابنتنا فارفار ١ ٠ وصهرنا مكاسيم! » ، فاصاح: « وكيف خمنت ذلك ؟ » ، قلست: « كاف عن هذه المهزلة ، يا ابتاه ! لقد حان أن نترك هذه اللعبة ــ فهي لا تسمد أحدا !" مصعد زمرة طويلة ، وقال : « ٦٥ ، انتم ايها الشياطين ! ايتها الشياطيين الحمراء النارية! » . ثم سأل: « ومساذا عن ذلك المجنون الغشيسم؟ » ___ بعني و الدك ... « لقد اقترنت بأحمق ؛ اليس كذلك ؟ » . قلت : « احمق! أن الاحمق من ذلك الذي لا يشتغل ، بل الذي يعيش على نفقة الاخرين! هــلا المقيت نظرة على ولديك ياكوف وميخائيدل ــ لو معلت رايت انهما وحدهمـــا الاحمقان المجنونان! من ذا الذي يعمل ويكسب المال لهدده الدار؟ انست ! وهما ؛ اتظن انهما يساعدانك حقا ؟ » . وهنا شرع يكيل الشنائم لسى ، ووصنفني بالحمقاء ، والبهيمة ، والكلبة ، والشمطاء ، والمخرفة ، واللسم وحد، يدري ماذا ايضا ، ولكنني لم انبس ببنت شمنة ابدا ، حتى قال اخرا : « كيف خدعت برجل شاب لا يعرفه احد ، لا يدرى انسان من أين جاء ؟ » . ولكنني اعتصمت بالممت حتى تعب من الحديث ، وعندئذ قلت « يحسن ابن تذهب وترى بنفسك كنف يعيثمان ، مان حياتهما لطارة بديعة ! » . نبقال : « ذلك شرف لا يستحقانه ، غلياتيا هما الى هنا ! » . حسنا ، لقد رحتت ابكي فرحا عندما قال ذلك ، بينما طفق هو يحل جدائل شعري ــ وكان بحب ان يلهم به على الدوام ... وهو يتمتم: « هدسنا ، كتابك بكاء ، أيتهسا البلهاء العجوز! اتظنين انني بدون قلب ؟ » . . . كانت روحه طيبة ، جدك هذا ك قبل أن بملك علمه مشاعره الخلن بأنه أذكي من الجميع واحصف ــ لقد أصبيح منذ ذلك الحين عبيا ابله ..

« وهكذا قدما لزيارتنا ـ امك وابوك ـ في يوم الفصح ، احد التساميح

المعظيم . . كانا كبيرين جدا ، نظيفين ، جميلين ! ووقف مكسيم قباللسة جدك غلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال مكسيسم : « لا تظسن يسا غالسيلي ماسيليفيش ، اني جئت لاطالبك بالمهر ، كلا ، ابدا! بل جئت لاقدم احتراماتي الخااصة لوالمد زوجتي مقط » . مسر جدك لذلك ، وضحك ، وقسال : ٥٠ ، ايها الوغد الكبير! حسنا ، كفانا هراء! لقد حان اللوقت لتعيشا في دارنا » . نقطب مكسيم حاجبيه ، وقال : « ان ذلك يتعلق بنباريا ، وسانعل ما ترغبب هي نيه ، انه سواء عندي ». . . . وعندئذ شرعا في الجدال ثانية _ ولم تكن هناك اية توة تستطيع ان تمنعهما عن ذلك . . رحت أشير لوالدك هذا بطرف عينى ، واضرب على قدمه من تحت الطاولة ، ولكنه لم يكف عن النقاش لحظة واحدة ! كانت له عينان ساحرتان ، صافيتان ، مشعتان ، وحاجبان اسودان نوقهما . أحبانا بعقد حاجبه نوق عينيه ، فترى على وجهسه تعبيرا قاسيا ، كالصخر ، وفي مثل هذه الاحوال لم يكن يعير اذتا صاغية لاحد غيري . كانت الحبه كثيرا ، أحبه اكثر من اولادي ، وهو يعرف ذلك ، غيرد الى العاطفة نفسها . وقد اعتاد أن بحتضنني ، أو يحملني بين ذراعيه ، وبدور بي ني المغرفة قائلا : « أنت الام الوحدة الذي لي ، مثل أمنا الارض . وأنا أحبك اكثر مما أحب غاربا! » . وكانت أمك في ماضي الزمسان المغابر ، شيطانسة خبيئة ، صغبرة جميلة ، وكانت ترتمي عليه وتصبح : « كبف تتجاسر وتقول هذا ، يا . . . يا صاحب الاذنين الشبيهتين بالملقوف ؟ » . ثم نركض ثلاثتنا معضنا في اثر البعض ، في ارجاء الغرفة . . ونمضى وقتا طبه جمبلا ! . . كانت تلك أياماً مسعيدة ، يا صغرى ! وكان يرقص كما لا يستطبع انسان ان مرقص ويجيد عددا من الاغاني الحلوة التي تعلمها من العميان الذين بستعطون .

« اجل ، لقد انتقلا الى الشهة المطلة على الحديقة الكبرة ، وهناك ولدت انت ... عند الظهرة ... لقد رجع والدك ليتناول غداءه ، واذ أنت هنا في هذا المعالم ! لقد كاد يجن سمعادة وهناء ! أما والدتك ... نقد كاد ان بقتلها بمداعباته نمكان مجىء طنها الى المعالم اصعب سا في الوجرود على الاطلاق . ولقد حملني على كتفه ، ومضى بسى عدر الساحة لانبىء جدك بولادة حند آخر له . . . وقد غرق جدك في الضحك . »

« وأسغض خالك مكسم كثرا - كان لا يقرب الخمرة ابدا ، حاد اللسان ذكيا ، ماهرا في استنباط جميع انواع الحبل والالاعيب ، تلك الحبل التي كلفته غاليا فيما يعد! وذات مرة ، خلال فترة الصوم الكبر ، هبت

4 / Q A

ريح صرصر عاصفة ، وانطلق فجأة صغير رهيب ونباح شديد في المنزل ، حتى ذعر الجميع وفقدوا صوابهم . . . وأسرع جدك يعدو في الدار مهرولا يحاول اضاءة مصابيح الايقونات ، ثم جثا يصلي . . وفجأة ، سكن كل شيء ، الامر الذي كان اكثر رهبة وهولا . . . وقد خمن خالك ياكوق الحقيقة ، فقال : « هذا من صنع مكسيم ! » . وكاتست تلك الحقيقة بعينها ، فقد اخبرنسا مكسيم فيما بعد كيف صف مجموعة من زجاجات مختلفة الانسواع والاحجام على نافذة الطابق العلوي ، بحيث راحت الريح تصرصر في داخلها ، وهدده جدك قائلا : يحسن ان تأخذ حذرك ، يا مكسيم ! والا رجعت الى سيبريسا اذا لم تكف عن الاعيبك هذه . »

« وهجم علينا شتاء بارد قارس ، اتت معه الينا الذئاب من السهول المجاورة! فهذا كلب يفقد اليوم ، وهذا حصان يعدو خائفا مذعورا ، وهذا حارس ثمل في يوم ثان قد نالته الذئاب بالعض حتى اشرق على الهلاك . وكان أبوك يتناول بندتيته ، ويملاها خرطوشا ، ثم يخرج في ظلمة الليل كي يعود بذئب أو ذئبين ، فيسلخهما ، ويضع زجاجا في محاجرهما حتى ليخال الك انهما ذئبان حقيقيان . . . وفي ذات ليلة ، خرج خالك ميخائيل الى الشرفة القضاء حاجة ما ، فاذا به يعود ادراجه عدوا على حيين غفلة ، وقد جحظت عيناه ، ووقف شعر راسه ، وتدلى لمائه حتى اصبح عاجزا عن اصدار اي صوت . كان سرواله الذي فكت ازراره متدليا فوق قدميه وهو بتعثر به ويغمغم : « الذئب ، الذئب ، الذئب ! »

« وهرول كل من الحاضرين يتناول.اي نسلاح يقع تحت يده ، وخرجو ا مسرعين الى الرواق ، كان هناك ذئب يمد راسه من تحت درجات السلم . انهالوا عليه ضربا واطلقوا النار ، ولكنه ظل ثابتا في مكانه لا يتحسرك . . . وتقدموا منه كي يجدوا انه حيوان فارع بستره جلد ذئب قد صنعت اطرافه في درجات السلم ، وقد ثار جدك عندئذ ولم يعد يعى ما يتسول ، وسرعان ما طفسق ماكوف بشارك ابساك حيله ، فكسان مكسيسم يقص صسورة راسي من الورق المقوى ويرسم فيها عبنين وانفا وفما ويلصسق فهها بعض خيسوط الكتان بدلا من الشعر ، ومن ثم كان يذهب وياكوف عبر الشارع بلوح بلعبته امام نوافذ المنازل المجاورة ، وكان الجران يذعرون وتعلوا اصواتهم بالصياح والمعول . . .

« وفي احدان اخرى ، كانا يلتفنان بالشراشة البيض ويتنزهان في الساحة الكبرة .

« وفي يوم من الايام القينا الرعب في قلب الكاهسن الذي هسرول الى المحارس يطلب المنجدة منه ، غير أن الحارس ذعر بدوره ، ولم يعد يعي كيف يصفر بصفارته الضخمة طالبا النجدة . وهكذا كانا لا ينقطعان عن الاعيبهما هذه قط ، دون أن ينفع غيهما نصح ولا تأنيب ، وقد أشرت عليهما مرارا أن بكفا عن هذا السلوك ، وكذلك معلتماريا ، ولكنهما لم يعيرا أقوالنا أذنا صاغبه . . . كان مكسيم يسخر بنا ويقول : « أنه لمن المضحك جدا أن يتطلع المرء ألى الناس وقد مقدوا صوابهم وولوا الادبساء راكضسين لسبب تأهسه سخيف ! » ولم بكن هناك من سبيل الى تبديل رأيه وجعله يكف عن صيانيات كهدده . . .

« ولكن سوء سلوكه هذا كاد ان يقضى عليه . لقد كان الخال ميخائيل وضيع النفس حقيرا حقودا مثل أبيسه تماما . . . وهكسذا جعل جل عملسه الخلاس من أبيسك . .

« وفي يوم من ايام الشتاء ، في اوائله بالضبط ، بينما كانوا راحمين من بعض الزيارات _ وكانوا أربعة : مكسيم وخاليك ، والشماس الذي خسر وظيئته فيما بعد لانه ضرب سائق احدى العربات حتى الموت _ وفيما يهبطون شارع يامسكايا ، اقنعوا والدك بمرافقتهم الى بحيرة دوكوف مدعين انهم يريدون ان يتزحلقوا هناك ، ولكنهم عندما بلغوا البحرة القوا به من خلال حفرة في الجايد _ اعتقد الى قصصت عليك ذلك فيما مضى ! . . »

_ ما الذي يجعل خالي شربرين هكذا ؟

مُأجابت جدتى وهي تتناول شمة من السعوط ، وفي موتها بحة :

- انهما لبسا بشريرين ، بل هما أيلهان .. أن ميشكا خبيث ولكنه أحمق في نفس الوقت ، أما باكوف فلا بزيد عن كونه أنسانا بسيطا أبله ، بكل ما في الكلمة من معنى ... حسنا ، لقد دفعا به الى الحفرة ، ولكنه عندمساطفا على سطح الماء من جديد ، وتعلق بحافة الجلبد ، أخذا بدوسان على أصابعه بأحذيتهما ، ومن حسن الحظ أنه كان صاحبا وهما ثملان .. فدير الامر بطريقة ما ، كي يبقى في وسط الحفرة ، لا بظهر راسه الا لمتنفس ، وهما يرميانه بالجليد دون أن بصيباه ، حتى تركاه أخرا وانتعدا ، وهما سخالان أنه سيغرق من دون مساعدتهما ، ببد أنه نحح في الخروج من الماء، وركض مباشرة الى مركز الشرطة الذي يقوم في الزاوية ، كما تعلم ...

وكان رئيس الشرطة يعرفه كما يعسرف سائر افراد العائلة ، فهمأله عمسا حمل بسه . .

ورسمت جدتي اشارة الصليب على وجهها ، وهمست بامتنان وشكر :

فليهب المله السلام لروحه . . . ارح يسا رب نفس مكسيم سافاتيفيتش مع قديسيك فهو يسماهل ذلك! انه لم يخبر الشرطة بشيء ممنا حدث ، قال: « ان الذنب ذنبي ، فقد ذهبت ثهلا الى البحيرة وسقطت من خلال الحفرة » . ولكن رئيس المركز لم يصدقه لانه ، باعتقاده ، كسايعلسم ، لا يسكر أبدا . . . وفركوا جسمه بالفودكا ، في المخفر ، والبسوه ثيابا جافة ، ودثروه بمعطف من النهرو وجاؤوا به الى الدار ، رئيس المركز وشرطيان اخران ، ولم يكن من المكوف وميخائيل قد رجعا الى الدار بعد ، كانا يتنقلان من حانة الى حانسة طوال الوقت . . . ولم نتمكن ، المك وانا ، ان نعرف مكسيم الا بصعوبة . .

« كان أزرق اللون ، محطم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد ظهر على نوديه شيء يشبه المثلج وأن لم بذب فيما بعد . كان شعره قد شاب وأمسى أبيض اللون . . . وشرعت فارغارا تصيح :

« _ ما الذي معلاه بك ، يا مكسيم ؟ ...

« واخذ رئيس المركز بطرح عليه الاسئلة دون انقطاع ، ماحس في صميم قلبي ان الامور لا تسير على ما برام ، وتركت امر رئيس المخفر لفارغارا ، بينما رحت احاول ان استخلص الحقيقة من مكسيم ، الذي همس : « اذهبي وابحثي عن ميخائيل وياكوف واخبريهما ان يقولا اننا خرجنا معامن شارع بامسكايا ، فذهبا هما من طريق بوكروفكا ، بينما سلكت انا درب بريادبلني واخبريهما بحذر من ان يجعلا الامر يلتبس علبهما ، والا وقعنا في متاعب مع رجال الشرطة » .

« هذهبت الى جدك ، وجعلته يهتم برئيس المركز بينما انتظر أنا عنسد البوابة » . ورويت له الحادث كما وقع تمامسا . . . ارتدى ثياسه ، وهسو يرتجف رعنا ، ويغمغم : « كنت اعرف أن مثل هذا الامر سبحدث » . ولكنها كذبة ظاهرة ، ههو لم بكن يدري شيئا .

« أما ياكوف مكان شديد السكر ، وقد سرع يتمتم : « انسى لا أعرف شيئا . انه ميشمكا الذي يكبرني سنا ! انا لا اعرف شيئا » . واستطعنا

اخيرا ان نهدىء من نائرة رئيس المركز الذي كان رجلا شبجاعا في الحقيقة ، توجه الينا محذرا وهو يفادرنا: « احذروا جيدا ، فان حدث شيء ما فانسي اعرف على من سأضع اللوم بعد الان! »

« وعندئذ انجه جدك الى مكسيم ، وقال له : « شكرا لك ، يا بني . أي انسان اخر يتصرف بطريقة اخرى ، اني أعرف ذلك حق المعرفة ، وشكرا لك ، يا بنيتى ، لانك جئت مع هذا الرجل الى دارى ! » .

« ان جدك يستطيع عندما يشاء ان يقول اشياء حلوة كهده ـ وهو لم يعد أحمق ولم يغلق قلبه الا مؤخرا نقط . وعندما انفردنا نحن الثلاثة شرع مكسيم ينتحب ، بل بهذى نيما يبدو قائسلا :

« ــ كيف يصنعان بي مثل هذه الامور ؟ . . ماذا فعلت لهما ؟ لماذا يفعلان ذلك كيا أمام ؟

« فكأنه طفل صغير ، والحقيقة ان بعضا من ذكريانه وطفولته كان متأصلا في طبيعته . . .

« وعاد يسال : « لماذا ؟ » وكان كل ما استطعت أن المعله هوالجلوس الى حانبه والمعويل سعه . . . لقد كانا ولدى بالرغم من كل شيء ، فلا اتمكن الا أن أرثى لهما . . أما أمكفقد انتزعت كسل الازرار من تميصها وجلست هناك مشعشة الشعر ، فكأنها قد خرجت من قتال حامسي الوطيس ، تلطم خديها وراحت تصيح : « فلنذهب ، يا مكسبم ! ان أخوي عدوان لنا ، وأنا الخاف منهما ، فلمنهرب! » . ولم احتمل منها مثل هذه الاقوال . قلت : « لا ترمي زيتا على النار! ينتقي ما يملأ الدار من الدخان! » . وهنا أرسل جدك هذين المجنونين كي يطلبا الصفح والغنران ، ولكنها لطمت ميثكا على وجهه، وقالت : « اليك الغفران الذي تستحقُّمه ! » . أما أبوك غلم يغتأ يسأل : « كيف يمكن أن ترتكبا مثل هذا المعمل ؟ كان يمكن أنتقعداني عن العمل دوما! وماذا استطيع ان المعل دون اصابعي ؟ » . . . واخيرا تم الصلح بطريقة ما ، وظل ابوك بعد ذلك طوال سبعة اسابيع تقريبا مريضا ملتزما الفراش ، يردد دون انقطاع وهو قابع في فراشه : « للنذهب الى مدينية اخرى ، يا ماما ! انى اكاد ان اختنق ههنا! » . وسرعان ما ارسل بعد ذلك الى استراخان حيث طلب الى أبيك أن يبني موس النصر . وأبحر على ظهر أول مركب بخاري مر بنا مي الربيع . وكان المراق محزنا جدا بالنسبة الي ، مثل مراق الروح ،

وكذلك كان أبوك كثيبا يحاول أن بقنعني بمراغةتهما دون جدوى ... أما فارغارا فكانت سعادتها تتجاوز كل حدود وهي لا تحاول الحفاءها أبدا ... يا لها من أمراة قليلة الحياء ... وهكذا كان .. » .

وارتشفت جرعة من الفودكا انبعتها بقليل من السعوط ، ثم قالت وهي نشخص من النافذة الى الفضاء الواسع :

ــ بلى ! لم نكن ، والدك وأنا ، قريبين بالدم . . ولكن قراسة الروح كانت نجمعنا بل كانت متأصلة فينا منذ نعومة الاظفار . . .

وكان جدي يدخل الى الغرفة على غير انتظار غالب الاحبان ويفاجنها اثناء الحديث ، فلا يلبث ان يرضع وجهه ويستنشق الهواء ، ويرنو برببة الى جدتى ، ويصغى لحظة وبتمتم :

ـــ اكذبي ، اكذبي ا . . .

وكان يسألني ، أحيانا ، نجأة :

ــ لقد كانت تحتسى الخمرة هنا ، يا الكسى ؟

ــ انت تكذب! انى ارى ذلك من عينيك!

ويغادر الغرفة مشككا مرتابا ٠٠٠ فتغمر جدتي بنظسرة حادة قامتسه المبتعدة ، وتردد بهمس :

_ امض مع السلامة ، ولا تخفف!

وفي ذات بوم) انتصب في وسط الغرغة ، وقد ثبت عبنيه في الارض ، وقال بتؤدة وتردد :

ــ مامسا!...

__ سادا ؟

ــ اتعرفين كيف تسير الاسور ؟

ــ اجل أعــرف ،

حد وماذا نظنسين ؟

ــ انه المقضاء ، يا أبناه ! الا نذكر ما اعتدت ان تقول عن ذلك الانسان الكامل الرائع ؟

ــ اه . . ه . . آه !

- حسنا ، يبدو انك على حق .

_ ولكنه صعلوك .

- ذلك يمنيها وحدها .

ويخرج جدى ، نسألت وفد احسست سميية عاتية :

_ عم تتكلمان ؟

فنأففت وراحت تهز براسها ثم قالت :

۔ انك ترید ان تعرف كل شىء ، الیس كذلك ؟ فاذا احطت بكل شىء انت صغیر ، ماذا يبقى كي تعرفه عندما تكبر ؟

ضحکت . . و هزت رأسها . . .

— آه ، ايها الجد ، أيها الجد ! انها أنت ذرة من الفبار تافهة ! لا تقل شيئاما يا الكسي ! ولكن التقيقة ان جدك قد فقد كل شيء سدنى اخر فلس يملكه . لقد استدان منه أحد النبلاء مبلغا كبيرا من المال يزيد على الالاف ، ثم غدر الدهر بذلك النبيل فأفلس

وغرقت في تفكير عميق ، معتصمة بالصمت مدة طويلة ، بينها علن كآبة قاتمة الابتسامة المشرقة المرتسممة على وجهها . . . سألتها :

ــ فيم تهدسين ؟

فأجابت ، وهي تشد راحتيها :

- الفكر لهما أقص عليك . حسنا ، ما رأبك في قصة يغزتيجنيا ؟ هـاك هـي : " في ذلك الزمال كان بعبش بفرتبجنبا النمساس ، وكان يعتقد انه أكمر السعاعا من منارة البحر ، واكتر دوقد فكر حمى من الكاهن او التيصر واشد ادراكا . . واما من ناحبة التجار ـ فلانسل عن تجاوزه لهم في الذكساء وقوة الاراده . . . كان يتمخطر كالطاووس ، وعيناه جاحظتان مثل بوم عجوز . . . وكان ببعلم الجبران ، من الصباح الباكر حتى حلول الظلام . . ولا يجد شبنا في الوجود صالحا ابدا!

_ اذا تطلع الى برج ما . . . فهو كثير الانخفاض !

وادا ركب عربة . . . فهي شديدة الابطاء!

واذا أكل مفاحة . . . غنى ضجة غير لذيذة!

واذا جلدمت في انسعة الشمس . . فهي كثيرة الحرارة ! . .

واتسمت عبنا جدني في محجربهما . واننفخ خداها . فانخذ وجهها اللطيف طلعة ون الغياء مضحكة ، بينها راحت تتشيق قائلة :

ـ . . . وهو يقول دوما : « كنت استطبع ان اصنع هذا ، او اردت ، بطريقة افضل بما لا يقاس . . . ولكني ، كما تعلمون ، لا استطبع ان اضيع وقتى جدا بدون فائدة . » . .

وتوقفه لحظة عن الكلام ، ثم استطردت في صوت منخفض :

_ وذات ليلة زارته بعض الشياطين ، انقول لسه : « انت نسرى ان الاشياء هنا كلها فاسدة ! فما رايك لو اضفتنا في الجحيم _ فالنسيران هناك تحترف بلهبب غربب! » ، ولم بكد الشماس يلبس طاقيته حتى ركبه انفان من الشياطين ، ببنما أمسك به اخرون بمخالبهم ، وراحوا يقرصونه وبدغدغونه باظافرهم ، ويدفعون به في اللهب المتأجج قائلين : « حسنا ، يا يفزتيجنيا ، النت مسرور من المجىء الينا ؟ » . وشرع يدور عينيسه وهو يحتسرق أمارات الحكمة ظلت بادية على وجهه ، بينما انقلبت شفته بازدراء ، وهسويقول : « ان نيران جهنم تثير كثيرا من الدخان ! » . . .

وختمت قصتها بشمهقة طويلة ، ثم ضحكست ، واستدارت نحوي وقد تبدلت تعابير محياها:

ــ انه لم يسلم ذلك الاخرى ، فقد كانت له صفات عبر طبيعيه ، متله مثل حدك بصاما ! اجل ! . لقد حان وقت النوم الان . . .

و ما الدرا ما كانت تأني أمي لرؤيدي في الطابق المعلوي ، غادا فعل فاكلى تنفوه ببعض كلمات مضطربه متلاحفة ، م معجل بالرحيل دور ماخير . . . كانست نزداد بهاء وتزبد من عنايتها بلباسها . . . وكنست اجدها محاطسه مالمغموض مثل جدتي ماما - هذا المغموض الذي كنت احذره وانعسر به . . . ومناقص اهتمامي بالاقاصيص التي نسردها علي جدتي لل بل ان الاقاصيص عن والدي أيضا لم نسنطع ان نشبت ذلك الذعر المبهم الذي طفق ينمو كل عن والدي ويزداد شدة . سألت جدتي :

ــ ما الذي يقلق روح والدي ويزعجها ؟

فأجابت ، وقد رفعت يدها على عينيها :

كيف لى أن أعرف ؟ هذا من شأن اللسه ، وليس لنسا أن نفهمه نحسن الذين على هذه الفانية ! . .

وفي اللبالي الني كنت أحسها طويلة ، حبن اضطجع عاجزا عن الرقاد، اروح أراقب نقدم موكب النجسوم البطيء في السماء الزرقساء الخسارية الى السواد ، كنت ابتكر قصما كئية أجعل من والدي بطلا لها . . . وكان والدي فيها وحيدا على الدوام ، يحمل هراوة في يده ، بينها بتراكض في أثره كلسب صغير ذو وبر طويل مشعث .



إفتت ذات مساء بعد غفسوة قصيرة فشمسرت أن ساقسي قد أفاقت كا بدور هما ... القيت بهما عن حافة السرير ، فاذا هما تعودان ألى خدرهما وجمودهما مرة أخرى ، ولكن الثقة بأن ساقى سالتان وأننسي سأستطيسع السير عليهما من جديد ، قد ولدت في نفسي قوة غير عادية حتى لفنسي فرح شديد ودفعني إلى النداء عاليا .. .وضبعت قدمي على الارض وشددت عليهما بكل قوتى ، ولكنني تعثرت وسقطت ، فرحت أجر نفسي جرا حتى بلغت الباب ، ومن هناك هبطت السلم زحفا ، وأنا أتصور المفاجأة التي ستعرو الجميع حين يبصرون بي ...

ولست اعرفىكيف وجدتنفسي في حجر جدتى في غرفة والدفي، ولكننى كنت هناك وقد أحاط بي أناس غرباء في عدادهم امرأة مسنة ، نحيلة القوام ، مخضرة اللون . . قالت هذه المرأة بصوت مهيب ، أغسرق في لجته سائسر الاصوات الاخرى :

ــ اعطيه شيئا من مربى التوت في الشماي ، ولفيه جيدا بالاحرمة ، من راسه حتى اخمص قدميه . . .

كان كل شيء غيها أخضر اللون ــ ثوبها ، وقبعتها ، ووجهها ، وتلك الدملة النامية تحت عينها الميسرى ، لا بل أن الشعيران القليلة التي نتبت منها كانت تثمبه العشب الاخصر كل الشبه . . . أرخب شفتها السفلى ، ورفعت الشفة العليا ، وشخصت الي ولاح لي أن اسنانها خضراء أيضا ، وقد ظلّت عينيها بيد اختفت في قفاز أسود ، فهمالت متلجلجا مرتبكا :

_ من هي هذه الخضرة ؟

فأجاب جدى في صوت مقيت :

_ سوف تكون جدة اخرى لك !

صحكت أمي ؛ ودفعت يفجيني مكسيموف الى جانبي وهي نقول :

_ وهذا أب لك !

واضافت بضم كلمات سريعة غامضة ، ببنما ضيق مكسيموف عينيه ، وانحنى ليقول :

_ سأهديك شيئا من الدهان للرسم .

كان النور تويا في الغرفة ، وعلى طاولة تقوم في احدى الزوايا يننصب نسمعدان فضي تحترق فيه خمس شمعات ، استقرت بينها ايقونسة جدى المفضلة : « لا تبكي ، يا ماما ! » : وكانت اللالميء التي تزين ثوب العذراء في طياته ومضات من النار تطلقها احجار الياقوت الاحمر المصفوفة باعتناء وسط التاج الذهبى الذي يغطى رأس العذراء . وكانت وجوه مدورة تطل من خلال النواغذ السبود ، وانوق مسطحة تضغط على الزجاج بصورة غريبة ، وشرع كل ما يحيط بي يسبح ويموج ، بينها انحنت المراة الخضراء غوقي كي تجس ما وراء أذني بأصابعها الباردة ، وهي تدمدم :

ــ على اية حال ، نهو لن ٠٠٠

ومالت جدتي:

ــ لقد غفــا . . .

ومن ثم حملتني واتجهت بي الى الباب ...

و الحقيقة اني لم اغف ، بل اغمضت عيني بكل بساطة ...

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

۔ لم لم تخبرینی ؟

ــ لا تتكلم الان التسمع لا تقل شيئا .

_ خداعون جميعكم ١٠٠

عندما انسجسني في سربري ، دفنت راسها بحت الوساده ، وعرقت في بحر من الدموع ، بينما طفق جسدها يرتجف ويتارجح بفعل نشيجها ، وهي لا تفتا بقول لسى :

ــ لمادا لا تبكى ﴿ ابك عليلا !

ولكن لم تكن بي رعبة في البكاء . . كان الطابق العلوي باردا مظلما . والفرات يهنز ويضطرب لتسدة ارسعاش ، وبلك المراة المضراء تابى ان نختفي من المام ناظري . وبطاهرت بالنوم ، فبركنني جدتي وحيدا . .

مرت الايام القليلة المثالية على ممط واحد ، رتيبة مضجرة ، . أمسا والدني فقد رحلت عنا بعد ان اعلنت خطبتها ، فطوق المنزل جو من المسكون المرهق الثقيل الوطساة ،

وفي صباح يوم من الايام ، جاء جدي حاملا ازميلا في يده ، وراح يقتلع ، المغجون من حول النافذة ، ومن ثم تبعته جدتي وهي تحمل حوضا من الماء ، وبعض الاسمال البالية ... سأل في صوت خفيض :

ـ اجل ، ايه ، ايتها المجوز !

الله الله

ـــ أأنت مسرورة ؟

مُاحِابِته مثلما اجابِتني على السلم:

_ لا تتكلم الان ، اتسمع ؟ لا تقل شيئا .

كان لهذه الكلمات مغزى خاص ـ انها تخفي شيئا غريبا بغيضا يعرفه الجميع ، ولكنهم يرفضون البوح به . . ورفع جدي ، بعناية غائقة ، النافذة الداخلية وذهب بها أما جدتي ففتحـت النافذة الاخمـرى على مصراعيها . امتلأت الفرفة برائحة مسكرة تتصاعد من التربـة التي ذاب الجليد عنها حديثا ، وشحب لون قرميد الموقد الازرق ارتعشت اوصالـي عندما تطلعت

الى هذا القرميد ، مانزلقت مسن فراشي حتى الارض ، لكن جدنسي حذرتني بتولسا:

- اياك والسبر حافى القدمسين!
 - ــ ساذهب الى الحديقة ،
 - ـ انتظر حتى نزول الرطوبـة .

لم أرغب في اطاعنها ١٠٠ أن رؤية الكبار قد غدت نكدرني الان ...

كانت خصيلات شاحبة من العشب تنهو تشق طريقها من باطن التربة، وبراعم الزهر تزهر في اغصان الاشبجار ، والعشب الاخضر الجميل بفرش سطح منزل بتروفنا ، والعصاغير تملأ كل فسحة ، والرائحة الذكية المنطلقة في جو تملؤه اصداء خافتة عذبة تسكرني وتبعث في اوصالى نشوة لذيذة وكان حشيش بني اللون ، يحيطه المنلح من كل جانب ، يزركش ارض الحغرة التي ذبح العم بيوتر نفسه فيها ، ان النظر الى تلك الحشائش مزعح مؤلم سيوتر نفسه فيها ، ان النظر الى تلك الحشائش مزعح مؤلم لتنسجم مع الربع الوليد المذهر . . . لا بل ان الحفرة بأسرها "كانت زائدة في ذلك المكان ، عديمة النفع ، مزعجة نرهق الاعصاب . . واخذتنى ، على حين غرة ، رغبة هائجة في ان اقتلع نلك الحشائش ، والتي بها بعيدا وانظف تلك البقعة من الحديقة من كل ما يدنسها ، ثم ابني لنفسى هناك زاوبة هادئة نظيفة استطيع ان اقضى فيها فصل الصيف وحيدا ، بعبدا عن سائر من بدعون انهم كبار . . . وسرعان ما شرعت في تحقيق هذه الرغبة ، الامر من بدعون انهم كبار . . . وسرعان ما شرعت في تحقيق هذه الرغبة ، الامر من بدعون انهم كبار . . . وسرعان ما شرعت في تحقيق هذه الرغبة ، الامر الذي ساعدني على نسيان تلك الحوادث التي جرت في دارنا ، . وطبيعي ان الذي ساعدني لم بباردني بعد ، لكن حدته كانت تخف يوما بعد يوم .

كانت جدتى وأمى تسالانني باستمرار

ب ما بالك تبدو عابسا على غير عادتك ؟

هذا السؤال بزعجني ويضابقنى ــ غانا لست ناقها مد كل ما في الامر ان كل ما يتعلق بالببت قد أصبح غرببا على ، وكثــرا ما كانــت تلك المرأة الخضــراء تنضم الننا على الغــداء ، أو الشاي ، أو العشاء ، نتجلس هناك الشبه ببقعة عفنة من سور عتبق ، وقد الصقت عيناها الى

وجهها بخيوط غير منظورة ، فهما تتدحرجان بسهولة في محجريهما العظيمين العمبتين تتطلعان الى كل شيء ، وتتفحصان كل شيء ، ترتفعان الى السقف عندما تتحدث عن الله ، وتهبطان الى جوف الارض عندما تتحدث عن الله و والله ، وتهبطان الى جوف الارض عندما تتحدث عن الامور الارضية . وكان يبدو ان حاجبيها مصنوعان من خيوط دقيقة خيطت هناك ، فوق عينيها بطربقة عجيبة ، واسنانها العارية العريضة تلتهم كل شيء بدخل الى فمها دون ادنى صوت على الاطلاق . كانت تمسك بشوكة الطعام بطريقة مضحكة ، وقد برز اصبعها الصغير جانبا بصورة تبعث على السخرية ، غاذا اكلت تحركت أذناها بدورهما عندئذ ، بينما شعرات دملتها المضرة تهتز وتتأرجح أيضا وهي تزحف كالديدان على جلدها الذي تبعث المضائة على النفور والاشمئزاز . . . كانت ، هي وابنها ، نظيفين للغاية حتى نظافته على النفور والاشمئزاز . . . كانت ، هي وابنها ، نظيفين للغاية حتى الايام الاولى من تعارفنا ، ان تحملني على تقبيل يدها الميتة ، التي تفوح منها رائحة الصابون والبخور ، لكني كنت اولي الادبار . . كانت لا تفتا نقول لانها :

ــ ان هذا الصبى يحتاج ، بكل ناكند ، الى تربية حقيقية لمدة طوملة . . . اتفهم با يفجينـــى ؟

فلا نفعل ينهجيني الا الاطراق براسه خضوعا ، وقد قطب وجهه ، دون ان بقول شيئا . . . وفي الحقيقة ، كان الجميع يقطبون وجوههم في حضور تلك المراة الخضراء . . ابغضت تلك المعجوز وكذلك ولدها سبغضا شديدا مركزا كلفني كثيرا من الجلد . . . وفي ظهر احد الايام ، بينها نحن نتناول طعام الغداء ، راحت تحملق بعينيها نمى وهى تقول :

-با عزيزي الكسى ، لماذا تأكل بمثل هذه السرعة ؟ ولماذا تبالغ في تكبر حجم اللقمة هكذا ؟ لسوف تختنق ، ما حبيس !

فأخرجت اللقمة من نمى ، وغرزتشوكتي نيها ، ومددت يدي بها اليها اللها :

- هاكها ، حُذبها اذا كنت متأسفة عليها :

مانتزعتنى أمي عن الطاولة انتزاعا ، ونفتني الى الطابق العلوى . ولحتت بي جدتى بعد ذلك ، وانفجرت ضاحكة وهي تشد على نمها باحدى

يدمها وتمد الثانية مؤنبة:

ــ يا الهي ، يا الهي ! يا لك من شيطان صغير !

لم ترق لي طريقتها فيوضع يدها على للهها ، لمألست منها ، وتسلقت سطح المنزل ، وجلست هناك خلف المدخنة ... بلى ، ان بي رغبة لا تقاوم في اهانتهم جميعا ، بصعب على جدا ان اقاومها . ولكنني كنت مكرها على ذلك .. ففى ذات بوم ، طلبت مقعدي زوج امى وجدتى الجديدة بالغراء القاسي ، فالتصق كل منهما بمقعده بطريقة تبعث على الضحك ، ولكن أمي لمحتت بى الى الطابق العلوي ، بعدما جلدني جدى ، وجرتني اليها ، وامسكت بي بقوة بين ركبتيها ، وقالست :

_ لو كنت تعرف كم تحز شيطنتك في نفسى!

و فاضت عبناها بدموع ملتهعة ، وقد ضمت رأسي الى خدها الناعم.. لو انها جلدتنى ، لكان ذلك اخف وطأة على ! اقسمت الا اضايق آل مكسيموت ابدا بعدئذ ، بشرط ان تكف عن البكاء فقط . كنت اكر، امى باكية . قالت باطسف :

— حسنا ، بجب الا تكون خبيثا ! سوف نتزوج عن قريب ، ثم نذهب في رحلة قصيرة الى موسكو ، وعندما نعود ستعيش معمى . . . ان يفجينى رجل حنون لطيف ، وانا أعرف انك ستسر بصحبته . . . سيرسلسك الى المدرسة ، وعندها تصبح طالبا مثله الان ، وبعد ذلك ستمسى طببا او اي شيء اخر تحب . . . ان الرجل المثقف يستطبع ان يفعل ما يريد . . حسنا ، اخسرج الان . . .

وكان بعدو لى أن عباراتها التى تكررها دون انقطاع ، هى سلم منحدر يقودى بعبدا عنها الى الاسفل ، الى الظلمة والوحدة والانعزال وهذا السلم لم بكن ليبعث المغبطة في نفسى طبعا ، فأتمنى أن أقول لأمى :

ــ لا تتزوجي . . ساحعلك تعيشبن سراك ، أنا وحدى . . .

ولكتنى لم اقل ذلك . . كانت امى تشعرنى ، على الدوام ، بعواطف رقيقة ، ولكنى لم أجد قط الشجاعة الكانية للتعبير عنها . . .

كان عملى في الحديقة يتطور من نجاح الى اخر . . فقد نبشت الحشيش واقتلعته ، ومهدت الاطراف المنحرفة للحفر بقطع من القرميد وصنعت فسي مكان اخر مقعدا مريحا عريضا استطيسع ان اضطجع فيه على هسواي ، وجمعت قطعا من الزجاج الملون والصحون المكسورة وصففتها في الطين بين القرميد ، فكانت تبرق مثل الايقونات في الكنيسة كلما اشرقت الشمس عليها .

قال جدي ذات يوم ، وهو يتفحص عملي:

_ رائع منك ان تفعل ذلك ! لكن المشيش سينمو ثانية ويجتاح كل شيء _ فقد ابعيت جذوره في جوف الارض . هيا ، آتنى بالمعول وساببد لك هذا العشب اللعسين .

وعندما جئته بالمعول بصق في يديه ثم ضرب المعول بعمــق في الارض قائـــلا:

سه ارم الجذور بعيدا ، وسأوزع لك الزهسور بمعرفتي وسيكون ذلك رائعا حقا ، رائعا جسدا ٠٠٠

و فجأة أنحنى على المعول دون حراك ، وظل فترة دون أن بنبس بحرف واحد ... اقتربت منه ، فرأبت بعض الدموع تنهمر مسن عينيه الصغيرتين كعينى كلب صغير .. سالته :

برما بالسك ؟

فارتجف ، ومسح وجهه بيده ، وقال :

ـ ان المعرق يبللني . . انظر فقط الى هذا الدود ما الكثره! وشرع ، مرة ثانبة ، بنبش الارض ، ثم قال فجاة :

_ كل هذا العمل عبث ! غانا سأبيع البيت لاول مشتري ، في الخريف على الارجع . . . اني في حاجة الى المال مهرا لامك كى تعيش ، على الاتل ، بصورة لائتــة . .

ورمى بالمعول ثم مضى الى زاوية من الحديقة خلف الحمام حبث كان بحتفظ ببعض ادواته . . . فرحت أنبش الارض ، وما أسرع ما قطعت أصبعا من أصابعى بحد المعول . . ومنعتنى هذه الاصابة عن حضور عرس أمى ، فلم أستطع أكثر من مرافقتها حتى البوابة ، ومن هناك رحت أراقبها وهسى

تعبر الشمارع مع مكسيموف الذي تشبث بذراعها . كمان رأسها مطرقا ، وقدمها تتحسس طريقها بعناية بسين العشب الطري وكانهما تسير علمي مسامير مدببة

المعرس كان هادئا . . تناولنا الشماي بعد الاحتفال بصمت ، دون أية بهجة او أقل سرور . . . ومن ثم أسرعت أمي الى غرفة نومها ، وشرعت في حزم متاعها ، بينما جلس زوجها الى جانبي وقال :

ــ لقد وعدت ان أهديك شيئا من الدهان ، ولكن الانــواع التي توجد منه هنا رديئة ، وأنا لا أقدر أن أمنحك دهاناتي الشخصية ، مو ف أرسل لك هديتي من موسكو ٠٠٠

_ وماذا أفعل بها ؟

_ الا تحب الرسم ؟

__ أنا لا أعرف كيف أرسم!

_ اذن سأرسل لك شيئا اخر .

ودخلت امي ... لتتول:

ــ سنعود سريعا ٠٠٠ بعد انتهاء والدك من امتحانه ودراساته سنكر راجعين ٠٠٠

كان يطربني ان يتحدثا الى وكانني واحد من الكبار ، ولكنى استغربت ان يكون رجل ملتح في طور الدراسة بعد . سألت :

__ ماذا تتعلم ؟

_ تخطيط الاراضى .

لم أسأل معنى ذلك مع انني لم أكن أدري مسادًا بعنى . . كان ألبيت محاطا بسكون خانق ، فكنت أتله لجيء الليل . . ووقف جدي مستندا بظهره الى الموقد ، ينظر من النافذة بعينين نصف مغلقتين ، والمرأة الخضراء تساعد أمي في حزم المتاع ، وهي تتنهد وتدمدم طوال الوقت ، أما جدتي ،

«١٦» Y٤١

التي كانت ثملة منذ الظهيرة ، نقد أقفل عليها في الطابق العلوي كيلا تشين المعائلة بما لا طائل تحته . . .

تركتنا أمي بالكرا ، عانقتني مودعة ، وقد رفعتني بسهولة عن الارض وحدقت في عيني بنظرة لم أر لها عندها شبها من قبل ٠٠

قالت ، وهي تقبلنسي :

- الوداع ا الموداع!

فقال جدى باكتئاب ، وهو ينظر نحو السماء:

_ اطلبي اليه ان يسمع ما اقوله له .

- متوجهت امى ، وهى ترسم اشارة الصليب على رأسى :

ـ بجب ان تطيع جدك ،

كنت انتظر ان تقول شيئا اخر ، نفقمت على جسدي لمقاطعته اياهسا ومنعها عن الاستمرار في حديثها . . . صعدت ومكسيموف المي العربة ، لكن ثوبها علق بشيء ما ، نظلت مدة طويلة تعمل منزعجة على تحريره . .

قال جــدي :

ـ ساعدها ، أما رأيت ما حصل .

ولكنني كنت غارقا في الياس لااستطيع ان انعمل شيئا ... وسح مكسيموق ، بعناية فائقة ، ساقيه الطويلتين بسرواله الازرق ، بينما ناولت جدتي بعض الرزم التي كدسها على ركبتيه ، ثم رفع حالجبه الشاحب اللور باضطراب ، وقسال :

_ كفـــى !

وركبت المراة الخضراء وابنها البكر الذي كان ضابطا عربة أخرى . . جلست منتصبة القامة كعمود ، في حين حك ولدها لحيته بقبضة سيفه وها يتثاعب بين الفينة والاخرى ساله جدى :

_ هل انت ذاهب الى الحرب ؟

ــ بدون شك .

_ هذا رائع ! ملا بد من تهر هؤلاء الاتراك .

ومضت العربتان ٠٠٠ استدارت امي عدة مرات تلوح بمنديلها ، بينها راحت جدتي تبكي بالقرب من الحائط وهي تلوح بمنديلها ايضا ، اما جدي فقد ترقرقت الدموع في مآتيه ، وهو يغمغم بصوت متتطع كلمات غير منهومه ابسدا .

جلست على مقعد صغير لا مسئد له اراتسب العربتين تقنزان نسوق الخاديد الشمارع سوما عتمتا أن انعطفا في احدى الزوايا ، فهخيل المي أن هناك شيئا في صدري قد ارتعش ، وأن الدموع ستنهمر من عينى .

كان الوقت باكرا ، والشوارع غارغة بعد ، ومصاريع النواغذ ما برحت مغلقة ، لم أر من تبل مذل هذا الفراغ المطبق ... ومن بعيد ، مسن بعض الاماكن النائية ، تلاحقت انغام احد الرعبان يرسلها مسن مزماره ... تال جدى ، وقد أمسكنى من كتفسى :

ــ تعال تناول مطورك ، يبدو ان من المقدر لــك ان تعيش معي الى الابد مثل عود الثقاب يحك بمشعله . . .

كنا ، جدي واتا ، نعمل في الحديقة منذ الصباح الباكلسر صامتين حتى حلول الظلام ، وهو بحفر التربة ، ويقتلع الاشواك عسن أشجار التفاح ، ويسحق الدود الذي يعثر عليه هنا وهناك ، وأنا أرتب زاويتي دون انقطاع . . . بتر جدي اطراف الكتل الخشبية المحترقة ، وغرز عصا جديدة في الارض علقت بها أقفاص طيوري ، وفرشت مظلات مسن الحشيش الجاف لاحمى مأواى من الشمس والندى ، وهكذا اضحت تلك الزاوية نظيفة معدة للسكن . . . قال جسدى :

_ حلو منك ان تتعلم كيف تنظم امور حياتك من تلقاء نفسك .

كنت أقدر كثيرا ملاحظاته القيمة عن الحياة . . كسان يرقد أحيانا على المقعد الذي عطيته بالعشب ، يحدثني على مهل ، نبخال لي أنه يخرج كل كلمة من نبه بصعوبة غائة ... :

ــ انك الان مصلت عن المك ! ولسوف تلد والدتك اولادا الحرين يكونون

الترب الى قلبها منك ، اما جدتك مقد اخذت ، كما تعلم ، تدمن شرب الخمرة !

ثم يغرق في صمت طويل ، فكأنه يرهف السمع الى شيء ما ، كي يعود فبتابع المديث وهو يدحرج كلماته الثقيلة ، وبرنو الى البعيد كأنه يستجمع المكاره او كأنه يستلهم شيئا غير منظور :

سهذه هي المرة الثانية التي تعاقر الخمرة فيها سكانت المسرة الاولى عندما دعي ميخاتيل الى الجندية ، لقد اقتعتني يومذاك كي افتديه ، يا لهسا من مجنونة العله كان يكون شبيئا اخر لو خسدم في الجيش ، ، ، امسا انا الملسوف أموت سريعا ، وهذا يعني انك سمتبقى وحيدا ، تظل وحيسدا تدبر أمور نفسك بنفسك ، واياك ان تنحني للفير ، عش مسالما ، ولكن كن عنيدا ، وامض في طريقك الخاصة دون خوف او هلم . . . واستشر ، ولكن المعل ما تعتقد انت انه الافضل . . .

مضيت في الحديقة الصيف كله ، عدا ايامه الماطرة طبعا . وكذلك كنت أمضي فيه الليالي الدافئة ــ فقد اعطتني جدتي قطعة من اللباد جعلت منها سريرا لمي ، وكانت هي أيضا تقضي العديد من الليالي تروي لــي الحكايات التي كنت اقاطعها بهتافات تأييد تارة ودهشة طورا ، فتصيح مثلا :

سانظر! نجم يسقط! هذه روح اشتاقيت الى امها الارض ، ان انسانا صالحا قد ولد في مكان ما من هذه الارض . . .

او كانت تقاطع نفسها بنفسها فتقول:

-- ها هي دي نجمة جديدة بعثت ... انظر ! كلها عيون ! السماء ، انها ثوب الله المزركش بالدرر الملامعة .

فيتأفف جدي ، ويقول:

--التقطا انفاسكما ، ايها الابلهان ! سوف تصيبكما بلية ، او ينقض عليكما بعض اللصوص . . .

وتنحدر الشمس ، تغمر السماء بلون احمر كانه من النيران ثم تمسى رمادا ذهبيا محمرا فوق رداء الحدائق الخضر . وعندئذ يظلم الكون تدريجيا، وهو يتسع ، بمقدار ما يبتلع الغسق ، ويفنى ، وتذبسل الاوراق المسبعسة بحرارة الشمس على اغصانها ، ويطاطىء العشب رؤوسه العديدة ناحية

الارض ، ويمسي كل نسيء اكنر طراوه ونعومه ، يبعث اريجا لطيفا كالموسيمى البي تطوف ساعيه من الحقول البعيده توقعها مخيمات الجيس ، ويحمل الليل معه احساسا قويا منعتا مل حب الام الرؤوم لاولادها ، ومثل مداعبات الام يكون المسكون ايضا ، يمسح القلب باطراف مخمليه ، يكنس بعيدا كل ما يجب ان يضيع في عالم النسيان لل كل دلك الفبار الدقيق المحرق الذي نراكم حلال النهاز ، خان من الروعه بمكان عظيم ان يضطجع المرويريو المي المسماء طويلا ، يراقب مولد الشجوم ، وكل واحدة منها تغتج ابعادا جديده في المسماوات ، ان هذه الابعاد المقهقرة تبدو وكانها ترفعك بخفة عن الارض ، غلا تعود تعرف ان كانت الرض قد تقلصت واضحت بقدر حجمه ، ام انه هو الدي تهدد بشكل عجيب حتى اصبح واحدا مع كل ما يحيط به . ويزداد المسكون وتتكاثف الظلمة .

أنفام اكورديون بعيد ، وضحك امراة عابتة ، وضربات المهاميز على الرصبة ، وعويل كلب ما هي سوى الاوراق الاخيرة التي تتساقط من النهار الذي يموت ويذوب!

وفي بعض الاحايين ، ترتفع أصوات سكرى تتشاجر في الشوارع او ني بعض السناحات هنا وهناك ، ثم تتردد ضربات خطوات تعدو سريعة متلاحقة ان مثل هـذه الاصوات المالوغة تجددا ، لا تسترعي ادنى انتبساه على الاطلاق ، بيد انني كنت اسمعها لاننسي لم اكسن اعرف بماذا الهسو سوى بالانصات الحاد الى كل ما يطرا من اصوات غريبة .

وتستلقي جدتي مستيقظة لساعات لا نهاية لها ، وقد أراحت رأسها على ذراعها ، وانطلقت تروي شيئا باندفاع لذيذ ، لا مبالية فيما يبدو ان كنت أصغي لها أم لا . . . وكانت تعرف دومًا كيف تختار أسطورة تضيف على الليل سحرا وتزيده جمالا وروعة

كنت اغرق في النوم وانا اسمع الى كلامها الموزون ، شم استيقظ وقد غمرت الشمس وجهي ، وملأت أذني أغاني العصافير وتغاريدها ١٠٠٠ أن نسيم الصباح يتحرك بلطف تغمره حرارة الشمس بدفئها ، والسجار التفاح تنفض الندى عنها ، والمعسب يسترد بهاء الونه الاخضر ، وسائسر أصوات الوليد الجديد والوانه تتدفق في روحي كتدفق قطرات الندى ، تحيطني بسعادة هادئة وتغمرني رغبة في النهوض والسير ، والميش بانسجام مسع المخلوتات جبيعا ...

كانت تلك اكبر مراحل حيايي سكبنه وبأملا ، معسى ذلك الصيف نمعندي شمعور النقة بفواي الخاصه ، وبدأت انحاشي الناس ، فلا محدون عند الرغبة ، حين اسمع صراخ أولاد شارع أوفزبابيكوم وهتاقهم ، في الانتسال اليهم ، وبدلا من أن ابنهج عندما يأتون الى زياري ، اصبحت اخام من أن يعيثوا فدسادا في حديقني في منزلي ، في ماواي ، وهسو اول ما صنعه يداكي في حياتي كلهسا ، ، . .

لم نعد احادبث جدي سير بي ادنى اهنهام ، خصوصا وقد اضحت اكتر تطويلا وجفافا وسكوى . . . ونضاعفت مشاجراته مع جدتي ، وحار يطردهمن البيت ، فتهذي حينند الى دار الخال باكوف او الخال ميخائيل ، وفي بمعضر الاحيان ، كانت تغبب عن الدار الما عديده ، فيضطر جدي الى اعداد الحلماء لنا بنفسه ، وهو يلعن ويسب ، وبحرف احسابعه ، ويكسر الصحون ، ويزداد شراسة يوما بعد يسوم ،

كان يتخذ مجلسا مريحا في بقعة معشوشبة هناك، عندما كان يأتي لزيارتع في زاويتي الخاصة في المديقة ويروح يراقبني طويلا دون ان ينبس بكلمودة واحدة . . . ويسأل مُجاة :

_ لماذا لا تقول شبئا ؟

ــ لست أدري ،

غيبدا هو الحدبث عندئذ ، وكأنه الاستاذ الذي يلقي درسا :

ــ نحن لسنا نبلاء كما تعهد . . . ما كان هناك مــن علمنا شيئا علو الاطلاق ، فيجــب اذن أن نتعلم لوحدنا . أن الكتب قد وجدت لغيرنا والمدارس قد بنيت لسوانا ــ . . . فواجبنا أن نحصل كـل شيء من تلقال

نم يستفرق في تاملاته ــ صامتا دون حراك ــ حتى ليبعث الرعشــة في تلب من ينظر اليــه ...

باع جدي الدار في ذلك الخريف . .

وقال ، ونحن جلوس الى مائدة الافطار ذات صباح قبل الربيع ، قبر صوت كليب، :

_ حسنا ، يا ماما ! لقد اطعمتك مده طويلة نيما مضى : اما الان نقد انتهى كل شيىء _ يحلو لي ان تكسبي خبزك بنفسك من الان نصاعدا .

أعارته جدتي أذنيها بهدوء تام ، وكأنها تنوقع منه متل هذا الحديث . . ونناولت علبة سعوطها ، ودفعت قبضة منها في انفها ، وأجابت :

_ حسنا ، غليكن كما تريد ، غلا بد أن نتدبر أمرنا على خير وجه .

واستاجر جدي غرفنين مظلمتين صغيرتسين في قبو منزل عتيق يقع في درب جد ضيقة . . . وبينما نحن ننقل أمتعتنا ، تناولت جدتي حذاء عتيقا ذا أشرطة طويلة وألقت به نحت الموقد ، ومن ثم جلست المقرفعاء وراحت تغمغم قائلسة :

- نعال آيها العفريت ، تعال أيها العغريت ! أركب في هذا الحذاء وسر معنا الى الدار الجديدة حاملا لنا حظا سعيدا . . .

وأطل جدي ، وكان في الساحة الخارجية ، من خلال النانذه وزعق :

__ انك تأخذينه معك ، اليس كذلك ؟ ناسوف ادق عنقك ، ايتها الكانره ا كيف تجعلين مني مدعاة للسخرية في اعين الناس ؟

محذرته بقولها:

ــ ایه ، یا ابتاه ! انتبه ، ذلك یعنی حظا سیئا لنا ٠٠

ولكن غضب جدي كان يفوق حدود التصور ، ممنعها من اصطحاب المفريت الى الدار الجديدة ٠٠٠

وظل ، طوال أيام ثلاثة ، يبيع الاثاث لبعض التجار ، وهو يساوم زاعقا صارخا ويكيل الشتائم دون حساب ... وكانت جدتي تراقبهم من النافذة ، تتأثر تارة ، وتضحك تارة اخرى ، وهي تنادي في صوت منخفض :

- هيا خذوا كل شيء ، حطبوا كل شيء ، لا تبقوا على شيء ٠٠٠ وكتت بدوري أغص بالعبرات ، كلما نكرت في زاويتي في الحديقة ٠٠ لقد عشمت ، يرانقني الاحساس بأن شميتًا يحاول انتزاعي والقذف بي

بعيدا طوال السنتين التالينين ـ حسى وفاة أمي . . وسرعان ما جاءت هذه لزيارتنا بعد انتقالنا الى القبو . كانت شماحبة اللون ، ضامره القسوام كوعيناها الكبيرتان نحترقان ببريق من الدهشه . . . كانست تتفحص كل شمي عبانتباه مركز ، وكأنها ترى أباها وأمها وترانسي المره الاولى في حياتها . . . راحت ننطر الينا صامتة ، بينما ظل زوجها يسير في الغرغة جيئة وذهابا ، وهو يصفر ، وقد شبك أصابعه وراء ظهره .

مالت والدني ، وقد اخذت وجهي في راحتيها الدافنتين :

... يا للسماوات ، لكم نضجت !

وكانت ترتدي ثوبا عريضا ، بني اللون ، بدا لي بشمعا وهو ينفتح موف

_ مرحبا! كيف حالك ؟

ونفخ بمنخريه ، وغمهم :

_ ان الرطوبة شديدة ههنا!

كانا يبدوان متعبين ، وسخين ، فكأنهما يركضان منذ فترة طويلة ، وكل امنيتهما ان يستلقيا ويستريحا . . وتناولنا الشماي في وجوم ، وجدي يراقعب المطرطوال الوقت وهو ينهمر ويدلق الى الداخل من خلال شعقوق المصاريع ، ثم سال أخسيرا:

_ وهكذا ، فقد خسرتما كل شيء بسبب النار ؟

فلمجاب زوج امي بلهجة من يروي مغامرة حدثت له على حين بغتة :

_ كل شبىء ! وما انقذنا انفسنا الا بصعوبة ماسية .

... ان النار لا تمزح في المقيقة .

واقتربت أمي من جدتي وهمست شبئا في اذنها ، ضيقت له هذه متحدث عينيها وكان نورا براقا قد انصب عليهما بغتة وازداد وجومهما ٠٠٠

قال جدى نجأة بصوت هادىء مرتفع :

ـــ لقد سمعت ، يا يفهجيني فاسيليفيتش ، بعض الاشاعات التي تقول انه لم يكن هناك نار على الاطلاق ، بل انك خسرت كل شيء في القيار .

غران صممت قائل ، لا يعكره سوى قطرات المطر تقرع المنافذة ...

قالت المسي :

_ ابى ٠٠٠ لاذا ١٠٠٠

فزهجر جدي:

- أبتاه ! ماذا أيضا ؟ الم اخبرك ان من الجنون ان يتزوج الجيل الثالث من الجيل الثاني ؟ حسنا ، اليك ما انتهيت اليه - انه نموذج رائع ، اليس كذلك ؟ ولقد جعل منك نبيلة ، اليس كذلك ؟ حسنا ، كيف تجدين ذلك الان ؟

اندفع الجميع الى الكلام ، وكسان صوت زوج امي يرتفع فوق جميع الاصوات ، خرجت الى المشمى ، وجلست على كومة من الحطب مصعوما . . هذه الافعى لا يمكن ان تكون امي سانها تختلف عنها الاختلاف كله . . ادركت ذلك عندما كنت في الغرفة ، اما الان وقسد جلست في الظلمة ههنا ، اماني استطيع ان اتذكر بوضوح كيف كانت من قبل . . . وانسي لاجدني بعد هذا سدون ان أذكر كيف تم ذلك ، في سورموفو ، في بيت جديد ، وكانت الشقوق بين قطع الاختساب محشوة بنبات اخضر يسكنها عددا لا يستهان به من الصراصير ، وكانت امي وزوجها يعيشان في غرفتين تواجهان الشارع ، بينما اعيش وجدتي في المطبخ الذي تطل نافذته الوحيدة على السطح ، وفيما وراء هذا السطح ، كانت المداخن السوداء تنتصب بشموخ نحو الساء ، وناه هذا السطح ، كانت المداخن السوداء تنتصب بشموخ نحو الساء ، غير المدفأة تعج ابدا برائحة ذلك الدخان بينما صفارة الممسل تعوي في كل صباح مثل ذئب مفترس .

كنت استطيع ، اذا ما وقفت على دكة صغيرة وتطلعت من خلال زجاج النافذة الملوي ، ان المح بوابات المعمل المضاءة وقد فتحست على مصاريعها لتلتهم الممال التهاما . وعند الظهيرة ، كان صوت الصفارة يعلو مرة اخرى، فتفتح البوابات السود على مصاريعها ، تكثمف عن ثغرة عميقة يلفظ الممل

منها نفس أولئك الناس الصغار ، هيتدفقون في جسداول سود على طسول الشوارع ، تطردهم ريح بيضاء عن الدور المبعثرة . .

وفي الامسيات كان دخان أحمر اللون تاتمه يتوهج مرغرفا غوق المعمل، مضبئا رؤوس المداخن ، باعثا في النفس شمعورا غريدا من الرهبة . كانست رؤية ذلك المشمد يوما بعد يوم اثتل من ان نطساق ، غيفيض تلبي بكراهيسة وحقد مؤلمين . .

كانت جدتي تقوم بسائر اعمال البيت ، غتنهماك منه الصباح حتى المساء في تحضير الطعام ، ومسح الارض ، وتقطيع الحطب ، حتى اذا هبط المساء سقطت متعبة اعياء وارهاقا ، وفي بعض الاحيان بعد تهيئة طعام الغداء ، كانت تلبس معطفا قصيرا ثم تخرج الى البلدة وهي تقول :

ــ سأذهب لارى كيف يدبر ذلك الشيخ اموره اليومية .

ے خذینی معلك ،

ــ لسوت تبرد حتى الجمود ، الا تحس بهذه الريح المريعة !

وتقطع مساغة سبعة اميال الى البلدة على طرق ضيقة في حتول من الثلج ، بينما تجلس امي الحامل في الدار صفراء منتفخة ، ملتفة بشال رمادي مزركش من على طرفيه . . كنت اكره ذلك الشمال الذي يشوه جسدها الجميل المتين البنيان ، واكره تلك الزركشة أيضا ، غأود ان امزقها أربا أربا كما كنت اكره البيت ، والمعمل ، والمنطقة بأسرها . وكانت والدتي تتجول في حذاء عالي الكعبين ، يهتز بطنها المنتفخ كلما سعلمت ، وعيناها الزرقاوان تلتمعان بغضب قاس ، أو تشخصان باكتئاب الى الجدران العارية . . . وغي بعض الاحيان كانت تتطلع الى الشمارع ساعة كاملة . . . كان هذا الشمارع يشبه فكا سودت السنون بعض اسنانه وشوهتها ، بينما سقط القسم الاخر يشبدك بأخرى جديدة لكنها كبيرة جداً بالنسبة الى الفك .

تلت اسال:

ــ لماذا نعيش في هذا المكان ؟

غاجابست:

_ اواه ، لا تسأل!

أصبحت نقتصر في حديثها معي الفلا بخاطبني الا كي تصدر أمرا ، أو تطلب الى عبلا مسا :

_ اجلب لي هذا .خذ ذاك . اسرع الي المخزن ٠٠٠

ونادرا ما كانت تسمح لي بالخروج لالعب ، لانني كنت أعود دوما وقد اعتدى على رغاقي واشبعوني ضربا . . . كان القبال اللذه الوحيدة المتي بقيت لي ، فكنت استسلم اليه بكل اندفاع . وكانت أمي تضربني ضربا مبرحا عقابا لي ، فلا يؤثر في العقاب الا كي اضاعف من سخطي ، فأروح اقاتل في اليوم الثاني بوحشية اكتر مني في اليوم الاول ، فتضاعف امي بدورها من قسوة عقابي . . . وأنذرنها مرة اني ساعض يدها واهرب اضحرب في الحقول ان عادت الى ضربي ، فدفعتني عنها في دهشة ، وراحت تـذرع ارض الغرفة بخطوانها . . .

قالت ، وهي تلهسث :

_ يا لك من متوحش صغير!

وكان زوج والدتي تاسبا جدا علي ، قليل الكلام مع أ مسي ، كان أبدا يصفر ويسمعل ويقف مقابل المرآة ينقر على أسنانه المعوجة ، ولقد أصبح بتشاجر مع أمي أكثر فأكثر ، ينعتها بعبارات شائنة قاسية تثير نقمة في أعماق قلبي ، وفي كل مرة يتشاجر واياها ، كان يغلق الباب المؤدي الى المطبخ حتى لا أسمع أقواله ، ولكن أصداء صوته الجاف كانت تبلغني وتصفع آذانسي بالرغم من كل احتياطاته ، ، ،

ضرب الارض بقدمه مرة ، وصاح مزمجرا :

ــ انا لا استطيع ان ادعو احدا الى الدار بسبب انتفاخ بطنــك ، أيتها المترة الشبطـاء ا

طغت علي دهشة عظيمة وغضب لا مثيل لسه ، نقفزت عنسف حتى اصطدم راسي بالسقف بقوة ، وعضضت لساني حتى آذيته ٠٠٠

وفي أيام السبت ، كان عدد كبير من العمال يأتون الميه يبيعونه بطاقات

الطعام الدي نمكنهم من شراء الحاجيات من مخزن الشركة . . . كان ألمعمل يوزع هذه البطاقات عوضا عن الاجور غيبتاعها زوج امي بنصف تمنها . وكان يستقبل العمال في المطبخ ، فيجلس الى الطاولة وعلى وجهه سيماء التكبر، ويروح يتطلع في كل بطاقة مقطب الحاجبين :

_ روبل ونصف الروبل .

ولم نطل هذه الحياة السوداء المضطربة ، فقد ارسلوني قبل ان تلد أمى لاعيش مع جدي ٠٠٠٠

كان يقطن منزلا جديدا مؤلفا من طابقسين في شارع بيسشانانيسا في كونافينو فوق مقبره كنيسة نابولنايا . وكانت الغرفة التي يشغلها تطل على الساحة بنافذتين عريضتين .

ضحك حين رآني ، راح يرسل كلاما عاليا حادا متقطعا :

__ حسنا! ان المنل يقول: «خير رفيق لك هو أمك ٠٠٠ »، • ولكسن في هذه المحال يبدو أن أفضل رفاقك هو جدك ، الشيخ! يا لمهم من قوم!

وما كدت استقر في المنزل الجديد حتى اتت اليه أمي وجدت بالوليد المجديد . اما زوج أمي فقد خسر عمله في المعمل لاحتياله على العمال ، ولكنه استفاث بأصدقائه، وسرعان ما استلم عملا جديدا بوظيفة محاسب في محطة للسكك الحديدية . . .

ومرت أيام طويلة قال أن أرسل ، مرة أخرى ، لاعيش مع أمي في قبو ضيق يقع تحت منزل حجري . . . أرسلتني أمي غورا ألى المدرسة ، ولكني بغضتهما هي والمدرسة منذ أليوم الأول . . . ظهرت غيها ، للمرة الأولى ، لابسا حذاء من أحذية أمي ، ومرتديا معطفا غصل من أحد قمصان جدتي ، وقميصا أصفر أللون ، وبنطالا طويلا . . . وطبيعي أن أكون مدعاة للسخرية بمثل هذا اللباس ، لكنني تفاهمت بسرعة مع زملائي ولكن الكاهن والاستاذ نقرا منسى .

كان الاستاذ أصلع الرأس ، اصفر الوجه ، يدخل ثاعة الدرس وقد حشا منخريه بالقطن ويتخذ مكانه الى الطاولة ، ويطرح علينا الاسئلة في صوت أجش ، ثم يقف في منتصف الكلمة ليسحب القطن من أنفه ويتفحصه

وهو بهز رأسه ٠٠ كان له وجه مسطح ٠ نحاسي اللون ٤ ببدو أن انعكاسات زرقاء مخضرة تنلاعب على صفحته ، أما عيناه الصغيربان ٤ وهما أكتر ما في وجهه شناعة ٤ مكان يخيل الى انهما محتسورتان حشرا في رأسه حيث لا مكان لهما على الاطلاق ٠

جلست طوال الايام الاولى في المقعد الامامي ، تماما تحت انف الاستاذ، حسى لاخال انه لا يرى احدا سواى ، وانه لا بفنا يرسل السى الملاحظة طو الاخرى كان يقول من خلال استانه :

بشكو . . و . ف ! كفى هذرا ! بشكو . . و . ت ! كفى مراوغة ! بشكو . . و . . ف ! لقد ترك حذاؤك ، مرة اخرى ، بعض الوحل على الارض!

كان ذلك اكثر من ان استطيع احتماله ، ولكنسي كنت انتقسم لنفسى باستنباط اكثر الالاعيب تطرفسا ، . وفي ذات يوم ، حئست بنصف بطيخسه متجاده ، والمرغت محتوياتها ، ومن ثم علقتها في مقبض الباب في المر المظلم وعندما فتح الباب ، طارت البطيخة في الهواء ، وعندما اغلقه الاستاذ سقطت القيعة على راسمه الاصلع ، . وقادني الحارس الليلسي الى الدار مع ورقة تأنيب من الاستاذ ، وكان نصيبي الجلد عقابا على تلك الاساءة ، . .

و في مرة اخرى ، نثرت السعوط في جراره ، الخذته نوبة من النعطيس الجبرته على مغادرة قاعة الدرس التي بعث اليها بصهره الضابط كي ينوب عنه . . وطلب منا الضابط ان ننشد « يا الله أنقذ القيصر » و « آه يا حريتي الماركة » مرات عديدة . . وكلما اخطا أحدنا في اللحن ضربه على رأسه بمسطرة معدنية كانت تحدث ضحة جوناء تبعث على الضحك ، وان لم تكن تؤلهم ابدا .

أما أستاذ الدين مُكان كاهنا أنيقا في شرخ الشباب ، كث الشعر الجعده ، أبغضني لاني لا أملك نسخة من « العهدبن القديم والجديد » ولاني أقلد طربقته في الحديث أبضا . . .

كان يقول ، عند دخوله قاعة الدرس مناشرة :

_ بشبكوف ، هل اشتريت الكتاب ام لا ؟

- ـ كلا ، لم اقعل ، نعم ! . .
 - وماذا تعنى بنعهم ؟
 - ہےکہلا!

ــ هيا الى البيت ! نعم ، الى البيت ! المست ارغب في تعليمك ، نعم، لا أرغب الــدا !

وما كنت اعترض ابدا على مغادرة المدرسة ، نكنت اركض في طرقات الضاحبة القذره اتأمل الحياة الصاخبة من حولي حتى يحين موعد الانصراف من المدرسة .

كان للكاهن وجه رائع كوجه المسيح ، وعينان جميلتان كاعين النساء . . وخّانت له يدان صغيرتان ، يخال الى انهما تلاطفان كل شيء تلمسانه ، اكان ذلك الشيء كتابا ، أم مسطرة ، أم ريشة . كان يبدو وكانه يحب كل شيء تقع عليه عبناه ، فينظر اليه على اعتباره شيئا حيا يمكن ان يؤذيه كل احتكاك عنية ، وكان الاطفال مولعين به بالرغم من انه لم كن يعطف عليهم بشكل ظاهر . . . ومع ان علاماتي كانت مرضية للغاية ، فما اسرع ما انذرت بانغي ساطرد من المدرسة بسبب سلوكي ، اقلقنى ذلك جدا ، فهما لا ريب فيه ان نتائجه ستكون صارمة قاسية ما دامت امي تزداد عنفا يوما بعد يم ، وتضاعف من جلدي أكثر فأكثر .

ولكن خلاصي من تلك الكارثة تحقق على غير انتظلما ، نقد زار مدرستنا ، بغتة ، الاستقى ، وكان ، على ما اذكر ، أحدب الظهر ، ، ، وامتلات تاعة الدرس بجو غير معهود من الحركة والانطلاق عندما دخل ذلك الرجل الصغير مرتديا ثوبا فضفاضا أسود اللون ، وأخذ مجلسه الم الطاولة . . .

قال ، وهو مخرج يديه من كميه الواسعين :

- حسنا ا هلا تحدثنا قليلا ، يا اطفالي ؟

وجاء دورى للمثول امام طاولته ... سالني :

-- كم سنة لك من العمر ؟ حقا ؟ با الله ! يا لك من فتى طويل بالنسب المي دمنك ! لا ريب انك وقفت كثيرا تحت الأمطار!

والقى احدى يديه الصغيرتين الطويلة الاظاهر على الطاولة ، بينما المسك باليد الاخرى لحيته الصغيرة ، وهو يحملق في بلطف :

_ حسنا ، ارو لى اية قصة نحبها من التاريخ الديني .

وعندما اجبته باننى لا املك كتابا ، ومن ثم لا أستطيع حفظ دروس الدين ، أصلح من وضع قلنسوته وقال :

_ كيف ذلك ؟ يجب عليك ان تدرس دروس الدين ، الم تسمع بعض القصص في مكان ما ؟ هل تعرف المزامير ؟ حسنا ! والصلوات ؟ والان ، لعلك تعرف حياة بعض القديسين ؟ حسنا ، يبدو انك متى مثقف اذن !

ودخل كاهننا ، محمر اللون ، وهو يلهث ٠٠٠ وبعد ان باركه الاستف طفق بحدثه عنى ٠٠٠ فقال الاستف ، وهو يقاطعه باشارة من يده :

_ انتظر لحظـة!

ثم استدار الى ثانيــة:

_ حسنا ، لنفرض انك اخبرننا عن الكسي ، رجل الله ...

وعندما توقفت عن تلاوة الشعر لنسياني بعضه ، قال :

ــ شعر رائع ، اليس كذلك ما بنى ؟ عساك تعرف شيئا اخر ـ عن الملك داوود ؟ رائع ! لسوف اكون سعيدا جدا بالاصغاء اليك ٠٠٠

واستطعت ان الحظ بنفسى انه سعيد جدا بالاصفاء ، وانه مولع بالشعر . . وتركني اتلو الكتبر منه قبل ان يقاطعني :

_ هل تعلمت حرف الهجاء من المزامير ؟ من علمك ؟ جدك الطيب ؟ جدك « الشرير » ؟ حسنا ، انك لا تعني ذلك ، ولكنهم اخبروني انسك ابدا تسبب بعض الشغب ٠٠٠

متضرجت وجنتاي ، ولكني اعترفت بخطيئتي . . وأثبت الكاهن والاستاذ هذه الحقيقة الى حد بعيد . ماستمع الاستف اليهما مطرقا بعض الوقت وقال أخيرا .

- أتسمع ما يقولان عنك التعال الى هنا!

ووضع يدا تفوح منها رائحة البخور على راسي ، وقال :

ــ ما الذي يجعلك بمثل هذه الشمقاوة ؟.

- ان المدرسة تبعث على الملل .

- تبعث على الملل ؟ في هذا بعض الخطأ ، يا ابني ! فأنت اذا وجدت المدرسة باعثة على الملل ستكون تلميذا كسولا ، ولكن علاماتك تشمهد ضد ذلك . يجب ان يكون هناك شمىء اخر بضايتك .

وأخرج من جبته كتابا صغيرا وكتب :

- بشكوف ، الكسى ، يحسن جدا لو عدلت عن شيطنتك ، قليل من الشعب لا بأس به ، ولكن الناس لا يتحملون كثيرا منه ، كما تعليم ! الست على حق ، أيها الصغار ؟

فردت عليه جومة من الاصوات بصوت عال :

- بلی ، انك على حق !

- وماذا عنكم ؟ اظن أنكم لا تسببون الا تليلا جدا من الشعب ، اليس كذا ـ ك عنكم ؟

نضحك الاولاد:

ــ اوه ، كلا ، بل كثيرا !

وقال في نغمة تعجب ودهشة ، اطلقت عاصفة مسن الضحك اشترك فيها حتى المكاهن والاستاذ أيضا:

ــ ما أغرب ذلك! لقد كنت بدوري مثماغبا كبيرا عندما كنت في مثمل عمركم! ما الذي يجعلنا هكذا في رايكم ؟

ضحك الاولاد ، وهو يتابع اسئلته ، الامر الذي زادني مرحا وابتهاجا. ولكنه نهض اخيرا ، وقال :

_ من المؤسف أن أغادركم ، أيها الخبثاء ، ولكن ساعة رحيلي قد دنت.

ورفع ذراعه ، ودفع الى الوراء كهه العريض ، ورسم اشارة الصليب قائسالا :

ـ غليمد الله في حياتكم ، ويهدكم سواء السبيل ، باسم الاب والابسن والروح المقدس . وداعا !

غصاح الاولاد:

ــ وداعا ، يا صاحب القداسة ! عد الينا سريعا !

ــ سأعود 4 سأعود سريعا ! وسأحمل لكم بعض الكتب .

ثم استدار الى الاستاذ:

ــ مليمضوا الان الى منازلهم .

واعترض سبيلي فيالمشمى ؛ وقال نمي صوت خنيض :

_ عدني الا تسبب اية متاعب في المستقبل ، اتعسد ؟ انا أنهم لماذا تفعل ذلك طبعا ! حسنا ، الى اللقاء !

كنت شديد الانفعال ، يشتعل في صدري احساس غريب ، حتى انسى اصغيت بانتباه وطيبة خاطر الى الاستاذ الذي استبقائي بعد انتهاء الدرس وطفق يكرر لى ان من واجبى بعد الان ان اكون كالحمل وداعة ولطفا -

وخاطبني الكاهن ، وهو يرتدي معطفه :

_ ومن الان غصاعدا يجب ان تواظب على دروسي ، نعمم ، هذا ما يجب ان تفعل . . . ولكن ، اهدا ! نعم ، ابق هادئا !

تحسنت الامور في المدرسة ، ولكن حادثا وقع لى في الست بعث في الجو نفورا واشمئزازا . . نقد سرقت روبلا من امى ، دون ان اقصد هذه الجريمة او العمدها

خرجت أمي ذات مساء الى مكان ما ، وتركتني وحيدا مع الطفل الرضيع ، متناولت كتابا ، احد كتب زوج أمي - « ملاحظات طبيب » لاني

لم أجد شيئا أفعله أفضل من ذلك . وهد وجدت بين صفحات دلك الكتاب ورقة من هئة المروبل الواحد ، وأخرى من هئة العشر روبلات ، وأغلق على فهم الكتاب ، ولكننى عندما أطبقته راودتنى هكرة السرقة فجأة باني استطيع بذلك الروبل أن أشتري ليس « تاريخ الدين » محسب ، بل و « روبنسمون كروزو » أيضا .

كان عدد اخر من الطلاب قد قراوا روبنسون كروزو ، فراحوا جمبعسا يمتدحون ذلك الكتاب . وعزمت ان احصل على روبنسون كروزو حتى استطيع ان أقول ، بعد قراءته ، انه ردىء لا بنفع شيئا .

وجئت المدرسة في المغداة أحمل « تاريخ الدين » ومجلدين صغيرين من قصص اندرسون الخرافية ، وقليلا من الخبز الابيض ، وأوقية واحسدة من اللحم المقدد ، ولقد عثرت ، في المكتبة الصغيرة المظلمة القائمة في الزاوية القريبة من كنيسة غلادبمبر ، على نسخة من روبنسون كروزو سكسان كتابسا صغيرا أصغير المغلاف ، ووجدت في الصغحة التي تحمل المغنوان صورة رجل ملتح قد وضع قبعة من المفرو على راسه ، والقي معطفا من جلد النمر على كتفيه ، لم يستهوني ذلك ، بل مضلت عليه اقاصيص الجنيات التي متنتني .

واقتسمت ، اثناء الفرصة ، الخبز واللحم مسع الاولاد ، ورحنا نقرا معا قصة « العندليب » التي ادهشتنا واستحسوذت على قلوبنا منذ بسدء الصفحة الاولى :

« ان سائر الناس في الصين صبنيون ، وحتى الأمبراطور نفسه صيني الضاد . . . »

وما برحت اذكر كيف أبهجتني هذه الجملة ببساطتها ، وموسبقاهسا الباسمة ، ولست أدرى أي شيء أخر غيها كان رائعا .

ولم اجد الوقت الكافي كي انتهي من قراءة « العندليب » في المدرسة ، وعندما عدت الى البيت سالتني أمي في صوت مغتصب ، وهمي تقلي بعض السمك :

_ مل اخذت روبالا ؟

ــ نعم ، وها هي ذي الكتب ...

غضربتني بعنف بالمقلاة ، واغتصبت مني القصص ، واخفتها عني للابد . . . كان هذا العقاب الله اللها من الجلد بما لا يقاس .

وانقطعت عن المدرسة أياما عديدة . . . ومما لا ربيب غيه أن زوج أمي اطلع الناس في المعمل على فعلتي ، فرووها بدورهم لاولادهــم الذين حملوا المقصة المي المدرسة التي استقبلتني ـ عندما عدت اليها ـ بلقب جديد ، الا وهو « الحرامي » . . . كان اللقب وجيزا ، واضحا ، ولكنه خاطىء . . ولم اجرب أن أخفى حقيقة سرقتي للروبل ، ولكنني ، عندما حاولت أيضاح ذلك، لم يصدقني أحد . . . وهكذا رجعت إلى البيت وأخبرت أمى أنني لمن أعود الى المدرسة ثانيــة . . .

كانت حاملا ، مرة اخرى ، تجلس الى الناغذة تعلم اخسى سائسا ، المادارت وجهها نحوي ونظرت الى بعينسين مذعورتسين وقد غنجت فمهسا دهشية ...

تالت في صوت اجوف:

_ انت تكذب ، اذ إلا سكن ان يعرف انسان انك سرقت الروبل .

_ ما علبك اذن الا ان تستفهمى م

ــ لا ريب انك انت الذي اخبرتهم بالامر اذن ؟ احدةنى الحقيقة ــ الم تخبرهم ؟ ولكن ، لا تكذب ، ـ ماذهب غدا الى المدرسة لاتحقق من الامر .

المنابرتها ، باسم التلميذ ، واذاوجهها ينقبض الما ، والدموع تسيل عليه مغزارة . . .

ذهبت المى المطبخ ، وتمددت خلف الموقد على الفرائس الذي صنع لي من بعض اخشاب الصناديق ، وكنت استطبع ان اسمع امى تبكس عبى الفرئة المجاورة وهي تتأوه ، وتتفوه ببعض كلمات غير مفهومة ،

لم أعد استطيع أن أطبق الرائحة التي تبعثها الاسماك القذرة ، مخرجت الى الساحة .

نادتنی اسی :

الى اين ؟ تعال السي ا

جلسنا معا على الارض ، وساشا يتتعد ركبتيها يشد أزرار ثوبها ، وينحني عليها . . والتصتت بامى ، غلفتنى بذراعها . قالت :

ــ اننا فقراء معدمون . فكل كوبيك ــ كل كوبيك واحد . . .

وضغطت علي بذراعيها الداغئتين عاجزة فيما يبدو عسن التصريح بما تريد أن تقسول ...

وزمجرت نمجأة ، وهي تراجع كلمة كانت تتفوه بها كثيرا من قبل :

ــ اواه ، يا للوحش ، يا للوحش !

كان ساشا طفلا غريبا _ خخم الراس ، هادىء الطباع ، ذا عينين زرقاوين ساحرتين تخحكان دوما ، بدأ يتكلم في سن مبكرة غسير عادية . ولم يكن بيكي ابدا ، بل يعيش على الدوام في حال من الفرح المستمر ، وكان أضعف بنية بن أن يقبل على الزحف بيسر ، ولكنه كان يبتهج كثيرا عندما يراني ، غيمد فراعيه الصغيرين ، ويروح يلعب بأذني باصابعه الناعمة التي تفوح منها رائحة البنفسج ، ولقد مات على غير انتظار ، دون ان يمرض ابدا . كان سعيدا كل السعادة في الصباح كعهده . . . ولكنه ،عندما يهبط المساء ، واصوات اجراس الكنيسة تدعو النساس الى صلاة الغسروب ، كان يضطجع على الطاولة دون حراك ، ولقد حدث ذلك بعد ولادة الطفل الثاني نيقولاي بفترة قصيرة .

وقد دبرت امي الامور في المدرسة ، نمعدت اتابع الدروس كالمعتساد . . . ولكنى عدت أعبش ، مرة أخرى ، مع جدي للسبب التالي . . .

ذات يوم ، بينما كنت ادخل الى المطبخ ، سمعت امي تصيح بياس :

- يفجبني ، يفجيني ، لا تذهب ، أتوسل اليك !

فأجاب زوجها:

ــ هـراء!

- ولكنى اعرف انك ذاهب البهسا!

_ حسنا ، وماذا في ذلك أ

صبت كلاهما عدد لحطات ، مم قالت امي بين نوبنين من السعال .

_ یا لك من نذل خسیس ؛

ومهعته يصربها ، فعدوت داحل الغرمه كي آراها جانية على ركبيها ، تسمند الى احد المهاعد بطهرها ، وراسها يندلسى الى الحلف ، وعيناهما ببرغان بصوره عير معهوده بينها اللصب مكسيموف امامها ، مرتديما سترة جديده ، يرفسها بساقه الطويل على عدرهما . . . والتقطت سكينا حمادة مصيه المعبض مم التميء الوحيد الذي بقي لوالدسمي من مخلفات أبسى مورسها الى خاصرمه بكل ما بى من قوة ،

ومن حسن الحظ ان والدني استطاعت ان تدفعه عنها في الوقه المناسب ، فتقت السكين المعطف وحده ، وجرحت الجلد جرحها طفيفه ماطلق أنينا مزمجرا وخرج من الغرفة راكضا وقد المسك خاصرته .

اختطفتني أمي وقد ندت عنها صيحة حسادة ، ثم طوحت بسي على الارض ، ولكن زوج امي اندزعني منها عندما قفل عائدا ،

في ساعة متأخرة من مساء ذلك النهار ، عندما خرج بالرغم من كل شيء ، جاءتني أمي الى خلف الموقد ، وعانقنني بلطف وقبلتني :

-- سامحني ، يا عزيزي ، لقد اسأت اليك ! ولكن ، كيــق يمكن ان مفعل مثل ذلك ؛ يسكين !

ماقسمت ، وانا ادرك نماما معنى كلماتي ، اني سأقتل زوج امي ثم امتل نفسي ايضا . واخال انني كنت فعلت ذلك ــ او حاولته على الاقل . وانا ما برحت ارى حتى اليوم تلك القدم المقينة تتأرجح في الفضاء ، لترفس صدر امراة ضعيفية ...

وعندما اذكر ، في بعض الاحيان ، تلك الحياة الروسية الهمجيسة التساءل ان كانت تستحق ان يتحدث المرء عنها . . . ولكني اتتنع بعد التفكير ان من الواجب ان اعرضها ، لانها تشكل الحقيقة الدنيئة التي لم تستأصل شاغتها حتى اليوم الحاضر . . انها تمثل حقيقة يجب معرفتها حتى أعمق جذورها ، كي ننتزعها بعد ذلك من حياتنا الملطخة بالعار . . ننتزعها من صميم نفس الانسان وذاكرته . . . اجل ننتزعها من ذاكرة الجيل الطالع .

هُأنذا مرة اخرى مع جدي ٠٠٠

حياني ، وهو ينتر على الطاولة بعصبية :

- حسنا ، أنا أن أغذيك بعد اليوم ، فلتتكفل جدتك بذلك ،

نىتالت جدتى:

ــ سادير ذلك ، لكأن هذا الامر عمل شاق !

ــ حسنا ، خذیه فی عهدتك اذن .

ولكنه أوضح لي الامور بعد ذلك بهدوء اعظم :

ـ ان كل شيء ينقصنا ـ كل يعني بنفسه وحدها . . .

جلست جدتي الى المهذة تطرز ، غراحت بكرات خيطانها تتدحرج على الومادة الملاى بالدبابيس النحاسية التي تلمسع في السعسة شمهس الربيسع . كانت جدتي نفسها تلوح وكانها اناء من البرونز ، لم يتبدل فيها شيء ما على الاطلاق ، لكن جدي اصبح الله هزالا واكتسر تغضنسا تناتص شمعسره ، واستحالت رزانة حركاته اضطرابا مرتعشما ، واضحت عيناه الخضراوان ترنو الى كل شيء في ارتياب وتشكك ، راحت جدتي تخبرني ، وهي تضحك ، عن التسام الاملاك بينها وبين جدي ، لقد اعطاها جميسع العلب ، والصحون ، الاحواض ، وقال :

- كل هذا لك ،واباك ان تساليني شيئا اخر ا

نم جمع سائر تيابها القديمة وممنلكاتها ، بما فيها تبعة من جلسد الثعلب ، وباعها لقاء سدعمائة روبل ، اقرضها بالفائسدة ليهودي اعتنسق المديحية يتاجر بالفواكه ، لقد اصبح مريضا ، اهلكه الطمع للصبح طماعا بصوره مشينة ، فهو يزور معارفه القديمين للمن تجار اغنياء ، ومهنيين ، لعامل واياهم فيما مضى لل ويسالهم بعض المال ، قائلا ان ابنيسه قاداه الى الخراب والتهلكة ، ولقد قدموا له منحا سخبة احتراما لمركسره السابق ، فكان يرجع الى البيت ويلوح ببعض اوراق النقد تحت انف جدتي وهو يسخر منها كطفل حسفير :

ــ هل ترين هذه ، اينها المجوز الحمقاء ؟ انك لن تجدى من مدنع لــك عشم هذا الملغ نقط ا

ثم اقرض جدى هذا المبلغ الجديد بالفائدة لشخص تعرف عليه حديثا ، تاجر مراء عملاق ، اصلع الراس ، ٤ ولاخنه ، وهي صاحبة دكان سمينة ، حمراء الخدين ، سوداء العبنين ، حلوه ورخوه في وقت واحد معا .

كان اهل الدار بتنسمون كل تسىء بصورة دقيقة : فاليسوم تهيء جدتي الغداء من مالها الخاص ، وفي الغد يشتري جدي الخبز والطعام ، وفي هذه المحال يكون الغذاء ردينا على الاطلاق . كانت جدني تبتاع لحما جيدا ، اما هو فيبتاع رئة الخروف او امعاءه . وكان كل منهما يحتفظ بشايسه وسكسره الخاصين ، ولكنهما يغليانه في الابريق نفسه ، ويقول جدى مذعورا :

ــ مهلا ! كم وضعت نميه ؟

ويرجع اوراق الشاي ، ويعدها بعناية غائقة ثم يتول :

ــ ان الشماي الذي تبتاعينه ارق من الذي ابتاعه انا ـ ولكن اوراقي اكثر كثافة ، فهي تختمر بصورة المضل ، وهكذا فعليك ان تضعي عددا اكبر من اوراقمه .

ويراتب جدتي ، وهي تصب لسه الشاي ، كي يسرى أن كانت حصته تساوي حصتها في الكثافة ، كانا يشربان دوما عددا متساويا من الاقداح ،

وكانت جدتي تسأله :

- اتشرب المقدح الاخير ؟

غيواغق جدي بعد أن يلقى نظره المي الابريق:

ــ حسنا! أنه القدح الأحير حقا!

لا بل ان كلا منهما كان يبناع الزيت الضروري لقنديل الايقونة .

كنت اجد اعمال جدي مسلية ولكنها مقرغة ـ اما جدتي غتراها مسلية عقط . . . كانت تقول لـي :

ــ لا تفكر في كل ذلك ! لقد كبر ، شاخ كتيرا ، فاصبح شاذ الطباع ، لقد ناهز النمانين ــ فكر فقط في هذا النعدد الكبير من السنين ! فليصبح شاذ الطباع اذن ــ ذلك لن يؤذي احدا ، لها أنا وأنت ــ فكن على ثقة من أننسي ساكسب دوما ما يدفع عنا غائلة الموت جوعا ،

وأصبحت اكسب ، بدوري ، بعض المال ، فما ان يشرق يسوم الاحسد حتى أحمل كيسا على ظهري وأتجول في الشوارع والساحات أجمع العظام، والمخرق ، والمسامير ، والاوراق ، كانوا يدفعون لنا عشرين كوبيكا مقابل كل حزمة من الخرق والاورافي وقطع المعسن ، وثماني أو عشر كوبيكات مقابل كل حزمة من العظام ، ثم أصبحت أجمع هذه الاشياء من الطرقات بعد خروجي من المدرسة ، فأربح كل يوم سبت من ثلاثين حتى خمسين كوبيكا .

وكانت جدتي تأخذ المال مني: وتودعه جيب قميصها: وتطرف بعينها وهي تكانئني بكلمات المديح:

- شكرا ، ايها العصنور الصغير ! غلن نجوع ، لا أنا ولا أنت ، أبدا... اليس كذا ... ؟

وفي ذات يوم ، فاجئتها وهي تشخص الى قطع الخمس كوبيكات التي الملكها وتبكي وقد علقت دمعة براقة عند نهاية انفها . .

ولكني وجدت أن أرباح المتاجرة بالخرق ألل مما أستطيع كسبه من سرقة ألواح الخشب من منجرة تقع على ضغاف نهر الأوكا ، حيست تجري التجارة بالمعادن خلال السوق السنوي تحت خيمات مصنوعة من الخشب . وعندما كان ينتهي السوق كانت تلك الخيمات تفكسك وتكدس الواحها لموق بعضها البعض وتبقى على أرض الجزيرة حتى صعود مياه النهر في الربيع . وكانوا يدفعهن لنا عشر كوبيكات لقاء كل لوح جيد ، ونحن كنا نستطيع أن

نسرق لوحين او نلاثة يوميا ، ولكن عملية السرقة يجب ان تجري على اية حال في الايام الماطرة حتى يحتمي الحراس داخل الابواب ،

كنت اعمل مع عصابة لطيفة من زملائي ، في عدادها سانكافيسا الملقب بالحمامة ، وهو صببي في العاشرة من العمر ، كان ابنسا لامراة متسولة من مردانيا ، هادىء الحركة أبدا ، مرح الطبيعة دائما ، وكان هناك ايضا اليتيم كوستروما ، وهو صببي شديد النحول كنسير العصبيسة ، واسمع العينسين السوداوين . . . ولقد شنق نفسه فيها بعد ، عندما كان في الثالثة عشرة ، في السلحية للاحداث ارسل اليها لسرقته زوجا من الحمام ، وكان هناك المتري خابي ، وهو شمهشن في الثانية عشرة من العمر يجمع الى المقوة الخارقة نفسا طيبة ساذجة . وكان هناك ياز ذو الانف الإفطس ، وهو صببي يبلغ النامنة من المعمر ، صامتا أبدا ومصابا بسر « الداء الاسود » كان أبوه حفارا للقبور وحارسا للمقبرة في وقت واحد ، وأخيرا كان هناك اكبر انهسراد عصابتنا ، وهو شخص اختصاصه في توجيه الاوامر يدعى ريشكا شوركا ، كانت المسه وهو شخص اختصاصه في توجيه الاوامر يدعى ريشكا شوركا ، كانت المسه أرملة تشتغل بالخياطة . وكنا جميعا نعيش في الشارع نفسه .

ولم تكن السرقة تعتبر جريمة في حينا ، بل كانست الوسيلة العادية ، والوحيدة تقريبا ، التى يستطيع بها اكثر البورجوازيين الصغار المتضورين جوعا أن يحصلوا على القوت ، كانت الايام الخبسة والاربعون الني تقام خلالها السوق السنوية لا تكني لتطعمهم طوال السنة بحيث كان عدد كبير بصطادون الواح الخشب وقطع الحطب التي يحملها المد معسه ، أو ينقلون البضائع الخنيفة على عوامات صغيرة ، . . ولكنهم كانوا يعمدون الى السرقة في المحل الاول ، . . يسبلون الارصفة والقوارب وضفاف النهر وكل ما تناله أيديهم ، وفي أيام الاحاد كان الكبار يتباهون بنجاحهم ، أما الصغار فيستمعون اليهم ويتعلمون منهم الدروس الباهرة .

خلال الاسابيع المليئة بالعمل اثناء الربيع التي يجري فيها الاستعداد للسوق ، كان بعض العمال يملأون الشوارع بعد عمل النهار المضني ، وعندئذ كان اولاد الحي ينطلقون في استكشاف الجيسوب ، وهو عمل كان مشروعا في اعين الجميع يجري تحت انظار الكبار الذين يلاحظونه في لامبالاة .

اعلن شوركا ذات يوم:

ــ انى لن أسرق بعد اليوم ، مُأْمِي لا تسمح لي بذلك .

واضاف آخسر:

_ وانا اخاف من ارتكاب أية سرقة .

كان كوستروما يحتقر اللصوص ويلفظ كلمة « اللص » وهو يشد عليها بصورة غريبة ، فهو عندما يقع على بعض الصبية وهم يسلبسون السكارى بطاردهم وينهال عليهم ضربا دون هوادة او رحمة . كان هذا الصبي الكثيب الواسع المينين يتصرف أبدا وكأنه احد الكبار ، نيسير وهسو يترنح مشل الحمالين ويجرب أن يجمل صوته عميقا قاسيا ، والحقيقة أن شبيئا مشدودا ، مسنا ، غير طبيعي ، كان يبدوني شخصه كله ، أما الملقب بالحمامة مكان مقتنعا بان السرقة خطيئة لا تفتفر . . ولكن انتثال السواح الخشب والعواميد من جزيرة « الرمال » كان مسموحا به فلم يكن احد منا يخاف مان ارتكابه ، بل اننا اخترعنا طرقا عديدة كانت تيسر علينا ذلك المعمل كثيرا . كان اثنان منا ينطلقان اذا ما هبط المساء وخيم المظلام ، او في أيسام الضباب الكثبف ايضا ، نحو الجزيرة فوق الجليد الموحل . كانا يذهبان بصورة ظاهرة ساعيين الى اجتذاب انتباه الحراس ، بينما ينطلق أربعتنا زحفا من جوانب مختلفة دون ان يشعر احد بنا ، وبينما يعني الحراس بمراقبة الاخرين كنا نجتمع في المكان المعين ونختار الواحنا . . ومن ثم ، في حين يخدع رفيقانا الحراس ويهربان منهم ، كنا نحن ـ بكل هدوء ـ نختار طريق المودة ، وكان كل منا يملك حبلا ينتهي أفي احد طرفيه مسمار ضخم منحن على شكل الكلاب كنا نربط اللوح لنجره بعد ذلك على الثلج والجليد . نادرا ما كان الحراس يروننا . فان فيعلوا كانوا عاجزين عن الامساك بنا . ولدى بيع المقيمة كنا نقسم الرميد المي ست حصص متساوية ، وكان ثمن اللوح عادة يبلغ خمس او سبع **کوبیکات .**

كان هذا يكني كي ناكل ما شئنا طوال يوم واحد ، ولكن أم رفيقنا الملقب بالحمامة كانت تجلده أن لم يجلب اليها شيئا من الفودكا معه ، وكان كوستروما يوفر أرباحه كي يستطيع في المستقبل أن يحقق أحلامه في تربية الحمام ، وكانت أم شوركا مريضة ، فهو أذن في أمس الحاجة الى كل ما يستطبع أن يربحه من أجلها ، أما خابي فكان يوفر ألمال أيضا كي يرجع الى المدينة التي جاء به منها عم له غرق بعد وصوله إلى المدينة ،

ولسبب ما وجدنا مكرة المدينة مسلية مضحكة ، مكنسا نهسزا بالتتري

ذى العينين المنحرفتين . وننشد له على الدوام حين نلتقيه :

« هناك مدينــة جد جميلــة ،

لكنسه لا يعسرف اين هسى

هنا ام هناك ، أم في الهواء »

وكان خابى يغضب منا في اول الامر ، ولكن الحمامة قال له يوما :

_ دعك من هذا الان ، من الذي سمع عن رمان يغضبون من بعضهم }

مُخجِل المنري ، وقبل التأنيب بطيبة خاطر ، ومنذ ذلك الحين أصبح ينشد وايانا تلك الاغنيسة ،

ولكننا بتينا نفضل جمع الخرق على سرقة الالواح . ولقد أصبح ذلك المعمل مثيرا جدا للاهتمام في الربيع عندما ذابت الناسوج وغسلت الامطار الشموارع المرصوفة في السوق المهجور . . وكنا نستطيع دوما أن نجد فسي أرض السوق كميات كبيرة من المسامير وقطع المعدن والخسرق ، وبصورة خاصة في مجاري المياه . وكتبرا ما كنا نعثر على بعض القطع النحاسبة أو الفضية أيضا . ولكن الحراس كانوا يلاحقوننا وينتزعون الاكياس منا أذا لم نعطهم كوبيكين في كل مرة ، وعلى المعموم ، لم يكن كسب المال بالامر البسير، ولكننا أصبحنا أغضل الاصدقاء في جهودنا المشتركة في سبيل الحصول عليه . وكان الخصام ينشب بيننا في بعض الاحابين ، ولكنني لا أتذكر أننا تقاتلنا مرة واحسدة .

كان الحمامة يلعب دور المصلح بيننا دوما . كان أبدا يجد الكلمات المناسبة كي يهدىء من اعصابنا واحتياجنا . . كلمات بسيطة كانت ، بالرغم من كل شيء ، تدهشنا وتجعلنا نخجل من أنفسنا ، وكبان هو نفسه ببدو مدهوشا عندما يتفوه بها ، لم يكن يسهتاء أبدا من الاعيب ياز الوغيعة ، بل يغض النظر بهدوء عن كل شيء تاهه على اعتباره سخيفا عديم الجدوى ، كان يسال :

_ لاذا اقدمت على فعل هذا الشبيء ؟

نهيتضح لكل واحد منا أن ذلك المفعل لم يكن له معنى حقا ...

وكان يسمي إمه « مرداميني » . لكن احدا منا لم يكن يجد في ذلك ما يخدك . كان يضحك وعيناه الصغيرتان الذهبينا اللون شعان ، وهسو بحدثنا قائسلا:

ـ في الليلة الماضية عادت مردافيني الى الدار مشربة خمرد مل دجاجه مبتلة . وسقطت على عتبة الباب واضطجعت هناك تغني بملء عقيرنها . يا لها من دجاجة عجوز ا

فيساله شوركا جادا:

ــ وماذا تغنسي ؟

غيضرب رغيقنا على ركبتيه في نوافق مع الموسيةى ، وهو ينشد اغنيه المه بصوت مرتفع رغيم :

« المراعي دق على بابسي . . فمشيت وحسدي للغساب . . والراعسي ينشد للجسسارة To مسا احلسي مزمساره! »

كان يعرف عددا كبيرا من الاغاني المرحة غينشدنا اياها في حماسة واندفاع ٤ واسترسل يقول:

- نعم! ولقد استغرقت في النوم هناك على المتبة ، والرياح الباردة تدخل الى الغرفة بحرية تامة ، وإنا ارتجف واكاد اتجمد مسن البرد لاني لا استطيع ان إجرها الى الدار ، لقد قلت لها هذا الصباح : « مساذا تتوخين من النيكر هكذا ؟ » ، فأجابت : « ما هم ، جرب ان تتحمل ذلك بعض الوقت أينظنا ، فاني سرعان ما ساموت ! » .

مَاكِكُ شُنُورِكَا فِي خُطُورِة :

ــ بكل تأكيد ! بسوف أن تعيش طويلا ! الملا ترى كيف المتنخت ؟

سالت بدوري:

_ هل ستأسف لذلك ؟

- بكل تاكيد القد كانت اما طيبة لي .

وبالرغم من الحقيقة التى كنا جميعا نعرفها ، الا وهى ان الموردانية ضرب ابنها كثيرا ، فقد كنا على يقين من طيبة معدنها ، ولقد كان شوركا تترح في الايام حيث تكون أرباحنا قليلة :

_ فليعد كل منا كوببكا واحدا كي نبتاع قليلا من الفودكا لام زميلنا لحمامة ، كي لا تجلده .

كنت وشوركا الوحيدين الذبن نعرف القراءة والكنابة ، وكان الحمامة حسدنا على هذا ، وهو بشد على اذنه المدبنة الشبيهة باذن المار:

_ عندما تموت موردائيتي ساذهب الى المدرسة أيضا ، سموف أرجو لاستاذ وأقبل قدميه كي يقبلني ، يم عندما أنتهي سأصبح بستانيا عندد لاستف ، وربما عند القيصر نفسه .

وفي ذلك الربيع ، قتلت الموردانية مع عجوز كان يجمع النبرعات لناء نيسة جديدة ، عندما سقطت عليها كومة من الاخشاب ونقلست المراة الى لمستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

_ تعال واسكن معنا . ولسوف تعلمك امى القراءة .

كان حبه الفائق للاشتجار والاعشاب بدهشنا ويسلبنا ...

كان حينا رمليا فلا يجد المرء فيه الا قليلا من الخضرة ، الا بعض اشجار لصنفصاف المهزيلة هنا وهناك في ارض الباحات ، أو بعض فروع الببلسان للتوية أحيانا ، وقليل من العشب الجاف المختفى تحبت الاسورا ، وعندما كان احدنا يجلس على هذا العشب ، كان الحمامة بوبخنا غاضبا :

ــ لماذا تفسدون العشب ؟ الا تستطيعون المجلوس على الرمل ؟ ذلك ــ مواء لدبكــم ؟

وكنا نتردد في حضوره في اقتطاع غصن من البيلسان المزهر او غصن من الصفصاف المتفرع على ضغاف النهر . كان يقول لنا عندئد، وهو يهسز كتفيه في ذهسول:

- لماذا تفعدون الاشمياء دوما ، أبها الشماطين ؟

كان ذلك الذهول يخجلنا ...

كنا نجمع ، طوال الاسبوع ، الاحذية العتيقة البالية من الطرقات استعدادا لرياضة أبام السبت ، حيث كنا نخبىء في المساء في احد الشوارع نتظر أن يغادر الحمالون التتار الرصيف كي نرميهم بالاحذية . وكاثوا في المبدء مفضون ، فبلعنوننا وبطاردوننا ، ولكن سرعان ما استهوتهم التسلية دورهم ، فكاوا يسلحون انفسهم بالاحذية البالية ايضا استعدادا الممركة المقادمة ، لا بل كانوا بسرقون احيانا مخزننا بعد أن اكتشفوا المكان الذي نضع فبه الاحذبة . ولكننا اعترضنا على ذلك ، نظانا :

ــ هذا لبس لعبسا .

وعندئذ كانوا بقاسموننا السرقة ، ثم تبدأ المعركة ، وكانسوا يتخذون بالاحذبة الدالية ، وكانوا يصرخون بدورهم وبنفجرون ضاحكسين كلما دمن اهدنا انفه في الرمل وقد اصابته قذيفة .

كان اللعب سنمر أحبانا حتى حلول الظلام ، وكان بعض البورجوازبين الصغار بتفرجون علينا محتمين بأحد المنعطفات ، وهم يحتجدون على اقلاق راحة الناس ، ولكن الإحذية كانت لا تنقطع عن الطبران في الهواء اشبه ما تكون بعصافير رمادية مغبرة ، وكان أحدنا أحيانا ينال صفعة قاسية ، ولكن لذة المقنال تعوضه عن كل ألهم ،

وكان التتار بجاروننا في حماستنا ، فاذا انتهى القتال كلما نرافقهم احيانا حتى الست حيث كانوا بقدمون لنا صحونا من لحم الخيال مع نوع خاص من الخضار المطبوخة ، ويقدمون لنا بعده ثمايا كثيفا ونوعا من اللوز . كنا محرمين حدا بهؤلاء الرجال العمالقة الذبان يبدو كل منهم اتوى مسن الاخر ، فقد كان فيهم شسىء طفولى وطبيعى . . . وقد تأثرت خاصة عندما وجدتهم لا يستاؤون أبدا من بعضهم ، بل هم بتعاملون بلطف واحترام دائما .

كان جمبع التتريين بضحكون كثيرا . . . بضحكون حتى تسيل الدموع على وجناتهم ، وكان احدهم مخطسم الانف ، خرافي القوة ، لقسد حمل ذات يوم جرس كنسة بزن تنطارين من احد المراكب حتى ضفاف النهر بزمجسر عندما بضحك ولا ينقطع عن الصياح والتفوه بما لا نتمكن من فهمه .

وفي ذات يوم ، حمل المطمامة على راحة بده ورضعه عالما في الواء ، وقـال : _ اذهب وعش هناك في السماء!

وفي الايام الماطرة كنا نجتمع في البيت الصغير في المقبرة حيث يعيش ياز مع والده . كان أبوه هذا رجلا طويل الذراعين ، نغطى جمجمته ووجهه خصل من شعره القذر . كان رأسه يشبه رأسا من الملغت يقوم على عنته المتعظم المهزيل .كان يضيق عينيه الصفراوين بصورة مبهجة ، ويغمغم بسرعة:

... فليحفظنا الله من الميالي المؤرقة .

وابتعنا ثيئًا من الشاي وبعض السكر والمخبر وقليلا من النودكا لوالد باز ... وكان شوركا يعطى النعليمات باستمرار:

_ انتبهر وانتحوا اعينكم جيدا ، بعد غد ستقام في دار آل تروسون وليمة احتفالية احياء لذكرى احدهم ، ولسوف بكون هناك كمينت كبيرة من العظام ،

فيقول شموركا ، ولدبه الخبر البقين دائما :

... ان طباخة آل ترود، وف تحتفظ بالعظام لنفسها على الدوام! ويقول الحمامة وتأملا:

ــ سرعان ما سيصبح الطقس جيدا فنستطيع الخروج الى الغابات . كان ياز نادرا ما يتكلم ، دل هو يراقبنا في سكون بعينيه الكثيبتين .

ويهيىء والده المائدة ، فنضع عليها اقداحا مختلفة الاشكال ، ثم يحمل اليها المصباح ، ويصب حوسسروما الشاي ، ببنما بحتسى العجوز حصه من المفودكا ، ويتسلق على الموهد يتطلع بنا من عل بعينين كعيني البوم ، وهو بغمضم .

__ الا فلتحل اللعنة عليكم! النتم كاثنات بشرية ، أم ماذا ؟ عصمه احزمة من اللصوص ، فليحفظنا الله من الليالي المؤرقة .

ويقول الصاسة:

_ رلكتنا لسنا لصوصا!

ــ لصوص صغار اذن ؟

وعندما يرهق والدياز أعصابنا ، كان شوركا يصيح به في تسوة :

_ اخرس ، أيها الموجيك الملئيم!

كنا لا نطيقه ولا نطيق الاستماع اليه وهو يعدد مرضى الحي ، ويتساءل عمن سيموت منهم قبل الاخر ، كان يخال لنا انه يمتص شنفيه في انتظار ذلك الحادث دون ان تعرف الشنقة طريقا الى قلبه ، وعندما يرى أن اقاصيصه تضايقنا كان يتعمد ازعاجنا ، غيروح يسخر منا .

ــ انكم تخافون ، ايتها الحشرات الصغيرة ! ان هناك رجلا كبيرا سمينا سوق يموت عما قريب .

ونحاول اسكاته ، ولكنه يسترسل تائلا:

ـــ ولمسوف ياتي دوركم عما قريب ، غلا تنتظروا ان معيشموا طويلا نوق هذه الاكداس من الاقذار حيث تعبشمون .

فيقول الحمامة:

- حسنا ، سوف نموت . ولسوف نصبح ملائكة .

فيقول والدياز مدهوشا:

ـــ أنتم ؟ ملائكة ؟

ومن ثم ينفجر ضاحكا ، ويعود فيعذبنا بأتاصيصه المتيته عسن الموتى والحثيث :

ــ اسمعوا ، ايها الفتيان ! لقد دفنوا بالامس سيدة ذات قصة عجيبة . ولمتد اكتشاء كل شيء عنها ، ما رايكم في ذلك؟

كان كثيرا ما بتكلم عن النساء وبصورة بذيئة دوما ، ولكن شبئا من الشك او التساؤل كان يتسرب الى اتناصيصه ، وكانه يتوجه الينا كي نساعده على فهم ذلك جددا ، وكنا نصغى اليه بانتاه ، وهو يتحدث فيقطع حديثه كثيرا كي يطرح على الاسئلة ، ولكن ما يقوله كان بترك دوما اشياء مثيرة في ذاكرتنا .

كان يعرف قصة حباة كل من دفنهم في ارض تلك المتبرة المهجورة . وعندما كان يتحدث ، فكانه كان يفتح امامنا ابواب المنازل المحبطة بنا فندخل اليها ونشاهد حياة سكانها ، ونحس شيئا رهيبا خطيرا في هدذا المعمل . وكان يبدو قادرا على الحديث طوال الليل ، ولكن شوركا كان بهب واقفا عندما بقترب الخلام من النوافذ ، ويقول :

- انبي ذاهب الى الدار - فلسوف تقلق امي . من يرافقني ؟ ونرافقه بميعا . . . فيصحبنا ياز حتى السور .

منرد السلام عليه منزعجين من تركنا اياه في المقبرة . وفي ذات مساء، تطلع كوستروما الى الخلف ، وقال :

- سوف نستيقظ ذات صباح فنجده ميتا .

كان شوركا غالبا ما يدعى ان ياز يعيش حياة اسوا من حباتنا جميعا ، فيعترض الحمامة عليه :

س نحن لا نعبش بصورة سيئة ابدا .

وكنت أوافقه على ذلك . كنت اتمتع محياة الشوارع المستقلة كما كنت مولعا برغاتي ، تملأني صحبتنا بشعور عظيم جديد يوحى الى الرغبة الدائمة في مساعدتهم جمبعا ...

وعدت الاقى المصاعب في الدرسة ، غطفق التلامذة يلتبوننى بالشحاذ وجامع الخرق ، ثم أعلنوا للاستاذ بعد شجار نشب بيننا ان رائحة منتئة تفوح منى بشدة حتى يستحبل الحلوس الى جانبى ، وما زلت اتذكر كم آلمنى ذلك الافتراء ، وكم صعب على ان أعود الى المدرسة بعد ذلك ، كانست الشكوى افتراء حقيرا لانى كنت دائما اغتسل بعناية فائقة كل صباح ، ولا اروح الى المدرسة ابدا في ذات النياب التي ارتديها عند جمع الخرق .

وأخيرا ، اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح كوفئست عليه بشهادة شرفعة وهدية التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتاب أخر يحمل عنوانا غامضا « غاتا مورجانا » . وعندما حملت هذه الهدايا الى الدار ، تأثر جدى كثيراً بها ، وشعر بفرح عظيم هاعلين ان من واجبنا الاحتفاظ

«\A» YY٣

بالكتب في حرز أمين ، وأنه في سبيل ذلك سيحفظها في دولابه . وكانت جدتي تلازم السرير لمرض الم بها منذ أيام ، بينما جدي يزمجرفي وجهها أبدا ويعوي :

ــ لسوف تخربين بيتي ! فتأكلين وتشربين على حسابي ٠٠٠

وهكذا اخذت الكتب الى احد الباعة فاشتراها مني بخمسة وعشرين كوبيكا عدت بها الى جدتى .

وعندما انتهت المدرسة، عدت الى حياة الشوارع التي امست مع قدوم الربيع اكثر سحرا وروعة . . . واصبحنا الان نكسب كمية اكبر من المال ، وفي أيام الاحاد نذهب جميما الى الحقول والغابات ، وقد زادت أواصر الصداقة فيمسا بيننا .

غير انهذه الحياة لم تطلكثيرا ؛ اذ ما لبشازوج اميان ققد عمله قغادرنامرة اخرى الى مكان ما ؛ فجاعت امي وأخي الصغير نيقولاي ليقيما مع جدي ، ولما كانت جدتي قد ذهبت للاقامة في دار تاجر ثري كانت تطرز له غطاء لجسد المسيح ، فقد كان على أن أعنى بتمريض أخى الصغير .

كانت امي الساكتة دوما تكاد لا تجد المقوة لرضع قدميها عن الارض ، بينما أصيب أخي بقروح في مرمفةيه ، شديد الضعف حتى ليعجز عن البكاء ، غان جاع راح يئن بصورة مستمرة ، وأن لم يكن جائعا غهو يغفو وبصعد زغرات متطعة .

قال جدي ذات يوم ، بعد أن تفحص الرضيع طويلا :

-- أن ما يحتاج أنيه هو الغذاء الحسن! ولكن من أين لي كي اطعمكم جميعا!

مُأْجَابِتُ أَمِي ﴾ وهي تتنهــد :

- انه لا يحتاج الى شيء كثير!

_ هذا صغير . . وذاك صغير . .

ولوح بنده في قرف وتوجه الى قائلا :

ــ أن نبغولاي بحتاج الى الشمس ، فأخرج به على الرمال . . .

اخذت كيسا من رمل جاف نظيف ، وكومنه في بقعسه مسمسه محسن النافذه ، ومن مم دفعت أخي ميه حتى المنق مناما امرني جدي ، فبسدا على الرضيع انه احب دلك ، ، ، فكان يطرف بعيبيسه راضبا ، وينفرس بعينسين مذهنين .

أصبحت معرما جدا باحى . . . اطن انه يعهم كل المكساري ، ماسللني الى جانبه ساعات طوبلة بحب الناغذه التي يتناهسي الي منها حسوب ابي المسدوى :

ــ ان الموت لا بكلف تفكيرا طويلا . او كنست مقط سلكين ما يكفي من الذكاء كى معرفى كيف نعيتسين الان . . .

وكان نيقولاي بحرر ذراعيه الصعيرنين ويرفعهما نحسوي ، وهو يشمير براسه الشاحب ، واذا اقترب منسا قط او صوص ، راح نينسولاي يراقبه باننباه مركز ثم يستنبر الى وعلى ثفييه ابسامة ناحلة . كانب هذه الابسامة نقلقني . . . ايمكن ان اخي قد أدرك مبلغ ضجري مسن الجلوس ههنا الى جانبه لا وهل يفهم ان ما ارغب غيه هو المخلص منه واللحاق باصدةاني فسي الشارع ؟

كانت الباحة صغيرة ملاى بهخنك الانقاس ، والخروق ، وعدد مسن المظلات المهترئة ، واثمياء أخرى سواها تهند من البوابة حتى عرفة الحمام في أقصى الباحة . . . وكانت السطوح مزدحمة بألواح من الخشب والعبد وحطام القوارب والنجارة المبلولة ، وجميعها صيد من النهر أيام المغيضان بعد ذوبان الثلوج في الربيع ، وكانست الباحة بأسرها مزروعة بقطسع من الخشب تفوح منها رائحة العنن عندما تضربها الشمس .

وكان البيت المجاور لنا مذبحا صغيرا ياتينا منه في كل صباح تقريبا خوار البقر ، وثفاء الخراف ، ورائحة الدم التي كان يخيل الي لشدتها انها تعلق في الهواء مثل شبكة دقيقة .

وعندما كانت صبحات الحيوانات تخرس بضربة من قضيب حدبدي تنهال بين قرونها ، كان نيقولاي يقطب . ببنه ويمد شنقيه نكانه يحاول ان بقلد اصوات الحيوانات ، غلا ينجح الا في اخراج صوت ضئيل غير مفهوم . وعند الظهيرة ، كان جدي يمد راسه من خلال النافذة وينادى : « الغداء ! » .

وكان هو نفسه يأخذ الرضيع على ركبتيه ويطعمه ، يمضغ الخبر والبطاطا له تبل ان يدفعها بين شفتيه الرقيقنين ، وهو يلوث له فمه وذفنه الصغيرة ويقول:

_ أنساعل ان كان هذا يكنى .

عىقول امى من الزاوية المظلمة حيث ترقد :

- المست برى انه يمد يديه الى الخبز ؟

ـ ان الطفل لا يعرف ان كان قد نال حاجته أم لا .

ولكنه كان يدفع لقمة اخرى في فم الصعير بالرغم من ذلك . ويقسول جدى اخسيرا:

_ حسنا ! خذه الى امه الان .

وعندما كنت آخذ نيتولاي بين ذراعسي ، كان يثن ويمد ذراعيسه نحو المائدة . وكانت أمي ، وقد نحلت بشكل مخيف ، تنهض نفسها لتلقاني وهي نمد ذراعيها الطويلين الماريين من اللحم .

ونادرا ما كانت تنكلم . أما الكلمات القليلة التي تتفوه بها فتندحرج بسرعة من صدر مسلول ...

كانت ترقد طول النهار في مسكون وتموت ببطء في تلك الزاوية .

كنت احس انها تشرف على الموت ، وجدي يوضح ذلك بكثرة حديثه عن الموت ، واصراره على ذكره دون انقطاع .

كان سرير جدي يقوم في الزاوية تحت الايتونسات تقريبا ، وكسان ينام ورأسه الى النافذة ، وقبل ان يستسلم للنوم يروح يغمغم بينه وبين نفسه:

- حسنا! لقد حان اوان المهوت ، ولسوف نقدم الى خالقنا مشهدا رائعا ، ماذا عسانا ان نقول ؟ لكأنني أشتغل طوال حياتي - أعمل دوما شيئا ما . وهذا ما نتج عن ذلك !

كنت أنام على الارض بين الموقد والنائذة ، وكانت المساحة قصيرة جدا

بالنسبة الى ، فاضطر الى دفع قدمي تحت الموقد حيث لا تنقطع الصراصير عن دغدغة جلدي ، كان جدي، وهو يطهو الطعام ، يكسر أبدا زجاج النافذة بالطرف الاخر من ملقط النار الذي يدفع به اوعية الطعام من الفرن واليه . كان من الغريب والمضحك ان رجلا ذكيا مثله لم يفكر في قطع الطرف الاخر من المقط للتخلص من أذاه .

وفي ذات يوم ، بينما كان شيء ما يغلي على المرن ، دمع بالملقط بشدة حتى كسر الوعاءوحطم مصراع الناهدة ولوحين من الزجاج ، وكان ذلك مصيبة عظيمة خصوصا بعد ان جلس العجوز على الارض وشرع يبكى.

وعندما ترك البيت أخيرا المتناولت سكين الخبز وقطعت نهاية الملقط. . .

مساح جدي ، عندما رجع ورأى ما معلت :

- ايها اللعين ، كان يجب أن تنشره ، هل تسمع ؟ تنشره بالمنشار ! كان يمكن أن نصنع من قطعه بعض الدبابيس ونبيعها . ألا تبا لهذه العائلة البـــذرة !

وقالت امي عندما خرج مسرعا الى الرواق:

ــ الافضل الا تهد يدك الى اي شيء مهما كان .

ماتت امى ظهر يوم احد من شهر اب . كان زوجها قد عاد حديثا من رحلته ووجد عملا ، وقد انتقلت جدتي ونيقولاي واياه الى جناح نظيف صغير يقع بعد المحطة حيث كانوا سينقلون امي بعد ايام قليلة . . .

و فيصبيحة اليوم الذي ماتت نيه ، قالت لي بصوت ضعيف :

- اذهب وقل ليفجيني فاسيلينيتش اني اريد ان اراه .

وجلست ٤ وهي تعتبد على الحائط لتسند نفسها ٠٠٠

واستطردت ، وهي تعود متسقط على الوسائد :

... اركض سريعيا ا

خيل الى انها كانت تبتسم وان نورا جديدا كان يلمع في عينيها . كان

زوج أمي في الكنيسة فأرسليني جدسي الى اليهودية كمسي أشسري بعض السعوط . ولم يكن لدى هذه الاحيرة شيء منه ، فكان علي ان أنتظر تهيئته.

عندما عدت اخيرا اللى بيت والدي ، وجدت امسي جالسة الى الماندة تربدي ثوبا نظيفا ، وقد سرحت شعرها بعناية ، فخوره متكبره مناما كانت عليه عيما مضى .

سألتها خجولا ، دون أن أدري سبب ذلك :

_ هل أنت احسن من ذي قبل لا

فقالت ، وهي ترمقني :

ــ تعال هنا . أين كنت حتى هذه الساعة ؟

وقبل ان أجد الوقت الكاني للاجابة ، المسكت بي من شعري وحاولت ال تضربني غلم تتمكن من ذلك . تم دفعتني ، وذهبت وجلست على حافة الموقد ورحت أراقبها بعينين مذعورتين .

تامت عن مقعدها ، ومنت ببطء نحو الزاوية حيث رقدت على السرير وشرعت تجفف العرق المصبب على وجهها ، كانت يدها تتحرك في المصلالاب ، كما سقطت مرنبي على الوسادة والمنديل يرتجف بين أصابعها ،

- قليلا من الماء ...

قدمت لها غدح ماء صن السطل - فابتلعت جرعسة وهي ترفع رأسهسا بدسعوبة خلبة - ودفعنني عنها بيد باردة وصعدت زفرة عمبقة - نظرت الى الانقونات في الزاويه - نم تطلعت الي ، وحركت شفيها وكأنها نتسم - ثم الم بنت جفنها الطويلين على عننيها - كان مرفقاها مشدودين الى جانبيها - بنما ارتفعت بداها الى صدرها - ومر ظل على وجهها ، بينما فتحت فمها غير دهشة .

وقف هماك وقما بدا لي انه أجيال كتيرة لا حسر لها ، والقدح في يدى انت رحه أمى وهو مصلب وبكسي باللون الرمادي ،

دخار جدي ، قلست :

ــ لقد ماتت أمسى .

مأحاب ، وهو يلقى نظرة سريعة على السرير:

ــ لماذا تكذب ؟

ثم اتجه الى الفرن وراح يحرك الفطير وهو يثير ضجيجا مملا :

راقبته ، وأنا أعلم أن أمى قد ماتت ، وانتظر أن يتحقق من ذلك .

ودخل زوج أمي ، وهو يرتدي معطفا عسوفيسا أبيض ويغطسي رأسه بقبعة ، تثاول بكل هدوء مقعدا وحمله الى جانب سرير أمى ، بغتة ، أسقط المقعد من يده ، وصاح :

_ لقد ماتــت !

مترنح جدي في اتجاه السرير ، والملقط في يده ، وعيناه تكادان ان تقفزا من محجريهما .

عندما بداوا يجرفون الرمل على نعش امي ، راحت جدتى تتنقل على غير هدى بين القبور الاخرى . . فتعثرت بأحد الصلبان ، وسقطت على وجهها الذي تأذى من ذلك . اخذها والد ياز الى بيته ، وبينما هي تغسل جرحها كان هو يهمس في اذنى بهدوء بكلمات معزية :

- فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة! ما بالك ؟ يجب الا تشغل بالك بمثل هذا الامر . السبت على حق ، ابتها الجدة ؟ ان الفقير والغنى بذهبان حميما الى الحفرة .

عندما انتهت جدتى من الاغتسال ، افتهمنديلا حسول وجهها المنتفخ ودعتني كي أرافقها الى الدار . لكننسي رفضت . . . فقد كنت أعلم انهسم سيشربون ويتقاتلون في خلال الوليمة التي تتلو الماتم . كنا في الكنيسة بعد عندما سمعت الخال ميخائيل يقول للخال ياكوف :

- حسنا! سوق نتناول قدحا لا بأس به هذا النهار ، ما ؟

مجرب الحمامة ان بخلف عنى بتعليق المهماز ومحاولة الوصول البه

بلسانه ، مطنق والدياز يضحك ضحكا واضح المبالمغة ، وهو يصيح :

ــ انظروا مقط ما هو ماعل ، انظروا مقط!

لكنه عندما راى نشل ذلك في تسليتي ، انقلب جادا وقال :

_ كنى ، كنى ! تمالك نفسك ! لا بد لكـل انسان ان يمـوت ! حتى العصافير تموت ! ان كنت تريد ذلك فسوف اضع بعض العشب حول قبر الحك . هل تحب ذلك ؟ سوف نذهب الى الحقول الان ونجمع ذلك العشب سوف نقتطع العشب ونضعه حول القبر . وأن يكون هناك قبر اخر ينازعه جمـالا .

اعجبتني هذه الفكرة ، فذهبنا جميعا الى الحقول ٠٠٠

بعد أيام من وفاة والدتبي قال لي جدي:

ـ حسنا ، يا الكسي ! انب الضبط لا استطيع ان ابقيك مدالية معلقة في عنقي . ليس لك من مكان بعد اليوم ههنا ، فقد آن لك ان تخرج الى ما بين النساس ...

وهكذا خرجت الى العالم ...





منهورات داره کتیه بالحیات پروند اسان